

رواية تاريخية

أسياد وملوك

د. علي مغنم

دار نشر و التوزيع





ملخص تاريخي موجز لحضارة (مصر) القديمة



ما زال عصر ما قبل الأسرات غامضا، ولا بد أن سر نشوء الحضارة المصرية القديمة يتعلق به، وإن كان غالبا ما يتم تفسيره بحافز الحضارات القادمة من خارج (مصر)..

بدأ حكم (مصر) بمجموعة من الملوك كان يشار لأسمائهم بعلامات تدل على الحيوانات، كالسمكة والفيل والثور والأسد وغيرها، إنها السلالات الملقبة بالسلالة صفران (٠٠) ومعاصرة لثقافات (نقادة) المتأخرة ٣٥٠٠ حتى ٣٢٠٠ ق.م.. والتي ظهرت بها الكتابة والمعتقدات الدينية الجنائزية، ممثلةً بداية نشوء النماذج الأولية لعصر السلالات القادم بأسره..

ثم تأتي السلالة صفر خلال الفترة من ٣٢٠٠ وحتى ٣٠٥٠ ق.م حيث دارت صراعات طويلة بين إقليمي الشمال والجنوب انتهت -بحسب الدراسات الحديثة- بتوحيد

المملكتين في مملكة واحدة على يد الملكين، الملك (العقرب) والملك (نارمر) ..

الأسرتان (٢-١) وعصر المملكة العتيقة وتوحيد (مصر)

٣١٠٠-٢٦٨٦ ق.م

ارتدى (نارمر) التاج المزدوج وأصبح مؤسس أول أسرة حاكمة في تاريخ (مصر) والعالم كله، واختار لنفسه عاصمة جديدة تقع بمكان يتوسط الشمال والجنوب وهي مدينة (منف) .. وقد حكمت أسرتان متتاليتان حكم (مصر) حيث أصبحت البلاد من أعظم حضارات العالم القديم، ونضجت كل أنظمتها لتصبح حضارة متميزة وأصلية ذات مؤسسات دينية ودنوية، وتم إنشاء المقابر الملكية والمسطبات ب(سقارة) ..

الأسرات (٦-٣) وعصر المملكة القديمة

٢٥٨٦-٢١٨١ ق.م

ببزوغ الأسرة الثالثة يبدأ عصر كبار الملوك ك(زوسر) -الأسرة الثالثة- و(خوفو) و(خفرع) و(منكاورع) -الأسرة الرابعة، العصر الشهير بلقب عصر بناء الأهرام.. ظهرت

المجمعات الإلهية الكبرى والتي تركزت في ثلاث مدن،
(الأشمونين) أو (هرموبوليس)، و(أون) أو (هليوبوليس)،
و(منف) أو (ممفيس)، بالإضافة لاستمرار عبادة الآلهة
المحلية بكل مدينة، وأصبح (رع) هو الإله القومي المصري
ذو النفوذ الكهنوتي العالي..

الأسرات (٧-١٠) وعصر الانتقال الأول من المملكة القديمة للوسطى

تبدأ ٢٢٥٠ ق.م

انهارت الدولة وساد الاضمحلال والذي استمر حتى الأسرة
العاشرة، إنه عصر الأسر المنفية، كانت (طيبة) هي المسيطرة
على البلاد، ولكنها كانت فترة اضطرابات داخلية وغزوات
أجنبية..

الأسرات (١١-١٢) وعصر الدولة الوسطى

٢١٣٤-١٧٥٩ ق.م

ولم تستعد البلاد قوتها إلا مع الأسرة الحادية عشرة،
والمتمثلة في الملوك (إنتف) الأول والثاني والثالث، والملوك
من (منتوحتب) الأول وحتى الخامس.. استمرت (طيبة)
تحكم (مصر) وانتشر نفوذها لخارج الحدود ب(الشام)
و(النوبة)، ثم بدأ حكم الأسرة الثانية عشرة بظهور العظيم

(سحتب إيب رع) أو (أمنمحات) الأول والذي تلاه ابنه (سنوسرت)، ليستمر عهد من الازدهار على يد هذه السلالة والتي استمرت حتى (أمنمحات) الرابع و(سنوسرت) الثالث..

الأسرتان (١٣-١٤) وعصر الانتقال الثاني

١٧٨٣-١٦٤٩ ق.م

دب الضعف في الملوك وأصبحت السلطة بيد الوزراء، انهارت البلاد سياسيا واقتصاديا مما مهّد الوضع لاحتلال (الهكسوس) ل(مصر)..

الأسرتان (١٥-١٦) ومرحلة (الهكسوس)

احتل البلاد بدو قادمين الشرق، وهو احتلال كان له آثار سلبية وأخرى إيجابية أبرزها الاتصال ب(آسيا) وإعطاء شحنة جديدة للبلاد روحيا وحضاريا.. حكموا البلاد من مدينة (أواريس) شرق الدلتا..

الأسرة السابعة عشرة ومملكة (طيبة)

١٥٨٠-١٥٤٩ ق.م

حكم فيها ١٦ ملكًا، لم يستقل منهم استقلالاً حقيقياً عن (الهكسوس) إلا آخر ثلاثة ملوك، (سقن رع تاعا) الأول ثم (سقن رع) ثم الأخير (كامس)، كان عصرا شديدا الاضطراب

يفتقر للهدوء والاستقرار والبناء الرصين، ودخلت عناصر
آسيوية جديدة للديانة المصرية.. وانتهى بطرد (الهكسوس)
من (مصر)..

الأسرات (١٨-٢٠) وبداية عصر المملكة الحديثة

١٥٥٠-١٠٧٠ ق.م

لاحق المصريون (الهكسوس) بعد طردهم، وتتبعوهم
شرقا ليمتد النفوذ المصري خارج الحدود.. سطعت (طيبة)
-(الأقصر) حاليا-كونها منبع ملوك محجري (مصر) من
الغزاة، وصارت ديانتها هي الرسمية وامتلات بالمعابد
والقصور وأعظمها معبد الإله (آمون) -(الكرنك) حاليا..
أنجبت الأسرة الثامنة عشرة الملوك العظام، بدءًا ب(أحمس)
الأول مروّرًا ب(تحتمس) الأول والثاني، ثم أعظم ملوك
(مصر) المحاربين -وأعظم ملوك التاريخ كله- (تحتمس)
الثالث.. ثم أتت الأسرة التاسعة عشرة ب(رمسيس) الأول
والثاني و(سيتي) الأول والثاني، ثم استمر الرعامسة
أولاد (رمسيس) ليؤسسوا الأسرة العشرين والممتدة حتى
(رمسيس) الحادي عشر والأخير..

إنه عصر امتداد النفوذ المصري لأقصاه، عصر المعابد
المتطورة ومقابر الملوك والملكات العظيمة والمنحوتة في
صخور الجبال..

الأسرات (٢١-٢٥) وعصر الانتقال الثالث

١٠٨٥-٦٦٣ ق.م

هجر ملوك (مصر) (طيبة) بدءًا من (رمسيس) التاسع وأقاموا بالوجه البحري، دبت الاضطرابات.. انفصلت الدلتا عن الإمبراطورية.. حكم (مصر) ملوك أجنبي ناسبين أنفسهم للبلاد.. ثم انقسمت البلاد لعدة إمارات، ثم حكم (النوبيون) - (الأثيوبيين) - البلاد..

الأسرات (٢٦-٣١) وعصر الأفول

٦٦٣-٣٣٢ ق.م

احتل (الآشوريون) (مصر) أثناء حكم (النوبيين)، وبدأت البلاد تنهار داخليا.. ولم تنفع محاولة الملك (بسماتيك) - الأسرة ٢٦ - في الإصلاح رغم جديتها، ولم تكن إلا صحوه ما قبل الموت، فقد ضغط (البابليون) على (مصر)، ثم احتلها (الفرس)، وكانت الأسر الثلاثة الأخيرة لهذا العصر شاهدة على نهاية هذه الحضارة العظيمة..

خلال الصفحات القادمة سأقوم بسرد خمس قصص لأعظم شخصيات كان لها الفضل على تاريخ هذه الحضارة العظيمة بشكل خاص، وتاريخ العالم القديم كله بشكل عام.. إنها شخصيات حاولت انتقاءها بعناية من وسط عدد هائل من عظماء مصريين قدماء.. كان الاختيار صعبًا، ولكن مهما فعلت فلا يمكن حصر جميع عظماء هذه الحضارة، لذا قمت باختيار الشخصيات التي أعتقد أن لها التأثير الأكثر على خط سير التاريخ، مع تركيز بسيط على التاريخ نفسه وتركيز أكثر على الجوانب الدرامية النفسية لكل شخصية.. سترى هنا العظماء كأفراد وليس كأسياد وملوك..

ورغم العدد المهول من المصادر التاريخية التي تم الاستعانة بها لكتابة هذه القصص، والتي سيتم ذكرها بآخر الكتاب، فإنني أتمنى ألا يتم اعتبار هذا الكتاب كتاب تاريخي بحت.. فتاريخ حضارات العالم القديم - وخاصةً (مصر) - مراوغ للغاية ولا يوجد له مصدر واحد يمكن اعتباره صحيحًا بشكل تام، فهناك الكثير من الفرضيات والآراء في سيرة كل شخصية، وكثيرًا ما تجد المعلومة ونقيضها بعدة مصادر، لذا تم اختيار أكثر المصادر المعترف بها من الجهات المتخصصة، والأكثر أهمية هو محاولتي لجمع المعلومات الأكثر عقلانية، والبعد تمامًا عن المعلومات المثيرة للجدل..

كن على ثقة بأن ما بين يديك هو الأقرب للحقيقة تاريخيًا، ولكنه ليس الحقيقة المطلقة، لأنه لا يوجد من نجح في سبر أغوار حقيقة تاريخ (مصر) القديمة بشكل كامل حتى هذه اللحظة..

إن ما ستقرأه الآن هو محاولة لاستكشاف جوانب شخصية لأسماء سمعتها مرارًا منذ طفولتك، وأتمنى أن أنجح في تحويلها من مجرد أسماء جامدة لأرواح حقيقية متجسدة تسمعها وتتخيلها وتتفاعل معها.. أتمنى لهم جميعًا ما آمنوا به جميعًا.. أتمنى أن يتم بعثهم من جديد أحياء بواسطة الحروف والكلمات..



(قصة الوزير)

منف

تدور أحداث القصة الأولى بالمدينة المصرية القديمة الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيل شمالا، كانت تسمى (مدينة الجدران البيضاء) منذ القدم وحتى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد، ثم أطلق عليها المصريون القدماء اسم (من نفر) -أي الدائمة والجميلة- بدءًا من العام ١٥٥٠ ق.م، أصبحت (ممفي) باللغة القبطية، وهو الاسم الذي حرفه الإغريق فصار (ممفيس)، ثم أطلق عليها العرب (منف).. وذكرها الكتاب المقدس باسم (موف) أو (نوف).. ومكانها الحالي مدينة (البدرشين) ب(الجيزة) -قرية (ميت رهينة) بالتحديد- على بعد ١٩ كم من (القاهرة) جنوبا..

تُصَنَّف هذه المدينة من ضمن مواقع التراث العالمي، تأسست عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد على يد الملك (نارمر)، وكانت عاصمة ل(مصر) في عصر الدولة القديمة عصر بناء الأهرام (والذي يبدأ بالأسرة الثالثة وينتهي بالأسرة السادسة)، رسمت هذه المدينة الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى، فكانت تمثل المقاطعة الثانية والعشرون من مصر العليا والأولى من مصر السفلى، تقع وسط البقعة الخضراء الوارفة بين بَرِّ النيل الغربي وحافة الصحراء السمراء، كانت ضخمة

الحجم يمتد محيطها عبر قنوات وطرق متصلة بموانئها، لتكوّن امتداد حضري شاسع ظلّ مركزه هو معبد الإله (بتاح)، إله المدينة الرئيسي وراعي الحرفيين والبنائين ومخترع الفنون، والممتد ليشمل ثلاث إلهي مقدس يجمع الإله (بتاح) وزوجته الإلهة (سيخمت) وابنتهما (نفرتيم)، الثلاث الذي تختص عبادته ب(منف) فقط، و(بتاح) هو أحد أقدم الآلهة والذي رأى الخليقة في منامه فتكلّمها فكانت، فقد كان يخلق العالم والناس وحتى الآلهة بمجرد أن يفكر بها في داخله ثم ينطق اسمها فتنخلق، وكان العجل (أبيس) هو رمزه الحيواني المقدس، بينما تم رسم زوجته (سخميت) -الملقبة بسيدة الأرضين وربة الحرب والساحرة العظيمة- كامرأة لها رأس لبؤة جالسة على العرش ويعلو رأسها قرص الشمس و ثعبان الكوبرا..

((التَّحِيَّاتُ لَكَ يَا مَلِكَ الْمُلُوكِ وَسَيِّدَ السَّادَةِ وَأَحْكَمَ
الْحَاكِمِينَ وَصَاحِبَ الْأَرْضِينَ..

يَا وَاسِعَ الصَّدْرِ جَمِيلَ الْمُحْيَا بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ..
أَنْتَ تَمْنَحُ النِّعَمَ فِي السَّمَاءِ، وَالْقُوَّةَ عَلَى الْأَرْضِ..
وَالانْتِصَارَ فِي الْجَبَانَةِ، وَالْإِنْبَحَارَ شَمَالًا وَجَنُوبًا..))

من السطر ٨ و١٠ و١٣ من الفصل رقم ١٥ باللوحة الثانية
من كتاب الموتى

الفصل الأول

لقد نجح الأسطوري (نارمر) في توحيد البلاد أخيرًا، أسس الأسرة الأولى وارتدى التاج المزدوج، وصار رمزا أيقونيا لكل من تبعه من ملوك.. وسار ملوك الأسرة الثانية على نهجه.. ونحن الآن على أعتاب بداية أول ملوك الأسرة الثالثة العظيمة..

خَرَّ العامة سُجَّدًا بمجرد رؤيتهم لموكب الملك المصري قادمًا، كان أغلبهم قد سمع بالأخبار المتناثرة على الألسن بأن الملك العظيم (حورس) الذهبي سيعود لقصره قبل غروب الشمس، مما جعل الكثير ينتظر بصبر أملا في التقاط قبس من لمحة أو نظرة من ملكهم وإلههم، يظل الفرد منهم يتباهى بها ما تبقى من عمره، لم يكن من السهل التنبؤ بمواعيد خروج ودخول موكب الملك، كانت كلها تخمينات تأتي من مصادر غير معروفة، يتبعها العامة بدون تفكير رغم يقينهم من ندرة صحة تلك التخمينات، ولكن كانت هذه المرة من تلك النواذر، فالتراب الذي يعلو الأفق لا يمكن أن ينتج إلا عن سنابك خيل كثيرة العدد، وبدأت تتنامى للأسماع جلبة صهيل الخيل ممتزجة بنباح القليل من الكلاب التي يتضمنها الموكب عادةً، بالإضافة لصياح آت من حلق كل من رأى

الموكب من بعيد وتيقن من حسن حظه.. سيتمكنهم رؤية الملك إله الشمس المتجسد..

بدأ الموكب بالعديد من الحراس الذين قاموا بتأمين مسافة آمنة على جانبي طريق الموكب، ثم ظهر لأطراف العيون التي أطرقت رؤوسها أرضا بخشوع -شيئا من سطوع منعكس عن الذهب والأحجار الكريمة التي ترصع الكرسي الملكي الخشبي المهيّب، حيث استطاعوا أن يلمحوا شذرات من جسد قوي واقف بشموخ، وأسفله يعدو عبيد أقوياء يحملون كرسیه المتربع للمحفة الملكية بدون كلل، وحوله يعدو عبيد آخرون لا يكفون عن تحريك مراوح من ريش ضخمة موجهين الريح نحو جسده، فجعل الهواء يهز أطراف ثوب الملك لترفرف حاشية إزاره بحماسة، وتحيل حرّ اليوم لربيع مقيم..

انقضى الموكب بسرعة مذهلة، قبل أن يرفع العامة رؤوسهم وقشعريرة فخر لا تغادر أجسادهم شبه العارية.. لقد مرّ (حورس) الذهبي من هنا..

انفتحت البوابة الخشبية الضخمة ليختفي خلفها الموكب مثيرا زوايع رملية أخفت البوابة والقصر عن النظر، ولكنها لم تنجح في التعتيم على الأسوار شديدة الارتفاع والمتانة، والتي كانت تجعل من القصر أشبه بقلعة حربية من الخارج،

والواقع أنه رغم عظمة مكانة الملك بالجدار الأبيض وبالبلاد كلها، فإن قصره يبقا متواضعا مقارنةً بألوهيته، أو مقارنةً بمعبد الإله (بتاح) معبود الجدار الأبيض الرئيسي، ولم يكن هذا غير منطقي، فلم يكن الملك المصري يشيد قصره إلا ليعيش به حياته قصيرة الأمد، عالمًا أن وريثه سيأتي ليشيد قصره الخاص به يوما ما حسب المتبع، إذ لم يكن من المعتاد أن يقيم الملك الجديد بقصر أبيه..

تخطى الموكب الحقائق الغناء التي كانت تملأ ما بين الأسوار والقصر نفسه، ليعلو صوته على صوت هدير مياه البحيرات الصناعية التي تتوسط الزهور والرياحين، ترجل الملك برشاقة تسند أيادي العبيد باطن قدميه، ليستقر على ساقين قدتا من عضلات نحاسية اللون كلون بشرته، ثم رفع عقيرته مجسدا هيئة إله بشري وهو يسير بخيلاء صوب بوابة القصر المزينة بالزخرفات ذات الألوان الساطعة، والتي أحاطت بها أعمدة من الطوب اللبن منقوش عليها وريقات البردي، تعدى تلك البوابة ليدخل بهو الاجتماع الفسيح، متجها نحو إحدى غرفتي الاستقبال الفخمتين، واللتين لا يوجد خلفهما إلا غرفه نومه هو وحرمه وأسرته، بينما هبت نسيمات من ربح آتية من الشرفة الشمالية والتي كان يطل منها الملك على رعاياه في المناسبات الهامة..

اختفى الملك بغرفة نومه، فتفرق الجمع الملاحق له والمكوّن للموكب السابق ليتوزعوا فردا فردا بأطراف البهو، حشد من نبلاء ووزراء وحكام أقاليم وقواد جيش ومديري إدارة وكبير الكهنة، منتظرين عودة الملك ابن الشمس ليطالع رسائلهم وتقاريرهم ويبدأ البت فيها وإصدار القرارات الملكية المصيرية..

ولم ينتبه أحد لذلك المهندس المعماري الذي كان يقف -حرفيًا- آخر فرد بالجمع، بالقرب من بوابة البهو وكأنه ينوي الفرار في أية لحظة، ودماغه لا تكف في التفكير في عاقبة ما يريد قوله للملك، هذا إن سمح له الملك بالحديث كونه أحد العامة في النهاية، ومجرد تواجده مع هؤلاء القوم لهو حلم لا يمكن لأي مهندس غيره أن يتخيله، ولولا توسط كبير المهندسين له شخصيا لما نال هذا الشرف..

غاب الملك قليلا مرت على منتظره دهورا، اغتسل فيها على يد الخادمة التي كانت تنتظره كتمثال منذ خروجه صباحا، ارتطم ماء بارد مشبع بالنظرون بوجهه عبر صنبور الإبريق الذهبي الخاص به، ثم جعل الماء ينصب طويلا على ساقيه وقدميه ليدفع عنهما ما نالاه من نصب اليوم كله، ثم اتجه لغرفة نومه الملكية حيث استقبلته الملكة بابتسامة هادئة ولثمت وجنتيه، قبل أن تهرع إليه خادمة أخرى تقوم

بتعطير جسده، كان يحتاج اغتسالا كاملا وتدليكا بزيت
الأشجار ولكنه لم يملك الوقت اليوم، ففضّل تأجيل ممارسات
الراحة والاستجمام هذه والعودة للبهو حيث ينتظره الكثير
من العمل.. لا يوجد وقت ليضيعه فالبلاذ تمر بأيام جسام، ولا
يريد أن يضيع منها قدر ساعة واحدة..

سأل زوجته بصوته القوي:

- ألن تأتي معي؟

وضعت أصابعها الرقيقة على كتفه القوي، ثم قالت بخمول:

- سيكون هناك العديد من المناقشات.. رأسي يؤلمني بما
يكفي.. سأنتظرك لتدفئ سريرك الوثير بعد انتهائك من
تبعاتك الجسام يا ابن الشمس..

ألقي نظرة فاحصة على غالاتها الشفافة التي تكشف
أكثر مما تستر، وبدا على وجهه للحظات وكأنه سيغير رأيه
ويدفئ سريريه في التو واللحظة، ولكنه ما لبث أن قبل
أناملها وهو يغمغم مبتسما:

- لا تقلقي.. سأحاول أن أكون حاسمًا..

غادرها بخطوات بطيئة ولكن واثقة، فتململت وهي تسند
مؤخرتها للسريـر الملكي وقلبها ينبئها بأنها ستنتظره طويلا

بما يكفي لتغيب في النوم قبل ظهوره، كما حدث بالأيام السابقة السبعة، يبدو أن هناك تصاعدا مستمرا في أمور الحكم، وزوجها -الإله والملك- يصّر على جعل مملكته أقوى من كل ما سبقها من أسرات..

أَظَلَّ الملك عليهم فألقى الجميع سُجْدًا بحركة واحدة سريعة، استوى على عرشه الخشبي المُطَعَّم بالأحجار الكريمة والذهب والفضة وهو يلقي نظرة أسرة عليهم، تجمد الجميع وكأن الزمن توقف بهم، حتى زَوْج العبيد المُوكَّلِين بإشعال مشاعل البهو وتحويل الليل الزاحف لنهار مقيم.. ثم تنهد الملك قبل أن يقول بهدوء وإيجاز:

- لقد كان يوما عصيبا.. لا أريد قضاء الليل كله في مناقشة أمور الدولة.. ليقصر الجميع على الأمور الأكثر أهمية فقط لا غير.. وليتم تأجيل ما يمكن تأجيله..

قالها وعقله مشغول بسريره الملكي ومليكته التي تنتظره بالداخل..

توتر الرجال أكثر مع تحذير الملك، فسارع رئيس البلاط بتوزيع الأدوار بحسب ما يراه مناسبا، اعتدل الجميع ببطء من سجدتهم بين يدي الملك ورئيس البلاط يقول مشيرا نحو أحدهم صائحا بقوة:

- هضاب الفيروز!

سارع أحدهم بالانتفاض وهو يقول متحدثا بسرعة من قال نفس الكلمات مرارا وتكرارا حتى حفظها عن ظهر قلب:

- التحيات لك.. أنت تشرق أنت تضيء وقد تم تتويجك كملك الآلهة.. لتعش بازدهار وصحة أيها الخالق.. يسبح لك الذين في الأعالي.. ويسبح لك الذين في الأعماق.. وتعلو أصوات التهليل بالمعبد العظيم عندما يبصرون شروق (حورس) الذهبي.. لعلك ترضى عني عسى أن أشاهد بهاءك.. عسى أن أصد الثعبان المتمرد في وقته..

صمت الملك متمللا، وهو يعلم أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال ألا يبدأ أي شخص بالتحدث معه بدون البدء بمديحه، كما أنه لا يحق له بتر كلماته، لذا تظاهر بالاهتمام بالكلمات - التي حفظها كما يحفظ شوارع الجدار الأبيض - ثم هز رأسه وكأنه يستحسن المديح، وسامحا له بالبدء في الحديث الجدي، فقال له الرجل بنبرة حزينة:

- رحلاتنا متوقفة لهضاب الفيروز طيلة شهور فصل (شيمو) الحارة..

تمتم الملك:

- هذا المتوقع.. الأجواء شديدة الحرارة على العمال، كما

أن الحرارة تؤثر على ألوان وجودة الأحجار الكريمة نفسها..
نبدأ في تجريد حملاتنا التنقيبية مع بدء أول شهور موسم
(آخت) وفيضان النيل العظيم..

- وصلتنا أخبار عن قبائل برية تعيث الفساد بمغاراتنا
التنقيبية هناك وتستولي على نتاج مجهودات العام السابق..
بدا الغضب على وجه الملك وهو يدير نظره نحو شخص
آخر قائلاً آمراً:

- قائد الجيوش.. قم بتجريد حملتين مئثلتين بالأسلحة
والجنود الغلاظ وسيطر لي على كل هضاب الفيروز.. لا أريد
أن يتم المساس بمصادر الذهب والفضة والفيروز هناك، فبها
أعول على إحداث نهضة عمرانية لا مثيل لها بالبلاد..

هز قائد الجيوش رأسه بحماس هاتفاً:

- أمر مولاي (حورس) الذهبي..

عم الصمت قليلاً وقد أثارت لفظة (فيضان) المرارة
بالنفوس، فلمدة عامان لم يفض النيل العظيم، وهذا أمر
لم يحدث من قبل وله عظيم الأثر على الزراعة واقتصاد
البلاد، كان الملك يشعر بجسامة الحدث ولكنه لم يكن قد
اتخذ بشأنه قراراً مصيرياً حتى الآن، اتجه نحو رئيس البلاط
وسأله باهتمام:

- وكيف الحال البلاد بعد عامين من عدم ارتفاع النيل العظيم؟

أجاب رئيس البلاط بمقدمة في مدح الملك الإلهي، ثم أجابه بقنوط:

- قلوب الناس في ضيق وألم، لم تَعُد الحبوب وفيرة، شَحَّ الأكل والشراب، حُرِمَ الجميع من حصاده، يَيْئَس الشباب وتعب المُسَيِّئون وأصبح الخدم بدون عمل.. باختصار كل شيء في الوجود أصبح مُصابا..

بدا الملك متحيرا ومهموما، اتجه نحو كبير الكهنة وبادره بالسؤال:

- ما السبب؟ وما الحل؟ وهل يوجد بأرشيف الدولة القديم حالة مشابهة واجهت فيها البلاد كارثة مثل هذه؟ وإن وجدت كيف تم التصرف وحلها؟

بعد انتهاء فاصل التقديس أجابه كبير الكهنة بهدوء بهدوء:

- لقد كَثَّفنا من صلواتنا وقرابيننا.. جاءنا الرد من كهنة (تحوت) ب(آبو) بأن الإله (خنوم) غاضب لذا لا يسمح بتدفق المياه، لابد من ترضيته..

قال الملك بعزم:

- سأزور (آبو) وأسترضي الإله (خنوم) بنفسى.. ولأحمل
معى من القراىبن ما يسد شوارع البلاد كلها..

لم يعلق أحد رغم مغالاته فى البذل وقت الكرب، ولكنهم
وثقوا فى أن الحل لن يأتى إلا على يدى الملك الإله ولا أحد
سواه..

أجال الملك عىنيه فى الحضور بلا تمييز وهو يسأل بلهجة
من يريد إنهاء الجلسة باكرا:

- هل يوجد من لده حل عملى للكارثة؟ شىء نقوم بفعله
ربثما يرضى علينا الإله (خنوم) ويعيد لنا ارتفاع النيل
العظيم المتمرد؟

لم يرد أحد.. إن كان هناك حل لفعلوه منذ سنتين منذ بدء
الطامة، كرر الملك سؤاله مرة أخرى وهو يهّم بالاعتدال فأتاه
صوت مبحوح لم يدر مصدره، سأل بفضول:

- لا يمكننى سماعك أيها الرجل..

لاحظ شخصا تحرك من مكانه البعيد ووجهه شديد
الامتقاع من توجيه الملك الكلام له شخصيا، فأشار له
بسبابته ليقتررب وهو يسأل رئيس البلاط بخفوت:

- من هذا؟ إنه وجه جديد ببلاطى..

أجابه رئيس البلاط:

- مهندس نشيط من مهندسينا، جاء بتوصية من كبير المهندسين.. يقول إن لديه حلولا للكارثة الحالية..

بدأ الاهتمام يطل من عيني الملك، واعتدل بكرسيه وهو يشعر بأن أمراً جَلَّلاً على وشك الحدوث، وهو يتابع المهندس -البادي في الخمسينيات من عمره- يقترب بخطوات متوجسة، قال الملك بقوة:

- هات ما لديك..

انبرى المهندس يمدح الملك بكلمات مرتجفة النبرات من خوفه للمقام، ثم قال بسرعة وكأنه يقذف الكلمات قذفا:

- سنحتاج لتحويل مجرى النيل.. لابد من إنشاء جسور.. لا يعقل ألا يكون هناك مقاييس دائمة لمياه النيل.. ولابد من البدء في استخدام الحجارة في البناء والتشييد بدلا من الطوب اللبن المتهالك..

برقت عينا الملك بشدة، هذا كلام لم يسمعه من أحد من قبل، كلام يبدو وكأنه آتٍ من حقبة مستقبلية، شعر بأنه أخيرا وجد من يستطيع أن يعتمد عليه في إيجاد حل مؤقت لهذه الكارثة، وربما أساس يعتمد عليه للبدء في نهضة شاملة غير مسبوقة يسبق بها كل سلفه من الملوك، ولكنه وعلى

الرغم منه وجد نفسه يكرر مأخوذاً:

- الحجر في البناء؟

صمت المهندس وكذلك فعل الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، عاد الملك ليتفكر قليلاً ثم قال لرئيس البلاط:

- أريد أن ينضم هذا المهندس طيب القلب حكيم العقل لفريق المهندسين الملكي..

تنحى المهندس فرشقة النظرات الملتاعة كمن وقّع وثيقة هلاكه بيديه، لقد قاطع الملك، ولكن وقبل أن يوبخه أحد سارع الملك بتجاوز هذا التجاوز - لأهمية ما جاء به من حلول ربما- وهو يسأله ببرود:

- ألا تريد الانضمام لمهندسي الملك الإله ابن الشمس؟!

سارع المهندس بالإجابة مطرقاً أرضاً بذعر:

- بلى بالطبع، لعمرى هذا شرف لا يضاهيه شرف ولن يضاهيه حتى الموت.. ولكن هذه الأفكار ليست لي..

اشتعل الغضب بعيني الملك وهو يصيح:

- لمن إذاً أيها البائس؟

أجاب بخفوت:

- ابني.. لقد تعلم مني الكثير من العلم في مجالي، ولكنه يتأمل كثيرا ويقرأ ويكتب كثيرا..

سأل الملك وقد خف الهدوء وحل التفكير:

- يقرأ ويكتب؟ أهو كاتب؟

- لا ليس بكاتب.. ولكنه قام بتعليم نفسه بنفسه، بمساعدة أحد الكتبة.. إنه طموح ومثابر..

لم يجرؤ أحد على مقاطعة الملك، كان يفكر في أمر هذا الشاب الذي يبدو وكأن لديه كل ما كان ينقص البلاد لتصبح غير البلاد، ثم هز رأسه شأن من عقد المهمة على تنفيذ الأمر، وقال لرئيس البلاط:

- أريد أن يتم تنسيق مقابلة لابن هذا المهندس معك شخصيا.. ثم أرسل كبير المهندسين وكبير الكتبة واجعلهم يقابلوه..

ثم أشار للمهندس بسبابته قائلا:

- إن صدق هذا المهندس فرتب لي لقاء شخصيا مع هذا الابن.. وإن كذب فاقتلوهما الاثنين..

لم يبدو الخوف على وجه المهندس هذه المرة رغم التهديد وبدا - لأول مرة- واثقا وهو يشد قامته قائلا باحترام:

- لن نخذلك يا سيدي وإلهي..

قام الملك فحذا الجميع حذوه متأهبين للمغادرة خلفه،
ولكنه ما لبث أن سأل المهندس بفضول:

- ما اسم ابنك هذا؟

أجاب المهندس بفخر لا يعلوه فخر:

- (إيمحوتب)!

الفصل الثاني

قام المهندس بعبور الباب الخشبي لمنزله بعد أن دفعه برفق بكتفه، شارعا بالفخر للحظة كونه يمتلك بابا من خشب الأرز نادر الوجود وباهظ الثمن بالبلاد، والذي يتم استيراده خصيصا من بلاد الشرق ولا تتميز به إلا بيوت الأعيان والنبلاء، شمت أنفه على الفور رائحة الشواء فاضطربت معدته الفارغة تشوقا، تصايح خمسة من الأطفال تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والعاشرة - فور رؤيتهم له، وتسابقوا لاحتضانه وتسلق جذعه بلهفة، ممطرين نصف جسده العلوي ووجهه بالقبلات الطفولية التي تفوح بالبراءة، تنهدت زوجته وأتى صوتها من المطبخ وهي تقوم بتحريك الأسياخ أسفل الموقد الفخاري لتؤجج ناره:

- ليتني أحظى بالقليل من هذه اللهفة..

قال زوجها مشاكسا:

- أخرجني للعمل إذا واطركيني أقلب تلك الأسياخ وأجلب الفحم..

أتاه صوت هادئ من خلفه يقول بصوت مسموع:

- لا تقلل من شأن ما تفعله أُمِّي.. إنها أفضل أم بالبلاد كلها..

أرسلت له أمه قبله بصوت مسموع، الابن الأكبر العشريني معتدل القوام واسع العينين دقيق الملامح، فأضاء وجه أبيه لرؤيته وهو يقول بفخر:

- ولدي الأكبر وعبقري البلاد.. (إيمحوتب)..

دخل (إيمحوتب) وخلفه شقيقتان أصغر منه بقليل من الأعوام ليكتمل شمل الأسرة، ويبدأ الجميع في التجمع حول حصيرة الطعام، و(إيمحوتب) يتربع أرضاً بجانب أبيه وهو يقول له:

- هل تحدثت مع الملك؟

- نعم.. ويا له من ملك عظيم..

تحركت الشقيقة الأكبر نحو أمها لما سمعت نداءها، اختفت بالمطبخ قبل أن تعاود الظهور وهي تحمل إناء فخاري ذي يدين يموج بسائل تفوح من سطحه الأبخرة، صاحت شقيقتها الأصغر بغضب مصطنع:

- أين اللحم المشوي؟

جاءتها صيحة أمها المجلجلة:

- تعالي واجلبيه بنفسك أيتها الكسولة..

أطلق الصغار ضحكات عابثة مع صيحات جدال الأم

وابنتها المازح، بينما كان ينظر (إيمحوتب) بعينين كلهما تساؤل لوجه أبيه يستحثه على الاسترسال، وقد بدا عزوفا عن الطعام وكأنه قد تناول وجبة دسمة لتوه، فابتسم الأب موقنا أنه قد لعب بأعصاب الفتى أكثر مما يجب، فقال على الفور:

- تم تحديد موعد لتقابل كبير المهندسين والكاتب الأكبر غدا..

تألقت عينا (إيمحوتب)، وهو يرى حلم حياته على وشك أن يتحقق، ولكنه أضاف رانيا بلحظه نحو الباب المفتوح ملمحا للمعبد المجاور:

- وكبير الكهنة؟

لكزه أبوه في كتفه وهو يصيح به:

- ألا يكفيك مقابلته بصورة شخصية لعدة سنين؟ إنه شرف لم يمنحه لأحد من قبل..

علقت الأم وهي تدخل عليهم بإناء ضخم مكتظ بقطع اللحم المشوي:

- وابنك ليس كأي كيمتي.. إنه عبقرى وهبته الآلهة ما لم تهبه لأحد من قبل.. سيكون له شأن عظيم قريباً..

تعلقت عينا الأب باللحم ليسيل لعبه لا شعوريا وهو يتمتم:
- جميل!

وثب اثنان من أشقاء (إيمحوتب) ليقوما بضربه في كتفه
مقلدين حركة الأب المازحة، فتصنع الألم وهو يلقي بجسده
أرضا متأثرا بالضربات التي لا يمكن أن تؤذي قطعة رضية،
فرمقته شقيقته الصغرى شذرا وهي تغمغم:

- عبقرى.. هذا واضح!

اختفت الشقيقة الكبرى لتعود ومعها صفيحة فخارية
مسطحة تعلوها أكواب فخارية مملوءة بالجة، وضعتها على
الحصيرة وهي تقول بصرامة لم تتناسب مع عمرها:

- الجعة للكبار.. وعلى الأطفال أن ينتظروا سآتيهم بالحليب
فورا..

توقت يد الأب الممسكة بقطعة لحم ضخمة قبل أن تمس
شفتيه، وسأل بدهشة:

- أما زلنا نملك شعيرا وحنطة لنصنع الجعة؟

كان لسؤاله ما يبرره، فمع شح مياه النيل توقف الحصاد،
ولم تعد هناك محاصيل شعير وحنطة طازجة لصنع الجعة،
صار الكل يستخدم ما قام بتخزينه بحكمة خلال العامين

السابقين، أو يضطر لشرائه من الأسواق بأسعار تفوق أسعار الذهب والفضة، بينما يقبع المعدمون والخدم رابضين عند أبواب المعابد وقصر الملك منتظرين الهبات الإلهية التي سَحَّتْ هي الأخرى لظروف البلاد ولكنها لم تتوقف تماما، وفي ظل هذه الظروف اقتصد الجميع -مهما بلغت درجة ثرائهم- في صنع وشرب الجعة، المشروب الوطني الأول بالبلاد، واكتفوا بتناوله أسبوعيا أو شهريا، أو بالمناسبات الموسمية..

قالت الأم بعينين تضحكان:

- هذا يوم عيد.. سيقابل (إيمحوتب) إلها الأعظم..

تدارك الأب قائلا:

- لم أقل إنه سيقابل الملك.. سيقابل كبار رجال الدولة فقط..

قالت بثقة وهي تربت على كتف (إيمحوتب) بفخر متعاضم:

- سيقابله.. وسيصير ذراعه اليمنى.. وربما سيذيع اسمه ليكتسب هالة ملكية ذات يوم.. يستحق هذا وأكثر..

قَبِلَ (إيمحوتب) أصابع أمه التي فاحت برائحة مزيج من

الشواء والمرق، بينما سارع أشقائه الصغار جميعا بالتربيت على كتفه الأخرى مقلدين أمهم، دارت رأس (إيمحوتب) عازما تمثيل دور المصاب مجددا، فسارعت شقيقته الأصغر بتثبيت عنقه من الخلف وهي تقول بصرامة مضحكة:

- كف عن هذا.. تصيبني حركاتك هذه بالغثيان وسأتقيأ لكم على هذا اللحم الشهي..

صاح الأب والأم باعتراض، بينما أمسك (إيمحوتب) محل معدته بقوة معتصرا إياها مع تخيله للمشهد المقزز، هزت رأسها بلا مبالاة وهي تأكل بشهية فاقت شهية الجميع، بينما وضعت شقيقته الكبرى أواني الحليب الصغيرة أمام الصغار وهي تقول مبتسمة:

- من سينتهي من شرب حصته كاملة من الحليب وقطعته من اللحم ستتم مكافأته بعنقود من العنب الطازج..

صاح الأطفال ببهجة، رغم أن أصغر اثنين منهم لم يريا العنب منذ ولادتهما، ولكنهما فرحا لفرح أخوتهم الأكبر الذين تمتعوا بطعم العنب منذ ثلاث سنوات، قبل توقف الفيضان، نسوا طعمه ولكنهم لم ينسوا حلاوة هذا المذاق.. بينما عاد الأب يمزق اللحم الطري بأسنانه وهو يقول بفم يقذف للعب وقطع اللحم:

- عنب؟ بحق الإله (خنوم) هذا تبذير.. هل قايضت حليك يا امرأة لتأتي لنا بهذه الوليمة التي لم تكرر منذ سنة؟!

شعر (إيمحوتب) برضى تام عن نفسه وهو يخرج من المنزل بخطوات متمهلة لا تلوي على مكان بعينه، فبالرغم من صغر سنه إلا أن عقله كان يضج بالعديد والعديد من الأفكار والنظريات التي تزاحم بعضها بعضا منذ سنوات، نظريات تتعلق بالبناء الهندسي واستخلاص العقاقير من النباتات وممارسة الطب والفلك غير ذلك الكثير، وعزّ عليه أن تبقى مثل هذه الأفكار حبيسة عقله بدون أن تجد لها متنفسا عمليا يحيلها لواقع ملموس يغير من شكل البلاد كلها.. لم تغادر هذه الرغبات حدود سره ولم يصرح بها لأي مخلوق، ليس من باب التواضع ولكنه لم يظن أنه سيجد من سيتخذه بجدية، وتوغل في خياله ليعتقد أنه ربما لن يصدقه أحد، وإن وُجد من سيصدق -أو يريد التصديق- فلن يفهم مدى تعقّد نظرياته، لذا اكتفى بممارسة كل أشكال العلوم التجريبية وحده على ضفة نهر النيل العظيم، إلهه ومحبوبه الأثير -والمتنرد مؤخرا- وإن كان قد وجد بالفعل حلا للتحكم في فيضانه بقياس منسوبه والتنبؤ بما يخبئه الغيب بخصوص موسم الفيضان القادم.. ومن بين كل النظريات التي ينوء بها عقله فإنه اختار منها اثنتين فقط ليحاول أن يجعل لعاب الملك نفسه يسيل بسببها، ودفع أبيه للفظها في

حضرته حتى يبادر بالتحقق من جدية عبقريته المزعومة ومخيلته العلمية اللامحدودة.. اختار قياس الفيضان والبناء بالحجر.. وقد باءت محاولته بالنجاح، وها هو على قيد أقل من يوم للقاء اثنين من أكبر رجال الدولة، تمهيدا لهدفه النهائي ألا وهو اكتساب ثقة الملك نفسه ونيل تمويل مادي ومعنوي يساعده في تحويل أحلامه لحقيقة متجسدة.. الأحلام التي ظن أنها -لكثرتها- تحتاج لعمر إضافي على عمره الذي لن يكفي لتحقيق نصفها.. وها هو في العشرين من عمره ولم يبدأ في تنفيذ أيها منها حتى الآن.. لقد ضاع ما يكفي وغان وقت الجد..

لم يكن اسمه مجهولا بالطبع، على الأقل بين جدران المعبد الذي شب فيه صغيرا، مركز العلم والدين حيث تم تعليمه لغة الرموز وكيفية قرائتها وكتابتها، تصميم المعابد بشكلها البدائي الحالي -في وجهة نظره وأيضا صناعات الدواء.. رأى فيه والده سبيلا لتحقيق مشروع عمره، ولم يدخر الفتى جهدا لإثبات صدق رؤية أبيه.. فها هو بمجرد تخطيه العاشرة من عمره يجيد من الكتابة وفن صناعة التصاميم الهندسية وبعض التركيبات الدوائية البسيطة ما لا يستطيع المواطن العادي استيعابه من الأصل.. ثم تخطى معلميه وبدأ في البحث عن مواضيع لم يجد من يُدرّسها له.. كان يسهر بشرفة المعبد التي لا يعلوها إلا قبة السماء حالكة

السوداء والمرصعة بالنجوم، فيقوم برسم خطوط ودوائر بريشته على ورق البردي محاولا استخلاص العلاقة بين الأرض وبين النجوم، وواضعا تقديرا للوقت خاص به هو لا يتم استخدامه بشكل رسمي.. قام بكتف أفكاره لما لمس من كاهن المعبد عدم اهتمام -أو عدم فهم- لما يريد أن يتوصل إليه بدراسة تأثير أجرام السماء على الطبيعة نظريا.. طالت أوقات تجوله بالصحراء المحيطة محاولا التفكير في أنماط حياة الحيوانات المختلفة، ولم يمنعه من هذه الجولات الخطيرة أن أصابه ثعلب بجرح نافذ بذراعه ذات مرة، بل على النقيض بدأ يحاول تجريب عدة طرق مختلفة لمعالجة الجرح لتسريع شفائه بإضافة شتى المساحيق والسوائل وأوراق النباتات! التجربة التي خرج منها بطلب لكاهن المعبد أن يجعل من صلاحياته دخول الجزء المحرم من المعبد.. قسم الكيمياء والسحر..

شعر لأول مرة في حياته أن هناك الجديد مما يمكنه أن يتعلمه.. رأى الأحجار المتكتلة يشكلها سحرة المعبد ليحولوها لتمائيل وأواني مقدسة دقيقة الصنع.. طريقة سرية يتناقلوها كبارهم عبر العصور لخلق قوالب الصخور من شظايا وغبار.. لاقى منعابا باديئ ذي بدء لمحاولاته لفهم كيفية قولبتهم للحجر بسحرهم الخفي هذا، ولكنه فرض نفسه بعلمه الغزير الناجم عن قرائته لكل ما كتبه القدماء

تقريباً على ورق البردي، وبعد فترة من المناظرات التي أثبتت أهليته لحمل السر قاموا بتلقيحه السحر المقدس.. ليفاجأ بأن الأمر يخلو تماماً من أي سحر، وخاب أمله من مدى سهولة العملية الهندسية، بل وقام بتعديلها لتصبح أكثر سهولة في الخطوات وأشد دقة في النتيجة.. وشعر بنهمه يتزايد.. يريد المزيد، لم يعد المعبد يكفي طموحه وأفكاره.. ومن هنا أسرَّ لأبيه بفكرة مجاهرة البلاط الملكي بأفكاره -على استحياء- لربما يبتسم القدر ويمنحه الفرصة التي لا تتكرر مرتين بعمر واحد.. وقد كان..

وبدأ حلم واحد يتكرر أكثر من غيره بمخيلته.. حلم لمذبح حجري مهيب الحجم، مؤلف من الأحجار الخالدة ويناهز السماء ليصل للشمس ويمجدها، ويعكس أضوائها الذهبية مكتسباً لمعاناً إلهياً يخطف الأبصار..

وجل عندما سمع صوت اسمه يتردد بصوت مرتفع، أبعد وجهه عن صفحة النيل وهو يدور لبحث عنها، شقيقته الكبرى كما تعرف على صوتها قبل أن يراها، كنت تحمل له إناء مليئاً بالجة في يmanها، وعنقود عنب طازج يتلأأ تحت أشعة الشمس بيسراها، التقط منها الجعة أولاً وهو يبتسم قائلاً:

- سأخذ الجعة.. وسأترك لك العنب مستمتعاً بمشاهدتي لك -

تلتهمينه في لحظات..

اعتراها حزن.. أطرقت وهي تخفض يسراها الممسكة
بالعنقود.. تمتمت:

- وهل أمتلك شهية بعد ما قاله أبي؟

نظر (إيمحوتب) بحنان لها، شقيقته التي تصغره بزواج من
السنين فقط، ولكنها تترك فيه أثراً غريباً وكأنها أم ثانية،
يفهم مغزى حزنها والذي لم يلتقطه أحد بمثل هذه السرعة..
لقد تم ترتيب مقابلة مع البلاط الملكي.. توطئة لمقابلة الملك
نفسه.. الأمر الذي لن ينتهي - إن كلل بالنجاح- إلا بمغادرة
الفتى لبيته والإقامة بقصر الملك بصفة شبه دائمة.. وهذا
يعني غياباً دائماً عن البيت إلا ما ندر بالمواسم والأعياد..
باختصار، ما كان يراه صفقة العمر كله كانت هي تراه نفياً
أبدياً لأخيها - وابنها الأكبر- لن تستطيع تحمل تبعاته، فتعلقها
به يبلغ حداً مرضياً..

تنهد.. غصب نفسه على رسم ابتسامة وهو يقول لها رافعا
ذقنها الدقيقة بسبابته ليجبر عينيها على مواجهة نظراته:

- تتحدثين عن خوف بلا مبرر حتى الآن.. من قال إن الملك
سيضمني لجناحه؟ هذا جامح وسابق لأوانه..

تفادت النظر لعينييه وهي تغمغم:

- الأمر واضح منذ أن أرسلك أبي للمعبد.. إنه لا يليق بك..
المعبد نفسه بكل من فيه من كهنة وسحرة وورق بردي أصغر
منك.. يبدو الأمر أشبه بأن تضع قدمك بنعل أخيك الأصغر..
لن يفلح الأمر أبدا وستظل تبحث عن نعل أكبر مناسب..

انبرى يقول ساخرا رغما عنه:

- أرى أنك تُشبّهين قصر الملك - إلهنا (حورس) الذهبي -
بالنعل الكبير..

سقط العنقود لتنفطر منه الحبات قبل أن يرتطم بالأرض
الترابية حتى، وسالت دموعها الصامتة على وجنتيها، فتأثر
(إيمحوتب) وقام بتطويق جذعها بذراعه اليمنى بقوة وهو
يهمس بأذنها:

- لن أنساكم أبدا ما حييت.. لن أنساكِ بالتحديد..

فوجئ الاثنان بصيحة خشنة من خلفهما:

- ارحل.. لن تصبح شيئا إن ظللت بهذا البيت الصغير..

تعجب (إيمحوتب) لما رأى شقيقته الأصغر ترمقهما ببرود
وكأنها تتحدث عن شخص ليس من عائلتها، بينما مسحت
الكبرى دموعها وهي تهمس لما رأت علامات الغضب تتشكل
على ملامح وجهه:

- لا تغضب.. إنها محقة..

تلاشى الغضب وحلت السكينة، اكتفى بالتحديق بوجه شقيقته الصغرى وهي تكمل رشق كلماتها كأحجار مدببة:

- هنا لن تجد إلا الدفء.. وهناك ستجد كل شيء..

أكملت شقيقته الأكبر بصوت لم يصل إلا ل(إيمحوتب):

- إلا الدفء!

ثم دفعته وهي تشعر بنفسها تصبح أكثر صلابة مع وقع كلمات أختها القاسية ولكن التي لا تخلو من منطق، ولكنها ألقت نظرة لائمة لأختها الصغرى، تفهمان بعضهما البعض بالنظرات، شقيقتان وسط كومة من الذكور، متشابھتان في ملامح الوجه المقتطعة من ملامح وجه الأم المليح، ومتضادتان في الشخصية، هزت شقيقته الأصغر كتفها بدون أن تعقب، وهي تأخذ خطوتين للأمام ثم تنحني لتلتقط العنقود بحركة رشيقة سريعة وهي تغمغم:

- هذا ما لن تحتاجه هناك يا (إيمحوتب) الحكيم.. ستغرق حتى أذنيك في النعيم مهما بلغت حال البلاد من قحط..

نفثت شقيقته بغضب وهي تغادر لتعود للبيت بخطوات سريعة غاضبة أشبه بالتواثب، بينما مد (إيمحوتب) أصابعه

بسرعة خاطفة لينتزع من العنقود الذي تمسكه بيدها حبة
عنب، ثم يلتقمها في لحظة لتلوكلها أسنانه ولسانه باستمتاع
حقيقي غير مصطنع، وهو يقول رافعا حاجبيه:

- حبة عنب باليد خير من عنقود الغد!

ثم ضربها -مازحا- بأنامله على وجنتها وهو يغمغم:

- سأفتقدك أيتها الأخت الباردة!

وغادرها على الفور لما رأى باقي قطيع أخوته الصغار يعدو
نحوه -نحو عنقود العنب للدقة- مصدرين صيحات اعتراض
ملأت المكان، فانطلق (إيمحوتب) يعدو نحوهم مباحدا ما
بين ذراعيه تمهيدا لوثة تحول فيها لرمح بشري، سقط أرضا
أمامهم فوثبوا عليه وأشبعوه ضربا انتقاميا طفوليا.. غادر
(إيمحوتب) ضفة النيل باكرا بما يكفي ففاته دمة حبيسة
بعيني شقيقته الأصغر -الباردة- ناهز تألؤها انعكاس ضوء
الشمس على حبات العنب..

الفصل الثالث

فَرَدَ كبير الكتبة قامته وهو يحدق في ورقة بردي تعج بالنقوش جميلة المنظر دقيقة الخط، ضيق عينيه وهو يتابع أدنى التفاصيل، في البداية راقته حلاوة الخط، ثم دقق في المضمون ليتعجب من دقة النقوش التي تجعل من يقرأها يظن أنها لكاتب متمكن، ثم أذهله معنى النقوش الهيروغليفية التي تتحدث عن موضوع لم ينجح في استيعابه بشكل تام رغم غزارة قراءاته بحكم وظيفته، فأغلق عينيه وهو يقول بإيجاز:

- ليس كما توقعت!

شعر (إيمحوتب) الفتى بقلبه يتوقف عن الدقّ لوهلة، وانتابه دوار وهو يشعر بكلمات كبير الكتبة وكأنها تأتي من جب سحيق، أسنده كبير المهندسين لما شعر بأنه سيغشى عليه وبدا شديد القلق وهو يسأله:

- هل أنت بخير يا فتى؟

هز رأسه إيجابا بدون أن يلفظ بكلمة، بينما تجاهله تماما رئيس البلاط الملكي وهو يوجه الحديث لكبير الكتبة سائلا باهتمام:

- ليس جيدا بما يكفي أم أنه لا يمكن قراءته؟

أطلت نظرات من عيني (إيمحوتب) تنم عن أن حياته كلها على المحك، وأن ما ستفوه به كبير الكتبة الآن سيحدد مصير حياته.. ولم يكن مخطئا في هذا إذ كانت أوامر الملك واضحة وصريحة -وقاسية- في هذا الصدد.. ليكن هذا الفتى عبقريا أو ليتم إعدامه هو وأبيه.. وها هو الآن يجتمع بثلاثة هم أكبر رجال الدولة بعد الملك شخصيا، لا ينقصهم سوى الكاهن الأكبر.. وقام بجلب ورقة من البردي نقش عليها ما ظن أنه أفضل ما يمكن أن يقدمه لهذه اللجنة الخبيرة لإثبات موهبته وخبرته وكفائته.. بحسب ما ظن..

مط كبير الكتبة شفتين غليظتين وهو يعدل من وضع قلنسوته التي تغطي رأسه الحليقة، يشعر برغبة ف الحكاك بأثر عرق غزا فروة رأسه المغطاة بالقماش الكتاني السميك، لم تكن حرارة الجو هي ما دفعت جسده ليتعرق بغزارة هكذا، فقد كانت جلستهم بقلب حديقة القصر حيث تتناثر القذور المملوءة بالماء بين مستطيلات من النباتات المشذبة والزهور المتفتحة ذات العبق الساحر، فكانت نسمات الهواء المنعشة تنساب حول الماء لتلطف جبهات وأطراف الرجال، وتزكي أنوفهم بشذا عطر الورود الفواحة.. كان كبير الكتبة يتعرق بشدة لسبب آخر تماما.. بسبب ما قرأه من كلمات أذهلته..

قام رئيس البلاط بهذه برفق حازم وهو يقول:

- انطق بحق (حورس) الذهبي وحق إلها (خنوم) وحق النيل العظيم المتمرد.. حياة هذا الفتى تتعلق بكلمة منك!
ارتبك كبير الكتبة وشعر بعبء طول صمته، فأخذ شهيقاً طويلاً وهو يمد يده ليشد على عضد (إيمحوتب) قائلاً بتشجيع:

- لا تقلق أيها الفتى الحكيم.. أنت عبقرى حقاً.. كل ما هنالك أنني لم أعتاد أن أقرأ نصاً أصلياً جديداً.. اعتدت لسنين أن أقرأ نسخ لورق الأولين.. بدأت أشك في أن عمري سيمتد بما يكفي لأعاصر عقلية كعقليتك..

لم يصدق (إيمحوتب) ما يسمعه -رغم أنه كان يتوقعه- وشعر بامتنان لهذه الكلمات التي بعثت في جسده الحياة من جديد بعد أن كان على حافة الانهيار.. خاصةً وأنها أتت من كبير الكتبة والذي لم يظن أنه سيتشرف بمقابلته يوماً ما.. فقام باحتضانه حضن الحفيد للجدة، إذ كان فارق العمر بينهما يسمح بهذا، بينما بدا الفضول متجسداً على ملامح وجه رئيس البلاط الملكي وهو يسأله:

- هل تسمح وتقرأ لنا ما خَطَّه هذا الصغير؟

لم يكن فيما قاله رئيس البلاط أية مذمة، فقد تجاوز أصغر

الرجال الثلاثة الخمسين ربيعا، بينما بدت الفتوة ونظرات الشباب جلية بعيني الشاب (إيمحوتب) الذي تجاوز العقد الثاني من عمره لتوه، ولكنه تفاجأ لما دفع كبير الكتبة بورقة البردي إليه وهو يقول له:

- اقرأ ما كتبت بنفسك.. لا أبالغ إن قلت إن جدلا عظيما سيتبعه لن يتوقف قريبا..

عقد كبير المهندسين حاجبيه ولكنه لم يعلق مكتفيا بصمته منذ بدء الحديث، بينما حك رئيس البلاط لحيته القصيرة البيضاء وهو يفكر في أمر ما لم يصرح به، فتنحنح (إيمحوتب) وبريق زهو يطل من عينيه ويفيض، ثم قال بهدوء وبصوت واثق قوي النبرات:

- للقلب أوعية تذهب لجميع الأعضاء.. فأينما يضع الطبيب إصبعه، سواء أكان على الرأس أو القذال أو على اليدين أو الذراعين أو الساقين أو حتى على القلب نفسه، فإنه يحس بشيء من القلب على أطراف أصابعه.. إذ أن أوعية القلب لكل الجسم.. في الواقع فإن القلب يتكلم في أوعية كل عضو بسائر الجسد بلغته الخاصة، فإن فهم الطبيب هذه اللغة أمكنه محادثته وعلاج ما ألمّ به وبأعضاء الجسد من خلل..

صمت الثلاثة رجال وكأن على رؤوسهم الطير، حاولوا تذوق الكلمات التي تتشابه مع حكم الكهنة الكبار، لم يفكر

أي أحد من قبل في أمر مثل هذا، أنه يمكن تشخيص المرض عن طريق ما يضخه القلب من نبضات للعضو السقيم، كان رئيس البلاط هو أول من اخترق الصمت وسأل بتردد:

- هل هذا كلام أدبي؟ نوع من قصة خيالية؟ أم أنك تتحدث كطبيب كاهن قام بتجارب أثبتت صحتها حتى صار لديه معلومة تطبيقية ثابتة؟

أجاب (إيمحوتب) وهو يقوم بطي ورقة البردي بحرص:

- قمت بالتجارب كلها على الحيوانات للأسف.. لم أمتلك من قبل صلاحية مناظرة البشر.. ولكن النتائج لا يمكن الطعن في صحتها.. أحتاج فقط لبعض التجارب على مستوى أعلى ومع بعض المساعدات..

شد رئيس البلاط قامته بعزم وهو يقول بأسلوب من اتخذ القرار بالفعل:

- سيكون لك كل الصلاحيات أيها الصغير.. من اليوم أنت عضو بالبلاط الملكي.. وسيمكنك رؤية ملكنا وإلهنا خلال أيام..

أضاء وجه (إيمحوتب) من السرور، هذا نجاح انتظره منذ سنين، ولكنه وجل لما أضاف كبير الكتبة يسأله:

- أفهم من هذا التوجه أنك تريد أن تصبح كاهنًا أو عالمًا أو طبيبًا، شيئًا ينتمي لهذا المجال العلمي.... ساحرًا خبيرًا في التحكم بمواد الطبيعة بمعنى أدق..

انفجرت شفتا (إيمحوتب) ولكن دون أن ينطق، بان التردد على وجهه وهو ينظر شذرا لوجه كبير المهندسين الصامت حتى الآن، فحمل عنه الأخير العبء وقال:

- لقد كان أبوه واضحا.. الفتى يحمل أفكارا تتعلق بتشبيد أبنية من الحجر.. وهو ما لفت انتباه ملكنا منذ البداية..
انبرى (إيمحوتب) يقول:

- لا أمانع الانضمام للبلاط الملكي.. أرحب كثيرا بتلقي أسرار العلوم والطب والكهانة.. سأستزيد بقراءة - وإعادة قراءة- كل ما خطه السابقون من علوم، وأزيد بما سأستكشفه بتجاريبي ونظرياتي ولكن..

اقترب من كبير المهندسين وهو يقول مبتسما:

- هدفي الأول هو أن أصبح مساعدا للسيد كبير المهندسين.. والتعلم من خبراته..

أمسك كبير المهندسين بكتف (إيمحوتب) -الذي بدأ يشعر بحرارة المنافسة على الاستحواذ عليه باكرا- وقال بلهجة

محايدة صادقة:

- ستحل محلي يا بني خلال أقل من سنة.. ولن أدخر جهدا لتعليمك كل ما وصلته البلاد من علم هندسي منذ أن وُحِد الملك (نارمر) البلاد عليا وسفلى.. لدي يقين أن لديك ما سيغير من وجه البلاد قاطبة، من جهة المعمار على الأقل..

لم يستطيع أي منهم الأربعة أن يرى الملك وزوجته وهما يقفان بالشرفة الملكية يتسامران، لفت انتباه الملكة ذلك الجمع بحديقة القصر والذي جمع رئيس البلاط مع اثنين من كبار رجال البلاد، وشاب صغير نحيل الجسد، رنت نحو الملك وهي تسأله:

- وكأني أرى شيئا جلا يحدث بالحديقة الآن يستوجب مثل هذا الجمع..

لم ينظر الملك نحو الحديقة، واكتفى بالجلوس على محفته ذات الظهر المدعم بالريش وهو يحدق بالسماة قائلا:
- إنهم يختبرون شابًا يقول إن لديه سرّ بناء صُروحًا من الحجر..

رددت بشك بين وهي ترقد بجانبه:

- وهل سيمتلك شابا في مقتبل عمره ولم يندمج بالبلاط

الملكي مثل هذه المعرفة؟ أعتقد أن الأمر يحتاج لعمر جديد من العمل والتعب والتجريب..

ابتسم الملك هازًا رأسه نفيا وهو يقول:

- لا أتفق معك يا مليكتي.. كبار السن ليسوا إلا مُمَرَّرُوا شعلة الحضارة والعلم، ليسو هم من يشعلوها.. لا يفعل المعجزات والنهضات الإعجازية التي تغير شأن العالم إلا الشباب.. هم من لديهم الطموح والرغبة.. فإن وُهبَ أحدهم المَلَكَة على فعل المعجزات الإلهية فواجبٌ عليّ أن أسارع بتبنيه وتسليحه بكل ما يقتضيه الأمر من علم ونفوذ..

قالت له بشيء من الانهيار:

- ألا يكفيك تحقيقك للعدل بالبلاد كما يقال من أقصى الجنوب لأسفل الشمال؟

ابتسم لها قائلا بشرود:

- العدل شيء إعجازي لا يمكن تحقيقه في المُطلق.. إنه أبعد من القمر؛ فالقمر يمكن رؤيته على الأقل.. يكفيني تحقيق أقلّ القليل من العدل لأصير راضيًا..

حان دور الملكة لتبتسم هذه المرة وهي تمُدّ يدها لتعثر أناملها بصدر الملك القوي العاري مغممة:

- إذا ما زال ذلك الحلم الآخر هو ما يداعب مُخَيَّلَتَكَ
الباحثة عن الخلود..

سرح بعيدا وهو يقبض بيده على أناملها برقّة قائلاً:

- ليس بحلم.. الآن فقط تيقنت من هذا وأنا أرى التفاهم
جليا بين رجال البلاط وبين هذا الفتى.. سيكون هو أداتي
لتحقيق البناء الذي لم يوجد مثله من قبل قط.. البناء الذي
سيكون وسيلتي للوصول للسماء بعد مماتي..

تمتت مصححة:

- تقصد بدء حياتك الأخرى يا (زوسر)..

قال بحُبّ مُصَحِّحًا لها بدوره، وهو يحتضنها ويحملها
للقوف في إشارة لرغبته في مغادرة الغرفة والاتجاه نحو
السريّر الملكي:

- أقصد حياتنا سويا ما بعد الممات..

الفصل الرابع

ألقى (إيمحوتب) نظرة شاملة على البهو الملكي الفسيح، حيث تراص الخدم ذات اليمين وذات الشمال، يتوسطهم عدد من الكتبة يجلسون القرفصاء خلف لفائف من أوراق بردي فارغة جاهزة ليتم ملؤها بالنقوش ذات المعاني، توسطت البهو مائدة حجرية منخفضة الارتفاع، تراص حولها عدد من المقاعد الحجرية - خمسة - ذات الظهر البارز والمسندين القصيرين، كان عدد المقاعد يكفي الحضور بالتمام والكمال مما يدل على أنه قد تم تنسيقه مسبقا بنظام، في حين أطل زوج من المقاعد الأضخم نسبيا عند رأس المائدة، امتاز كل منهما بظهور عالية وزخارف مموهة بالذهب والفضة والفيروز والعقيق واللازورد، خمن (إيمحوتب) على الفور أنها مقاعد الملك والملكة..

هرعت الخادومات صغيرات السن ذوات الغلالات الشفافة التي لا تستر شيئا من مفاتنهن - ليطوفوا على الرجال بأقماع الرأس المعطرة بالدهانات الفواحة ليوزعوها على ضيوف الملك الخمس، ثم أتبعوها بزهور لوتس زهرة بيد كل ضيف، كانوا جميعا قد تعطروا بأفخم ما يملكون من عطور طبيعية، فهم على لقاء مع الملك والإله العظيم (زوسر)، ولكن لم يمنع هذا أيهم من قبول ما تم تقديمه إليه، فقام كل منهم

بنزع جمة الشعر المستعار الكثيف التي وضعها احتراماً لمقابلة الملك، والتي لا يتم وضعها إلا بالمناسبات عادةً، لتملح رؤوسهم الحليقة جميعاً، وشعر (إيمحوتب) بالإثارة تجتاحه وهو يضع القمع العطري على رأسه بهدوء مستنشقا العطر الأخاذ الذي انساب لحاسة شمه فأطربها.. وألحان ملائكية تتسلل لأذنيه عبر آلات غنائية وترية سبقت حاملها، من المغنيات والراقصات اللاتي برزن من بوابة القصر الداخلية المشرفة على البهو قادمين من الحديقة، يمزجن ألحانهم ببعض التصفيق أحيانا، وبالغناء الهادئ أحيانا أخرى، متسللين بهدوء ليستقروا حول المائدة، منهن من كانت تضرب بأصابعها على الصنوج النحاسية المعلقة بالأعناق، ومنهن من كانت تضرب على الدفوف الخشبية المستطيلة ذات النقوش، وتعاون خادمان زنجان لدفع الجنك، الآلة الوترية التي عبارة عن صندوق خشبي كبير الحجم من الأبنوس مزخرف بالذهب وتخرج منه ستة أزواج من الأوتار العمودية، وقفت خلفها العازفة لا ترتدي إلا حزاما معقودا حول خصرها، تضرب على الأوتار بسرعة جنونية، بأناملها الطويلة ذات الأظافر النامية.. وبالأطراف وقف عدة عازفين من رجال ونساء بكثارات وأبواق ينتظرون أن يحين دورهم في هذه المعزوفة الموسيقية المبهرة..

صلصلت أساور معصميه مع تحريكه لذراعه، كان يرتدي

زينته كاملة معتبرا اليوم يوم عيد بالفعل، مثبتا بعنقه عقدا من ستة صفوف من حبات الخرز، ووقد ضم طرفا العقد بمشبكين على هيئة رأس صقر، وتتدلى من أسفله دلالية من العقيق معلقة بخيط طويل، حتى أنه كان يرتدي نعله الذهبي في سابقة نادرة، فقد كان المصريون يحرصون على عدم استعمالها إلا بالمناسبات شديدة الأهمية، وشعر بالسيور الذهبية تبدأ في الضغط على قدميه إيذانا ببدء تكوين جروح سيعلم أنها ستكون قد انتهت بنهاية اليوم، ولكنه من يبالي فللرسميات ضروراتها..

تقاطرت الخادومات الفاتنات ليضعن قدور لحوم الطيور والخضر والفاكهة والخبز والفطائر والجعة على المائدة، وخلال لحظات ضجت المائدة بوليمة لم يرَ مثلها (إيمحوتب) من قبل، وأيقن أنه يستحيل عليهم الخمسة أن يأكلوا ربعا على الأكثر، هذه بهرجة أكثر من أن يكون مجرد غداء، ولكن هل يتوقع أقل من هذا من مائدة الملك نفسه؟

صفق كبير الحراس إيذانا بتحرك الضيوف للجلوس.. انتظر (إيمحوتب) بدء تحرك رئيس البلاط أولا، تبعه كبير الكهنة ثم كبير الكتبة، بينما انتظر رئيس المهندسين تقدمهم ليقوم بتعليق يده اليمنى بداخل ذراع (إيمحوتب) اليسرى الفتية، ويبتسم له هاذا رأسه ليبدأ كلاهما بالسير سويا، في

إشارة منه لحبه للفتى الجديد.. فقام (إيمحوتب) بلمس يده مبتسما بامتنان قبل أن يتحركا الاثنان ليجلسا آخر اثنين على مائدة الملك، يرافق كل حركة من تحركاتهم صلصلة أساورهم وحليهم، فلم يكن أي من الرجال الخمسة بأقل تأنقا واستعداد من الفتى الجديد..

لم يعلم (إيمحوتب) ما الذي يجب أن يفعله تاليا، سرى توتر بجسده وهو يسرق نظرات خاطفة للرجال الأربعة منتظرا أية حركة سيَدَوُّها أيُّهم فيفعل مثلهم، فدهش أنهم اكتفوا بالجلوس بصمت يرمقون الطعام بدون أن يمد أيهم إليه ذراعا، كما تعجب عدم ظهور الملك أو الملكة رغم أنهم مضيفيهم.. صفق رئيس الخدم مرة أخرى فأجفل الفتى وهربت منه أفكاره وتساؤلاته، وعلا صوت رئيس الخدم يقول بنبرات رددتها جدران البهو:

- جلالة الملكة (حتب حرنبتي)..

قام الرجال الأربعة فحذا حذوهم على الفور.. خشعت رؤوسهم فخشع مثلهم.. لم يرفع أحد رأسه وصوت وقع خطوات نعل الملكة يدق البلاط دقا معلنا اقترابها الصامت من المائدة، سمع صوت تحرك مقعدها الحجري الفخم وعيناه مثبتتان تحديقان أرضا لتلاحظ - للمرة الأولى- النقوش الجميلة المتقنة التي ملأت أرضية البلاط الملكي.. جاء

صوتها رقيقا ينم عن صغر سنها وهي تقول بترحاب أسر:

- مرحبا.. مرحبا.. خبز وجعة ولحما طريا شهيا.. وهبتم حياة وصحة وقوة بحق الإله (خنوم)..

لاحظ تحرك الرجال ففعل مثلهم وهو يتحرق شوقا -وفضولا- لإلقاء نظرة على الملكة غير الحاكمة زوجة الملك العظيم.. دفعته رغبته الصبيانية هذه للاستنكار من نفسه فتورد وجهه خجلا، ولكن كاد وجهه ينفجر من فورة الدماء به مع توجيه الملكة الحديث له بادئ ذي بدء قائلة:

- أنت إذا الفتى الذي سيحقق حلم ملكنا وإلهنا؟

رفع رأسه مضطرا وهو يواجهها بنظراته، فوجئ بمدى البساطة والأناقة -والجمال الطبيعي- الذي امتلكته، ولم يستطع رؤية شيء إلا وجهها ونصف جسدها العلوي، حيث كانت تضع قميصا شفافا وفوقه ثوب أبيض أكثر شفافية ذو ثنيات، معقود على النهد الايسر بينما برز نهدا الأيمن عاريا شديد البياض كلون بشرتها بضا مرتفعا بشموخ بما يليق بمكانة صاحبه، وتظهر عضلات بطنها منسقة بجمال قبل أن يختفى باقي الجسم خلف حزام خصر معقود تتوسطه حلقة ذهبية، أكمام ثوبها مزركشة بالمخمل تاركة ساعديها الرفيعين مكشوفين، أيديها طويلة متسقة مع جسدها، لمع قرطان من ذهب بشحمتي أذنيها، بينما انسدل الشعر

المستعار المجعد حالك السواد فوق كتفيها وانحدر على ظهرها، وتألق بين الشعر تاج من الفيروز تم تثبيته بالشعر بشريطين تتدلى منهما الطرر، وفوق كل هذا رقد ثابتا القمع العطري وإن فاق عطر وجودها أي عطر سبقها..

شبكت رسغين مكتظين بأساور من ذهب ولؤلؤ وهي تبتسم بصمت مستحثة إياه -ومشجعة إياه- على الكلام لما لاحظت تجمده.. فهز رأسه ليتخلص من وطء وجودها، وتساءل لوهلة في سره كيف سيكون رد فعله في حضرة الملك إن استطاعت هذه الصغيرة التي لا تكبره عمرا إلا قليلا أن تجمده كتمثال من حجر هكذا، ثم تغلب على توتره وقال ببطء محاولا ألا يتلعثم:

- خادمك المطيع (إيمحوتب)..

ابتسمت له فاتسعت عيناها الواسعتان المكحولتان بلون أسود سميك امتد حتى جانب العين ليزيدها اتساعا، وتناقض بشكل جذاب مع بياض لون بشرة وجهها، برز حاجباها مرتفعان مقوسان للأعلى مزججان بلون أسود وامتدا من بين ركن العين القريب من الأنف حتى الصدغ، وتلون ما تحت جفنها بكحل أخضر جذاب، كان وجهها رفيعا مدببا للأسفل نحو ذقن صغيرة وكان وجهها رفيعا بأنف مرتفع وشفتان صغيرتا الحجم تخضبتا بالأحمر الفاقع،

خمن على الفور سبب تعلق الملك (زوسر) بها وعدم اتخاذ زوجات غيرها كعادة الملوك من قبله، لابد أنهما تلك العينان اللتان لا يمكنك أن ترى شيئاً سواهما بوجهها من فرط قوة تأثيرهما وسحرهما، كانت أخت الملك غير الشقيقة ولكنه اكتفى بها ولم يتخذ غيرها زوجة، سواء أخت شقيقة أو أميرة من خارج البلاد.. ووافق (إيمحوتب) سرّاً على اكتفائه بها..

قالت له بلهجة ذات مغزى:

- إلها وملكنا يتوقع منك الكثير..

شعر (إيمحوتب) بأثقال حجرية تضغط على عاتقيه مع كلماتها، ملك البلاد كلها يتوقع منه الإنجازات، هذا مفرع حقاً! الملك -الإله- يستعين ببشري ليعلي من شأنه الإلهي؟ هذا يفوق أكثر أحلامه جموحاً.. ورغم انفعاله قال ونبرة صوته تكتسب شيئاً من القوة:

- لن أخذه..

- لن تفعل!

ارتجف (إيمحوتب) لوهلة من النبرة التي قالت بها الملكة العبارة السابقة، شعر بمزيج من الثقة والتهديد -في آن واحد- يثبان من بين الحروف والكلمات، إنها زوجة ملك

في النهاية مهما امتلكت من فتنة أنثوية.. حاول أن يهرب منها - مؤقتا- بالانغماس في الطعام، انفتحت شهيته بمجرد تذوقه لأول قطعة لحم طير مشوي، ولدقائق لم ينطق أحد على المائدة، والملكة تبدو كتمثال شامخ لا يقرب الطعام، تكتفي برسم ابتسامة ترحاب وهي تراقب ضيوفها، والألحان الوترية كانت هي الصوت الوحيد الذي ساد، مهيمنا على أصوات تحريك القدور الفخارية وازدرداد الطعام، قبل أن تخفت الألحان ويأتي صوت ذكوري شجي يشدو بأغنية من أغاني الحب تقول:

ليتني أكون خادمتها

لأمتع نظري برؤيتها طول النهار..

ليتني أكون غاسل ملابسها

لأنعم برائحة العطر الذي يفوح من ثيابها..

ليتني أكون مجرد خاتم بإصبعها..

امتلات بطنه بالطعام حتى شعر برغبته في إفراغه قسرا لإعطاء المجال للتنفس، وفكر لوهلة أنه ليس من الصحي ملء المعدة بالطعام حتى آخرها، في هذا طمع، كما أنه يضعف البدن، وودّ لو بإمكانه التقاط ريشته وخط بعض النقوش الهيروغليفية بصدد هذه الفكرة الفلسفية التي واثته

حالا.. رفع رأسه فلاحظ أنه آخر من أنهى طعامه، وأن الجميع فيما عداه قد أسلم يديه لقدر السائل العطري الذي سكبت منه الخادومات سائل التعطير والتنظيف ما بعد الأكل، فعاوده خجل بسيط وهو يمد يديه حيث انتظرتة خادمة بالقدر الذي تقاطر منه السائل على يديه، فشعر ببرودة السائل ولزوجته فقام بفرك أصابعه ببعضها البعض، والعبير الأخاذ للسائل يقتحم خلايا مخه مباشرةً فيُسكِرها.. ثم جاء صوت الملكة الأسر ليخرجه من سكرة لأخرى أشد وطأة وهي تقول له:

- بعد الحلوى ستكون الجلسة بالشرفة الملكية مع الملك..

ثم قامت بحركة سريعة أظهرت جمال ساقين طويلتين رفيعتين، ثم أدارت ظهرها لهم بدون أن تفارق الابتسامة شفيتها لتغادر البهو بعد أن أحسنت استضافة ضيوفها كبار رجال الدولة، اكتشف فجأة أنها قد خلعت قمعها العطري وتركته على المائدة أثناء تناوله للطعام، لا يتذكر متى حدث هذا، يشعر وكأن هناك فترة من حياته قد اقتطعت ولم يعد يذكر عنها شيئاً، فترة بدأت بظهور الملكة وانتهت باختفائها، ومع بدء تحرك الضيوف ليغادروا المائدة متجهين نحو الشرفة شعر بقلبه ينبض بقوة وسرعة كادت تخرجاه من بين ضلوعه، فبعد لحظات سيرى الملك والإله (حورس) الذهبي..

الملك (زوسر) ..

الفصل الخامس

(ورقة من مذكرات (إيمحوتب) تصف لقاءه بالملك
(زوسر) للمرة الأولى)

لم أسمع ألحان وأصوات المغنيين.. هززت رأسي متجاوبا -صوريا- لكلمات كبار رجال البلاد بدون أن أدرك أغلب ما قيل.. ألقيت نظرات ساهمة على الحديقة الغناء ذات البحيرات المسورة بالنخيل، والتي تغض بالورود والأقحوان والسوسن، بدون أن أرى أغلب ما بها من جمال.. ألقى شمس آخر النهار أشعتها الدافئة على الشرفة فلم تلمسني وكأن حرارتها تجاوزتني.. كان وجيب قلبي يتدفق من أذناي فيجعلني كالأصم، ومن عيناى فيجعل الرؤية مشوشة، ومن سائر مسام وفتحات جسدي فيجعل القشعريرة الباردة لا تغادرني.. مزيج لم ينتابني من قبل من خوف وترقب ورهبة وفضول.. الملك شخصا آتيا لمقابلتي.. هذا مخيف.. هذا عظيم.. هذا يبعث على القلق والتوتر.. هذا يبعث على الفخر.. هذا.. فقط استثنائي بما يكفي لعدم القدرة على وصفه بالكلمات، الكلمات التي أحيانا لا تنجح في وصف المشاعر فتخونها الريشة والنقوش..

وجدت نفسي أود لو أقوم بصفع وجهي لأخرج من هذه الحالة المتردية.. تماسك.. أنت عبقرى.. أنت الموهبة

التي بعثتها الآلهة للملك ليكون أدواته لنهضة البلاد.. (أنت الفتى الذي سيحقق حلم الملك) انسابت كلمات الملكة وقد استدعتها ذاكرته الأربية في محاولة لإعادة ثقته بنفسه، وسمع صوتها القوي يتردد بعقله وينسال ليخرج من أذنيه ليخرج فيسمعه جميع من بالشرفة والقصر والبلاد كلها.. الملك -الإله- هو من يحتاجه، وهو من تم استدعاؤه، وهو من يملك كل ما يريده الملك لتحقيق أحلامه.. أنا الحلم.. أنا المستقبل.. أنا من جاء بسلام (كما يعني اسمي).. أنا (إيمحوتب)!

تعجبت عندما مستني طمأنينة غامرة من مكان خفي فتمالكت نفسي، وأيقنت الآن فقط أن ظهور الملكة قبل الملك كان تحضيراً ذكياً وممنهجاً للظهور الأكبر للملك نفسه، وأن كلماتها لم تكن سوى تعويذة سحرية حامية لم أفهمها في وقتها، ولكني الآن أعني تماماً أنها كانت تقصد كل كلمة وكل حرف وكل نبذة.. شكراً أيتها الملكة..

علا صوت قرع دفوف.. ثم صاح قائد الحرس.. ثم رأيت بضعة خادמות يعدون ليسجدن عند باب الشرفة.. تلاهم أزواج من الزنوج يضربون بمراوح ضخمة من الريش خلقت نسيمات قوية وصلتنا بالشرفة، قبل أن ينزاح الجمع وتشرق شمس إلهية من داخل القصر تغطي على ضوء الشمس

الخارجي.. إنه الملك والإله (حورس) الذهبي.. (زوسر) يخطو خطواته الأولى لأراه وجهها لوجه للمرة الأولى..

بعد فاصل من السجود بين يديه ثم الاعتدال، وفاصل آخر انطلق على لسان كبار رجال الدولة - ضيوف الملك - يلهج بالثناء على الملك ولي النعم جميعا.. وابتني الفرصة لتأمله مليا.. أتأمله كبشري وليس كإله..

أول ما جذب انتباهي بالملك هو غطاء رأسه (النمس)، قطعة الكتان المشدودة خيوطها بدءا من الجبهة بالأمام حتى تجمعها بمؤخرة الرأس، والتي تغطي جمّة شعره المستعارة ذات الصفائر المطوية، ثم الرداء الكتاني الملفوف حول جسده الممشوق والذي يغطي ما بين خصره لركبتيه، ويتدلى من الأمام لسان قماشي يغطي العورة الأمامية وينتهي بأهداب على شكل بتلات، بينما تدلى من الخلف ذيل قماشي ساترا العورة الخلفية، وجاعلا إياه أشبه بحيوان ضاري قوي.. وانعكست أشعة الشمس على إكليل رأسه الذهبي، وعلى قلادة عنقه الفضية، وعلى حلّي صدره المستطيلة، وكذلك على خواتم أصابعه وأساور معصميه، وأخيرا برز مشبك من حجر اليشب كان يربط تداخل وثنيات الأقمشة عند خصره.. لما انتهى تركيزي بتفاصيل النقبة الملكية، وأغلقت عيني مؤقتا اتقاء لانعكاس الضوء على

حلي نقبته والذي كاد يصيبني بعمى جزئي، فتحت عيناى مجددا وبدأت أدقق النظر جيدا بملامح وجهه، والذي لم تبدأ عيناى به - لا شعوريا- واكتفت بتفحص ملبسه..

اعتقدت بادئ ذي بدء أن وجهه لم يتكون إلا من عيين.. زوج من عيين يمكن وصفها بأنها عميقتان.. إحساس ممض انتابني وأنا أنظر لهما أنهما محفورتان بداخل عظام الوجه.. بينما برزت عظمتا وجنتيه كرمحين موجهين للأمام بتهديد.. وأسفل أنفه الضخم ارتسم شارب رفيع لم يتناسب للوهلة الأولى مع شفثيه الغليظتين.. أربكني الشارب أكثر مما يجب إذ أنني لم أر مثله من قبل إلا لماما.. تدلت لحيته المستعارة المدببة للأسفل.. كانت بشرته التي استمدت لونها من لون سنابل القمح تمتص أشعة الشمس ولا تعكسها لتستزيد منها.. هذا الرجل امتلك وجهها مخيفا بحق.. وهذا الوجه يستحق أن يتم حفره في التاريخ كأعظم الملوك جميعا.. وهذا ما سأقوم بفعله..

وعلى النقيض مما توقعته لم أشعر بتضائلي وأنا أقف أمامه.. لا أنكر أن له تلك القوة الكاسحة والمؤثرة على الآخرين، إن له وجودا مهيمنا طاغيا بلا شك.. ولكنه بحاجة إلي.. هذا الإله الجبار الأسر يحتاج لعقلي.. ملأني هذه الأفكار الإيجابية بثقة لا حدود لها، ووجدت نفسي أبتسم

منتصب الظهر مرفوع الرأس مواجه إياه كرجل يواجه رجلا.. ويبدو أنه قد لمس مني هذا الكبرياء فلمعت عيناه للحظة.. لقد كان انطباعه الأول عني هو الاحترام، فرغم كل شيء لا يوجد رئيس -مهما بلغ شأنه- يحترم مرؤوسا يبالغ في تزلفه.. وهذا ما أراه في كل من حولي من بشر، الآن بالشرفة، وكل يوم بشوارع الجدار الأبيض..

بعد قليل من الحديث الرسمي بين الرجال والملك، توجه الملك نحوي ليتحدث أخيرا، فقال والتعجل يطل برأسه بين كلماته:

- قال والدك إنك ستشيد مباني من الحجر..

هزرت رأسي قائلا:

- أحتاج فقط للإمكانات وسأصنع لك ما لم تره عين مخلوق من قبل.

بدا الاستحسان واضحا باختلاج ملامح وجه الملك وهو يسألني مرة أخرى باهتمام:

- وماذا عن الفيضان الغائب؟

أجبت بهدوء هذه المرة:

- قمت بإعداد نماذج لمقاييس.. نحتاج لتجميع بعض

المعطيات للحصول على نتائج تجعلنا قادرين على التنبؤ
بقدومه والاستعداد لحالات تمرده.. سنشيد سدودا
وخزانات..

انزعج قليلا وهو يقول:

- نتحدث بشكل مادي بحت أيها الفتى.. نحتاج لاسترضاء
إله النيل (خنوم).. هذا أهم بكثير فهو السبب الرئيسي
لامتناع النيل..

صمتُ طويلا هذه المرة أفكر.. لا يمكنني المجاهرة بأفكاري
وإلا أُهْدِرَ دمي في التو واللحظة.. لقد وصف الملك (زوسر)
في كلمتين كل منهجي العلمي في حياتي.. لا أومن إلا بما
أراه وألمسه وأقوم بتجربته.. أمور كالسما والآلهة وحياة ما
بعد الموت أعشق دراستها وتدريسها بالمعبد وخط تفاصيلها
على ورق البردي، ولكن أرجوك لا تخبرني أن صلاة للسما
ستجعل الفيضان يعود، لابد وأن هناك سببا ما لامتناع
الفيضان، سبب علمي مادي موجود بالفعل، يعجزنا فقط
إيجاده أو فهمه، لذا كل ما يمكننا فعله بشكل عملي مفيد هو
وضع المشاهدات والتجارب التي تسجل حدوث هذه الكارثة،
حتى يمكننا التنبؤ بعودتها مجددا، وحتى يتم حل الكارثة
لابد من وضع حلول عملية يستفيد منها الناس، كتخزين
الماء وترشيد استهلاكه، ولا أعتقد -حقا- أن ترانيم مُقَفَّاة

ستغير قانون طبيعة أزلِّي كالفيضان..

ابتلعت أفكارى شاعرا بحرقه عدم الاقتناع وأنا أردد بوجه جامد:

- سيكون لصلواتك للإله (خنوم) أكبر الأثر في رضاء النيل العظيم وإلهه الإعظم..

هذا الملك ليس ساذجا، لابد وأنه استطاع قراءة مكنون صدري في ملامح وجهي، ولكنه -ويا للعجب- تجاوزني تماما وهو يقول لرئيس البلاط:

- سأسافر غدا مع الملكة ل(آبو).. سنقيم الحفلات ونشده بالتراتيل ليلا ونهارا.. سنقسم بعزة (خنوم) حتى يرضى عنا ويزيح الهم والذل عن العبيد..

انحنى رئيس البلاط وهو يغمغم:

- سيتم تجهيز الموكب الملكي خلال ساعات.. سنتحرك بعد شروق أول خيوط ذهبية لشمس الصباح..

توجه لكبير الكهنة قائلا:

- استخلص من عقل هذا الفتى كل ما يمكن أن يفيد المعبد في أيام.. ابحث عمّا يمكن أن تستفيد منه في أي مجال.. لدي حدس أن ما لديه يفوق مجرد الموهبة المعمارية، ولكن

حتى إن اقتصر الأمر عليها لكفّت ووفّت..

ثم رنا نحوي مضيّفا وشبح ابتسامة خفيفة يزور شفّتيه:

- لقد قرأت نقوشك عن القلب ونقله لرسائله الحيوية لسائر الأعضاء.. هذا ليس ملهما فقط.. هذا فتح في مجال الطب وعلوم الأمراض..

شعرت بدهشة سريعة زالت ليحل محلها الفخر، فخر بما كتبتّه، وفخر بالملك نفسه، ملك يملك سعة أفق وتفهما وحباً للعلم فاق ما ظننته..

ثم توجه الملك (زوسر) لكبير المهندسين قائلا:

- سيظل طويلا بكنفك حتى ينتهي من تشييد الأثر الذي لم يوجد مثله من قبل.. زوده بكل ما نملك من علم معماري ثم ساعده ليخترع ما يضج به عقله ويريد أن يعلن ظهوره للدنيا.. لا تبخل عليه..

ثم رنا للسماء هذه المرة.. أعتقد أنه كان يتخيل رؤية شيء ما.. بناء حجري مهيب يفوق ارتفاعه هضاب الفيروز نفسها.. زودتني نظرتّه الحالمة هذه بدافع رهيب لأحقق له حلمه هذا.. ووجدت نفسي أقول بصوت قوي النبرات واثقها:

- لا تقلق سيدي وإلهي.. انتظر المستقبل وستراه يتجسد

نصب عينيك.. وهذا وعد مني بذلك..

الفصل السادس

شد كاهن المعبد إزاره بشدة رغما عنه -بانفعال- وهو
يمسك بيده ورقة بردية منقوش عليها كلمات منسقة بنظام
لم يره من قبل، وبينما جلس المريض خلفه يتوسد الأرض
ويسند مؤخرة رأسه للجدار بوهن واضح، قبضت أصابع
الكاهن بقوة على الورقة وعيناه تتابعان النقوش ليقراً
محتواها بعقل رافض للمبدأ نفسه من قبل أن يباشر القراءة،
فقال له (إيمحوتب) بهدوء مبتسماً:

- احذر.. ستمزق الورقة بين أناملك! لقد استغرقتني وقتاً
ومجهوداً لتخرج بهذا الشكل..

مَطَّ الكاهن شفتيه ولكنه لم يعلّق، وإن تَخَلَّتْ قبضته عن
الإمساك بالورقة بقوة في إذعان غير مرئي، ولمحت عينا
(إيمحوتب) دقيقة الملاحظة أن الكاهن قد استرق نظرة
شذراً لكبير الكهنة الذي كان يقف بينهما، ينقل نظره بينهما
الاثنين أغلب الوقت، أو للمريض الراقد يلهث أحياناً، وكأن
الكاهن يعبر عن معارضته لما يحدث بهذه النظرة عوضاً عن
الكلمات، فمن يجرؤ على معارضة الطبيب الجديد الذي تم
إرساله بتوصية من الملك نفسه، (طبيب؟! يا لها من كلمة..
وهل ستتغير طريقة علاج الأمراض لتعتمد على الأطباء بدلاً
من السحرة من الكهنة؟! هذا تخلف! من سيقوم بطرد الأرواح

الشريرة من أجساد المرضى التي استولت عليها؟ من سيردد
التعاويذ السحرية الحامية من لدغات العقارب والثعابين؟
حقاً إنها نهاية حقبة منيرة وتسلسل ظلام الجهل ليحل محلها!
لم يجرؤ الكاهن على الجهر بأي مما يفكر فيه، ولكن لم
يكن صعباً قراءة ما يفكر فيه بمجرد النظر لملامح وجهه
المكفهرة..

بدا (إيمحوتب) هادئاً ومتفهماً، يعلم أنه أداة لتغيير شكل
البلاد لذا عليه الصبر، فجميع الأطراف تريد الخير ولكن كلٌّ
بطريقته التي يظن أنها المثلى وأن ما عداه خاطئ.. فقال
للكاهن والابتنسامة لا تفارق شفتيه:

- أرجو أن تقوم بقراءة الورقة بصوت يمكن للسيد كبير
الكهنة سماعه..

انتبه كبير الكهنة وبدا متأهباً للسمع باهتمام، فنفخ الكاهن
لا شعورياً قبل أن يقول ببطء ضاغظاً على كل حرف وكأنه
يتقياً الكلمات المقززة:

تعليمات خاصة بمرضى إصابات كسور الضلوع الصدرية
الفحص:

إن فحصت مريضاً يعاني من كسور بالضلوع فلاحظ

درجة الألم أولاً فستكون هي مقياسك لمدى نجاح

خطتك العلاجية.. افحص في البداية الجلد إن

كان هناك جرح خارجي وجب تضميده..

وإن لطمك هواء قادم بقوة من داخل الجرح

فهذه إصابة مميتة لا يمكن عمل شيء لها..

إنها روحه تتأهب للخروج.. أما إن كان جرحا

بسيطا وجب تنظيفه ثم خياطته،

ثم تضميده بانتظام بالعشب والعسل بعد ربطه،

والاهتمام بنظافته..

ولعلاج الكسر نفسه يتم ربط لفائف من الكتان

بقوة لتضغط على الضلع المكسورة بعد أن تخفف

ألمه بزهرة نبات الخشخاش.. اترك المريض

هكذا لعدة أيام وامنعه من ممارسة النشاطات العنيفة..

واطلب منه الإكثار من السوائل واللحوم..

هكذا يلتئم الكسر تماما..

غمغم الكاهن ببضع كلمات فلم يتمكن أيهما من سماعه،
فسأله كبير الكهنة بلطف:

- ماذا تقول؟ لم أسمع تعقيبك جيدا..

قام الكاهن برفع نبرة صوته بشيء من الحدة وهو يسأل
باستنكار لم ينجح في كتفه:

- هكذا فقط؟ تضميدOLF بالكتان؟ لا توجد تعاويذ سحرية
ولا تماائم؟

أضاف بسخط:

- أعتقد أننا نعامل الموتى بأفضل من الأحياء في هذه
الحالة! كلاهما يتم لفه بالكتان ولكن الموتى فقط يتلقون
ترانيمهم وتعاويذهم وتماثيلهم السحرية الحامية!

بدا القلق باديا على وجه كبير الكهنة، فهو يعلم أن هذه
الكلمات تعبر عن رد فعل كهنة البلاد بأسرها وليس هذا
الكاهن، وأن إيجاده لحل الآن سيكون له الأهمية القصوى
لمنع تمرد الكهنة على تعاليم (إيمحوتب) الجديدة والصادمة،
لذا كان يفكر بعمق وهو يسمع (إيمحوتب) يرد بهدوء وروية:

- سيدي الكاهن.. خبرتي مع مرضى كسور عدد من
الحيوانات أفادت بهذه النتيجة المؤكدة..

ثم أشار للمريض خلفه وهو يقول مشيراً إليه:

- كما يمكن التأكد من خلال فحص هذا المريض، لقد اختفى ألمه أو كاد بعد ضغط صدره باللفائف..

تجاهل الكاهن جملة (إيمحوتب) الأخيرة ولَمَح للجملة الأولى التي وجد فيها ثغرة بأسلوب غريمه الجديد، فسارع بالاعتراض بشكل تمثيلي رافعا يديه للسماء:

- يا إله الشمس.. بعد أن هرمننا لخدمتك وغزت تجاعيد السنين وجوهنا سنعالج رعاياك من البشر كما تُعالج الحيوانات!

ضيق (إيمحوتب) عينيه محاولا التخلص من هذا الكاهن القديم، كان الكاهن كبيراً في السن بما قد يصل للخمسين من عمره، وشعر (إيمحوتب) بأن تجاعيد وجه الكاهن التي برزت بشكل خاص تحت عينيه وحول فمه تحارب لإثبات جدارتها بأحقية أن تُتَّبَع، مقارنةً بوجه الشاب العشريني (إيمحوتب) نفسه الناعم الخالي من أية تجاعيد.. وكأنه يعترض بشكل واضح على أن يتم اتباع طريقة هذا الغر الجديد الذي -ويا لسذاجته- لا يستخدم السحر لعلاج المرضى..

ولكن تدخل كبير الكهنة بخبرته التي فاقت خبرة الاثنين ليقول بنبرة مؤكدة لا تقبل الجدل:

- لن يتم التخلي عن السحر بكل تأكيد..

ثم رنا نحو (إيمحوتب) بنظرة خاصة لما رآه متعجبا
وأضاف:

- ولكننا لن نرفض طريقة (إيمحوتب) أيضا..

تعلقت به العيون وهو يقول بصرامة:

- سنستخدم الطريقتين معا.. طريقة (إيمحوتب) التجريبية
التي أثبتت معه صحتها.. بالإضافة للتعاويد وطقوس طرد
الأرواح الشريرة..

لم يبدو الكاهن راضيا بشكل كامل، ولكنه كان راضيا لحد
ما، بينما هز (إيمحوتب) رأسه وقد أعجبه هذا الحل، ففي
نهاية المطاف كان يوقن أن الكلمات السحرية لن تجلب
الشفاء للمريض، ولكنها لن تضره في نفس الوقت، بل على
النقيض رأى أن هذا الحل مناسب لبعض المرضى الذين
لديهم عِلَّةٌ نَفْسِيَّةٌ يتوهمون أن العلاج حينها سيأتي على يد
الساحر، فإن كان سبب المرض نفسيا فلن يكون علاجه إلا
نفسيا أيضا.. أعجبت هذه الفكرة وودّ لو التقط ريشة وورقة
وقام بخطّها على الفور كمعلومة طبية تستحق التطبيق.. كان
الكاهن قد التقط يد المريض وقام بإيقافه ببطء، ثم وضع
راحة يده على جبهة المريض وقام بالترنّم ببعض الكلمات

التي تحميه من الأرواح الشريرة التي قد تلاحقه وتستولي على جسده مجددا وتمنع الكسر من الالتئام، ثم ربت على كتف المريض صارفا إياه وداعيا له بالشفاء.. (في النهاية فهذا الكاهن محب لعمله ومخلص له، ولا يريد إلا الأفضل للمريض من وجهة نظره.. أنا وهو ننظر للأمر من وجهتي نظر متضادتان، ولكن كلانا يملك الرغبة الجيدة والطيبة..) هكذا فكر (إيمحوتب) وآمن، ولذا قام بتقبيل كتف الكاهن باحترام أمام عينيه المتعجبتين.. إنه رجل الإله حقا، يخدم المرضى منذ سنين، من قبل أن يولد هو حتى..

ثم أراد أن يفعل شيئا آخر ينم عن صدق نواياه تجاه المعبد بشكل عام.. فانبرى يقول لكبير الكهنة بلهجة هادئة وهو على يقين أن كاهن المعبد سيسمعه ويلتقط الرسالة الخفية:

- أتَعلَم يا سيدي كبير الكهنة.. هناك قصة تقليدية كنت أقصّها على مسامع طَرَفِي أيّ نزاع كنت أُستدعى لفُضّه.. قصة عن أحد الحطّابين الذي اكتشف فجأة أنه يفتقد فأسه، راقب جاره، تأكّد له أنه يبدو بالفعل كسارق فؤوس تقليدي، نفس النظرة والحركات وطريقة الكلام.. إنه سارق فأسه لا ريب.. حتى وجد فأسه بعد عدة أيام، كانت قد سقطت منه في مكان قريب، عندئذ عاد ليتفحص جاره فتأكّد أنه لا يشبه سارق فؤوس في شيء، لا يشبهه في النظرة، ولا في

الحركات، ولا في طريقته في الكلام.. باختصار، نحن نرى ما نريد أن نراه..

ابتسم كبير الكهنة، كانت رسالة موجزة وقوية ونبيلة، فإن كان الكاهن يراه الآن عدوًا للمعبد ولطريقته فهذا لأنه يظنّ هذا، ولكنه سيتقن بمرور الوقت أن (إيمحوتب) ليس إلا حليف للمعبد وللمريض نفسه..

تحرك كبير الكهنة يتبعه (إيمحوتب) بعد أن قاما بتحية كاهن المعبد، ليغادر الاثنان الغرفة الضخمة الملحقة بالمعبد، والتي يتم فيها عادةً استقبال المرضى وعلاجهم وقراءة التعاويذ العلاجية عليهم من قِبَل الكهنة، وسأل (إيمحوتب) كبير الكهنة ببراءة غير جاهل عن الرد:

- أحقا تعالجون لدغات العقارب والأفاعي بالسحر؟

أوماً كبير الكهنة برأسه بدون أن ينطق، صمت (إيمحوتب) قليلاً متهيّبا مما يريد أن يقوله، ولكنه غلب على أمره وسارع بالسؤال قبل أن تفر منه جرأته:

- سيدي.. هل أنت مقتنع بطريقتي في العلاج؟ أم أنك فقط- تجاريني لكوني موصى عليه من قبل الملك؟

لم يرد كبير الكهنة على الفور، انتظر حتى خرجا من الغرفة وعبر الباب المفضي لبهو المعبد، ثم قال بهدوء:

- كل شيء في العالم ملك للآلهة فهي منبع كل خير، وهي على علم برغباتنا الدنيوية، وفي استطاعتها -دائما- التدخل في أحوالنا وتغيير قدرنا..

توقف أمام لوحة جدارية منقوشة أمامه ففعل (إيمحوتب) مثله، تأملها كبير الكهنة وكأنه يريد أن يستشهد بها على ما يريد أن يقوله، كانت هذه اللوحة موجودة بجدران كل المعابد وتسمى (الشافية)، يتوسطها الطفل (حورس) عاريا واقفا على تمساح، قابضا بيديه على ثعابين، ونقوش لترانيم سحرية فوق وتحت اللوحة، سرح في تفاصيل اللوحة وهو يسترسل:

- لقد قام الإله (رع) بشفاء (باستيت) عندما لدغتها العقرب.. كما أنقذ (أوزيريس) من بين أنياب التماسيح.. عندما يأتي المصاب باللدغة نقوم برش الماء على هذه اللوحة فيصير مقدسا، يتشبع بمفعول النصوص السحرية، تتجمع المياه أسفل اللوحة ثم يقوم المصاب بشربها، عندئذ لا يتطرق السم لقلبه ولا يحرك صدره، فيقوم بشكر المعبود عن طريق تقديم صلاة خاصة لكاهن المعبد الذي أشرف على شفائه.. فما الكاهن إلا وسيط بينه وبين معبوده الذي منّ عليه بالشفاء..

فهم (إيمحوتب) أن كبير الكهنة يوضح له بکیاسة أن مكانة

الكهنة من مكانة الآلهة لدى العامة، فصمت منتظرا المزيد، ملاحظا أن كلمات كبير الكهنة تدور عن الكهنة بأكثر منها عن الآلهة نفسها..

استرسل كبير الكهنة:

- غالبا يكون الكهنة أبناءً لكهنة، الأمر أشبه بالتوارث.. يتم إلحاق أولاد الكهنة بالمعبد منذ الطفولة ليصبحوا رجالا للدين، يتعلمون القراءة والكتابة، يحفظون صور المعبودات وألقابهم وصفاتهم ومميزاتهم وقصصهم، ويتعلمون كل ما يختص بالشعائر الدينية والعقائد، وهذا ليس بالأمر الهين.. فلا بد لهم في النهاية تأدية امتحان ليتم اختيار من هو جدير بالاندماج مع كهنة المعبد، ومن هو جدير بالاقتراب من المعبود في قدس أقداسه..

ثم مال برأسه نحو (إيمحوتب) قائلا:

- لقد مررت بالأمر نفسه.. أعلم أن والدك قام بإعدادك منذ الطفولة لتصير كاهنا..

تمتم (إيمحوتب) مطرقا أرضا:

- ولكني خيبت أمله..

- لا أظن هذا.. لقد تخطيت اختبار أن تصبح كاهنا بجدارة

مستحقة، كل الأمر أنك لم تعد تريد أن تصبح كاهنا..

- هذه هي كبد الحقيقة..

- لا تمتلك الحقيقة كبدًا أيها الفتى.. الحقيقة نسبية.. كلنا نحاول أن نصيبها-مخلصين- سواء كنت كاهنا أم طبيبًا تجريبيًا أم رئيسًا للكهنة أو حتى ملكًا..

صمت (إيمحوتب) شاعرا بقطرات الحكمة تنساب من بين الحروف التي يتلقاها.. فأكمل كبير الكهنة وهو يتحسس الألوان البارزة من النقوش الجدارية الزاهية:

- لن يتبقى من كل علمنا إلا هذا.. نقش على حجر وكلمات على ورق.. يعمر الحجر والورق أكثر بكثير مما يعمر الإنسان وكل ذريته..

ثم نظر لعيني (إيمحوتب) مباشرة وقال:

- هناك وصفة معتادة ومجربة لأمراض العيون، عندما يتوقف المريض عن الرؤية ليلاً، مرض العشى، نستخدم له بالمعبد عقارا مستخرج من كبد الحيوانات، العلاج ناجح جداً، ولكني لا أجرؤ -أو أي كاهن غيري بالبلاد- على تجربته بدون تلاوة التعاويذ الطاردة للروح الشريرة المستولية على نظر المريض.. هناك علاج مادي ناجح بالفعل.. ولكن لا بد من إرادة إلهية عليا تسمح لهذا العلاج بالعمل، وهي نفس الإرادة

التي سمحت لنا باكتشاف العلاج من الأساس..

قال (إيمحوتب) باقتناع:

- أتفق تماما معك يا سيدي.. بل أجزؤ على إضافة أنه أحياناً قد يكون العلاج هو اللاشيء.. أتذكر سيدة كانت تأتيني المعبد يومياً لتطمئن على قلبها.. كُنْتُ قد أدخَلْتُ التشخيص بوضْعِ الأصابع على المعصم وتحسُّس دقائق القلب التي يتم العثور عليها.. كانت تأتيني بنفس القلق لتطلب مني نفس الطلب كل يوم.. أن أتحمس معصمها وأطمئنها على قلبها.. تكرر المشهد، تأتيني المريضة نفسها.. تئن.. تعطيني ذراعها.. أظفئُها كل مرة مُنْصاعاً لطلبها؛ فلا بد للطبيب الجيد أن يكون صبوراً، ولكني كنت أفكر دائماً أنّ لديها مرضاً بالفعل ولكنه بعقلها وليس بقلبها.. احتجت لسنوات حتى أدرك أن السيدة العجوز كانت تريد من يلمسها فقط لا أكثر..

هزّ كبير الكهنة رأسه مستحسناً ما يسمع، ثم أنهى الحوار بأن قال بإيجاز:

- عليك العمل على هذا المنوال.. لا تُقَصِّر في استكمال تجاربك العملية التجريبية بالطبع، فهذا هو سر تفردك وقدرتك على إحداث التغيير أو التطور، ولكنك - وفي الوقت نفسه - لا تغفل تأثير الإرادة العليا.. سواء أكانت إرادة آلهة أو أي شيء آخر، فهي موجودة.. وفي كل الأحوال عليك

بمجاراة الكهنة، فأنت في النهاية أحدهم شئت أم أبيت..

تفكّر (إيمحوتب) في الكلمات، لاقت منه هوى وفكر فيها كدستور غير مقروء سيسير عليه في طريقه لتطوير الطب في المعابد، ففي النهاية فإن معالجة آلام الرأس بقطع الرأس الموجوع نفسه تُعدّ -نظريًا- طريقة ناجحة لمعالجة الصداع، ولن يتم تغييرها إلا إن تم إيجاد علاج فعّال ومادّي بالفعل لآلام الرأس يغيّر من طريقة العلاج القديمة الانتحارية، فمخاطبة اللامَنطِق المستشري عبر الأجيال لا تكون بالمنطق، وإنما بالتجربة المادية الملموسة..

صار يمر على المعبد يوميًا، تقرب للكهنة وحفظ منهم التراتيل الشافية، وخلال أسبوع -كانت مهلته من الملك وكبير الكهنة لأخذ فكرة عن الطب والكهانة بالبلاد- بدا يحفظ أغلب تعاويذ الشفاء، وبدأ عدد قليل من الكهنة يجربون طرقه في العلاج لينبهروا من نتيجتها الناجحة بامتيان، تسلسل خلال أيام ليفرض على الكهنة -لا شعورياً- أسلوبه التجريبي، جنباً إلى جنب التعاويذ السحرية الشافية، بالإضافة لكثرة تعامله مع العمال بالمعبد والذين وجدوا منه تواضعاً وحكمة جعلتهم يولونه ثقة كبيرة نظراً لسنه، ربما أكسبه كونه مبعوثاً من طرف الملك هالة غير مرئية من المهابة، ولكنه في نهاية المطاف صار حَكَمًا مسموع الرأي بين

العمال، يطلبون منه المساعدة لفض نزاعاتهم لما لمسوه من راحة رأيه في عدالة الحكم، كان دائما يقضي قضاءً ينطوي على السلام، وكانت أحكامه سريعة وفاصلة مما وفر عليهم نفقات القضاء الذي يتولاه قضاة وكتبة، وفي اليوم السابع كان قد اكتسب اسما صار معروفا به بين العمال قبل أن يتسرب ليسمع به الكهنة.. لقب الوزير..

لم يجد كهنة المعبد غضاظة في أن يمد (إيمحوتب) إقامته بينهم أسبوعين آخرين، كما طلب هو من الملك ليستطيع أن يضع نظاما يصلح لأن تسير عليه جميع المعابد، يبدأ من هذا المعبد لينتشر لكل معابد البلاد، وقام بتقسيم مدرسة المعبد الطبية لتخصصات، فصار هناك أطباء عيون وأطباء رأس وأسنان وأمعاء، وأطباء للأمراض الخفية.. واستغل (إيمحوتب) هذا الأسبوع ليتابع تجاربه الطبية الجراحية على المرضى ذوي الإصابات الخطيرة والميؤوسة منها، بالإضافة للجراحات المعتادة كفتح الخراجات والختان والترينة (ثقب الجمجمة) والتجبير، وجراحة الحروق بالعسل والزيت الدهنية والأربطة، وجراحة الأورام بالمشط أو بالكي.

وأسس خلال إقامته هذه مقدمة لكتابه الأشهر تاريخيا باسم كتاب الجروح، حيث وضع أسسا لعلاج أمراض

المستقيم والعظام والجراحة العامة مقسما الجسد تشريحيا من الرأس بالأعلى وحتى أسفل العمود الفقري، وكان كل مرض يتم تفنيده كما قام بكتابة البردية الأولى التي أغضبت الكاهن بخصوص مريض كسر الضلوع، يبدأ بوصف اسم المرض في العنوان ثم الكشف الإكلينيكي الدقيق فالتشخيص بطريقة العلاج.. أدخل النبض كوسيلة تشخيص لأول مرة في التاريخ، ذكر بدقة تشريح المخ وغشائه، ربط بين ظواهر متلازمة بأجزاء متباعدة من الجسد، استخدم منها دقيقا في الفحص والتشخيص، كما استخدم آلات جراحية مختلفة..

استخدم عقاقير علاجية من نباتات تستخلص منها الزيوت والمراهم، أو من أعضاء حيوانية ومنتجاتها كالعسل واللبن وشحوم الحيوانات، بالإضافة للمعادن من فيروز وذهب وفضة والتي كانت تستعمل روحيا للطلاسم والتعاويذ أو جسديا ككربونات النشادر وصدأ النحاس والبوتاس.. كما تم استخدام الحقن الشرجية بشكل واسع لأمراض الجهاز الهضمي، وكذلك لمّح لإمكانية البدء في مشروع الطب الدقيق حيث يتم الاستعاضة بأصابع وأقدام خشبية للمحافظة على مشاعر المرضى الذين تم بتر أطرافهم، لكي يُبْعَث المريض للحياة الأخرى بأعضاء كاملة..

ولم ينسَ بالطبع الأخذ بنصيحة كبير الكهنة والتي لا يمكن تقديرها بثمن، احترم الآلهة وقدها ولم يهمل وضع التعاويذ الشافية وترتيلها على جميع المرضى، فنال احترام الكهنة قبل المرضى والعمال والعامة جميعاً.. وقد مال قلبه لوجود الآلهة بالفعل، ولكنه ميل لا يدعو للدعة ونبذ العمل على البحث التجريبي والاكتفاء بالصلوات، بل ميل يعضده مجهود وبحث وتجارب لا تعد ولا تحصى.. وتدرجياً قام بالفصل بين القائمين على مناظرة المرضى بذكاء ليجعل منهم صنفين رئيسين، صنف يسمى الطبيب الكاهن، وهو بشكل رئيسي يجيد تلاوة جميع التعاويذ السحرية ويحفظها عن ظهر قلب، وطبيب مدني وهو من يقوم بالعلاج اليدوي بشكل رئيسي.. وهكذا تم وَأُذِ الخلاف بين الدين والعلم قبل أن يولد..

الفصل السابع

جلست الشقيقتان على ضوء الشمس الموشكة للغروب، يتجاذبان أطراف الحديث، والأولى تقوم بتحريك مجموعة من سيقان البردي بين أناملها، فتقوم بتجميعها في مجموعات متلاصقة بحجم قبضة اليد لكل مجموعة، بينما اكتفت الثانية بتقليب سبابتها في الرمال التي كانت يوما ما غير موجودة، مغطاة بطبقة كثيفة من العشب الأخضر، لقد تغير الحال مع تأخر الفيضان، فَقَلَّتْ نسبة اللون الأخضر بالأرض، اختفت الكروم الفخمة بعناقيد العنب اللامعة، ذبلت أشجار التين والجميز والصفصاف، حتى ما يتم زراعته من بصل وكراث لم يعد يأتي بما يكفي، جفت بركة الماء - التي كانت تتوسط الحديقة المواجهة لضفة النيل - بشكل شبه كامل، لتترك فقط حفرة دائرية فارغة ملساء الجوانب بعد أن كانت مسورة بالنخيل والسنط آوية الإوَرِّ والبَطِّ بداخلها ترتع وتلعب بالماء الوفير، صار يتم تحذير الأطفال من اللعب بالقرب منها الآن وإلا سقطوا في هذه البئر..

ملامح وجه كل منهما متشابهة، أتت من ملامح وجه الأم الهادئ الذي لا يخلو من ملاحظة، بزواج من العينين تأسران الناظر، وهو ما توارثتهما الابنتان بنجاح من الأم، وهو ما جذب الأب بشكل تام ليحب الأم من النظرة الأولى ويبادر

بطلب الزواج منها، منذ عقود خلت.. الأخت الأكبر، (نونيا)،
لانت ملامح وجهها لتصور حزنها الشديد، حزن ليس بوليد
يوم أو أسبوع أو حتى شهر، حزن بدأ في تكوين خطوط
لتجاعيد بوجه الفتاة التي لم تصل العشرين بعد، فيجعلها
تبدو أكبر سنا وأكثر هَمًّا، كانت لا تكف عن رسم دوائر
بسبابتها ثم لا تنفك تمحوها، وهكذا دواليك حتى بدأت
شقيقتها الأصغر (نينيت) في إظهار ضجرها، وقامت بترك
سيقان البردي وضربت صفحة الرمال براحة يدها لتزيل
الطبقة الصفراء بالكامل، والتي كانت شقيقتها الأكبر (نونيا)
تستخدمها كمداد لدوائرها الأبدية التي لا تنتهي، فتوقفت
(نونيا) عن رسم مزيد من الدوائر، واكتفت للحظات بمراقبة
(نينيت) وهي تقوم بتجميع سيقان البردي بين يديها من
جديد..

شعرت (نونيا) بأنها هي الأصغر وليس (نينيت)، رغم أنها
تكبرها بعامين اثنين كاملين ولكنها كانت أحياناً تخشى
برودة (نينيت) وقسوتها ولا مبالاتها، لم تخجل من وصفها
بهذه الصفات وإلا كيف ما زالت تمارس حياتها بشكل طبيعي
منذ غادرهم (إيمحوتب) منذ ست شهور كاملة، بينما لم
تعد لديها هي رغبة في تناول الطعام أو اللهو أو حتى النوم
لساعات طويلة، بشكل عام لم تعد لديها رغبة في الحياة..

كانت (نينيت) تمسك بساق البردي بين إصبعين، تقيس سمكها بعينها المجردة، ثم تناولت آلة حادة وبدأت تقشر الجزء الخارجي من الساق، ثم استخدمت نفس الآلة لتقسيم الساق طوليا لعدة سيقان أرق سمكا، ثم قربت وجهها من الطبقات الرقيقة وألصقتها بجانب بعضها عن طريق تثبيت أطرافها المتجاورة باللصق بالصمغ لتتكون أمامها صفحة من سيقان رفيعة متلاصقة، ثم جاءت بساقين رفيعتين كانت قد استثنتهما من قبل ووضعت الأولى برفق بالطرف الأعلى من السيقان ولكن عرضيا عموديا على السيقان المتلاصقة، وفعلت بالمثل بالساق الثانية وألصقتها بشكل عمودي على الطرف الأسفل من العيدان المتلاصقة، ثم ضغطت بقوة -ولكن بحذر- على الطرفين الأفقيين العلوي والسفلي ليقوما بتثبيت إضافي للسيقان الرأسية، وهكذا تكونت صفحة من ورق البردي تحتاج فقط لقليل من التجفيف..

ابتسمت (نونيا) رغما عنها، لقد علّمها (إيمحوتب) كيف تتم صناعة ورقة البردي كما تَعَلَّمَ هو بالمعبد صغيرا، لم تهتم هي ولكنها لم تستطع منع نفسها من الإعجاب بقدرة (نينيت) -شقيقتها الصغيرة الباردة- على صنع ورقة البردي بإتقان..

- أصبحت تجيدين صنع ورق البردي بأفضل مما يفعلون بالمعبد..

- ربما.. ولكن تنقصني مهارة الكتابة بشكل جميل..

- تستطيعين الكتابة والقراءة جيدا عزيزتي (نينيت).. يبدو أن بينك وبين (إيمحوتب) قاسما مشتركا يتعلق بهذا الصدد.. بينما لا أجد أيًا من هذا كله..

نظرت لها (نينيت) شذرا ببرود وهي تترك الورقة على الأرض لتجف بعناية قائلة:

- كل ما في الأمر أنك لم تريدي تعلّم هذا الشيء.. لم يهوى قلبك إليه.. لابد وأن هناك أشياء أخرى تميلين لفعلها ولا أحبها أنا.. لا يتعلق الأمر بأية قواسم مشتركة..

باغتتها (نونيا) بالسؤال بصوت تهدجت نبراته مختنقا بدموع حبيسة:

- ألم تشتاقني إليه؟

ورغم أن (نونيا) لم تحدد الشخص المقصود، ولكن لم يحتاج الأمر للتوضيح، غادرهم (إيمحوتب) منذ ستة شهور، ورغم أنه ظلّ يزور البيت بعد لقائه الملك يوميا لمدة أسبوع، ولكن جدّ أمر جعله يعتكف بالمعبد لأسبوعين، يقيم ليلا نهارا، ثم جاءتهم منه زيارة سريعة خاطفة يخبرهم فيها أنه سيقوم عهدا لا يعلم أمدّه بموقع بصحراء (سقارة) مع كبراء المهندسين، حيث أنه أفهمهم أنه قد أصبح قاب قوسين أو

أدنى من البدء في تنفيذ حلم الملك نفسه، والذي يتعلق ببناء
حجري شامخ أبدي لا ينال منه الزمان..

جُنَّ جنون (نونيا) حينها، وكان أكثر ما دمر أعصابها هو
استقبال أمها وشقيقتها للخبر بحبور وتشجيع، قد تفهم
فرحة أبيها، فهدفه الأخير من الحياة هو أن يرى نجاح
أبنائه، ولكنها لم تفهم كيف تفرح أمها و(نينيت) بخبر بدء
انتقال (إيمحوتب) لأجل غير مسمى.. هل تَقَبَّلًا بهذه السهولة
رحيله؟ نعم رحيله.. فهي تعلم جيدا أن رجال البلاط الملكي
لا يراهم أهلهم إلا نادرا.. رجال مثل أبيها حتى وإن صاروا
من كبار رجال الدولة ولكن تبقى لهم أوقات دوام ثابتة،
يعودون لبيتهم فور انتهائهم، ولكن رجال البلاط الملكي
-كما يصف لها أبوها- هم أشبه بالجنود على ساحة المعركة،
يبقيهم الملك لجواره يوميا ويهتم بجعل إقامتهم جبريا في
كنفه، وكان هذا شرفا لا يمكن أن يضاهيه شرف، ربما حلم
للآلاف من الرجال، حياة سعيدة تموج بالبذخ والمغريات،
وكذلك تضج بالإنجازات التي يكتبها التاريخ -أو ينقشها
بمعنى أصح- وبجانبها أسماء من قاموا بها من رجال خالدين،
خلَّدتهم إنجازاتهم العظيمة للبلاد وإلهها الملك وسائر الآلهة
أجمعين..

(ما يهمني هو تحقيقه لحلمه وسعادته.. لا أكثر..) قالتها

(نينيت) ثم أطرقت أرضا وهي تضيف بشيء من السخط:

- ما لك تتحدثين وكأنه لن يعود؟ وكأننا لن نراه مجددا؟
كفي عن هذه الأفعال ال..... الطفولية..

كادت تصف أفعال أختها بالعاطفية ولكنها أمسكت لسانها،
لا يوجد خطأ من إظهار العاطفة في موقف مثل هذا، ربما
الخلل نابع منها هي وليس من شقيقتها الأكبر.. ربما هي
الباردة كما يحلو للجميع وصفها دائما بلا مزاح، ولكنها ترى
أيضا أن (نونيا) عاطفية أكثر مما يجب.. تعلم في صميم
قلبها أنهم جميعا سينسون (إيمحوتب) كشقيق وسيصبح
مجرد رجل دولة نافذ يلجؤون إليه فقط وقت الشدائد
كواسطة، ويصبح شقيقا فقط في الساعات القليلة النادرة
التي سيستطيع اختطافها من جدول وقته الذي يبدو أنه
سيكون حافلا لدرجة قد يكفي عمره كله لتنفيذه، مقارنةً
بمدى سقف طموحه اللامتناهي وبموهبتة الاستثنائية
العبقرية..

كانت شاردة، فأخرجتها (نونيا) من أفكارها بقولها:

- أنا طفلة.. كم أود لو ظللت طفلة.. سأعود لأراه يوميا من
جديد.. ألا تشعرني بأثر فراقه أيتها الباردة؟

ثم علا صوتها فجأة وكأن صماما كان مغلقا وتعرض للخلل

دفعة واحدة، وبدأت بالصياح:

- انظري حولك.. من علمنا كيق ننسق هذه الحقائق؟ أعني التي كانت حقائق منذ سنين، تغض بالأشجار والزهور، ويخترقها رواق مذهل مرصوف بأعمدة البردي صممه وبناه (إيمحوتب) بيديه، يتوسطها رمان ودوم ولوز وزيتون، قبل أن تستحيل جدبا.. من تفتق ذهنه واخترع هذا الشادوف الذي يجلب الماء بسلاسة من النيل للأراضي الزراعية؟ من كان يجمع الطمي ويحرقه تحت أشعة الشمس ليجعله قابلا طوع يديه، يصنع منه تماثيل الآلهة والحيوانات والأشجار في محاكاة متقنة لخلق الآلهة؟ من جعلك بارعة كالكهنة في القراءة والكتابة؟ أيتها الباردة ألا تتذكرين يوم لدغك العقرب منذ ثلاثة سنين ربما أو أربعة- وهم أبي بنقلك للمعبد لعلاجك، حينها رفض (إيمحوتب) هذا بضراوة وقام بعلاجك بنفسه، بالضغط على مكان اللدغة وتنظيف الجرح بالشمع والشحوم وإراقة السوائل العشبية بجوفك ليلا نهارا؟ واستنكر جميع من حولنا حينها فعله لرفضه تلاوة تعاويذ الشفاء عليك، ولكنك خرجت بأحسن حال بعد يومين فقط؟ ألا يمكنك أن تنظري أمامك لهذا البيت الخشبي البديع، بيت الشتاء والصيف كما نطلق عليه، الذي قام بتصميمه وبنائه هو بيديه بقلب الحديقة ليكون غرفة نوم بديعة، نتراص جميعنا على أرضه ليلاً لنستمتع بالنسيم العليل الذي يأتي من تلك

الفتحات التي صنعها بعقرية، لتجعل البيت الصغير معتدل الحرارة طيلة أيام السنة، باردا بالصيف ودافئا بالشتاء.. لن يكفي النهار كله لسرد كل ما جمعنا به الحياة من مواقف تجبرنا على عدم نسيانه.. لماذا أنت هكذا؟!

(ولماذا أنت هكذا؟ ماذا ستستفيد من الصباح بوجه شقيقتك؟ هل ستغيرين طبيعتي التي جبرتني عليها الآلهة وجعلتني لا أستطيع إظهار عاطفتي سواء بالكلمات أو بتغيير ملامح الوجه والصياح والنواح كما تفعلين منذ فارقنا (إيمحوتب)؟ لم أنساه ولو للحظة واحدة أيتها الطفلة النواحة، وإن كنت تتذكرين اختراعاته العبقرية وقيامه بدور المعالج الجبار أو المهندس السابق لعمره، فأنا أتذكر أكثر ساعات اللعب واللهو والضحك، أتذكر تقافؤنا على العشب سويا وجرينا مع كلبنا وحصادنا لمحصول حداثنا المتواضع ونحن نتغنى بالأغاني ونصفق بالأيدي.. أهفو لسويغات لعبة التخفي ولعبة التشابك، لا أنسى ربط الكرة بشعري أو شعرك وترك (إيمحوتب) والأطفال يركضون خلفنا محاولين استخلاصها من بين الجداول.. أذكر كل هذا وأراه بعيني كلوحات طبيعية متجسدة فوق رأسي يوميا قبل الخلود للنوم.. أذرف الدمع كما تفعلين، ولكن ما ذنبي أن دموعي تأبى النزول إلا وحدي وعلى فراشي؟ أو هنا ببيت الشتاء والصيف الذي أنام به أغلب الليالي وحدي منذ

رحيله.. أشتاق إليه أضعاف ما تشتاقين إليه، وأصبو لدقيقة معه نعدو جميعا حول البركة الجافة، يقوم بالتظاهر بالتعب والسقوط فيها جمه أشقائي الصغار ويتسلقون جسده وكأنه هضبة فيضطر للتسليم والعودة للركض.. ولكن ما باليد حيلة، ولن يفيد ما تقومين بفعله إلا بتأجيج النيران بدلا من إخمادها، أو على الأقل التظاهر بعدم رؤيتها.. أنا اشعر بالنار ولكني أتظاهر بأنها ليست هنا.. بأنها نار شخص آخر.. هذا أفضل بكثير من الاستسلام لها والاكتواء بنارها حتى الاحتراق..)

كعاداتها، لم تنطق (نينيت) بأي مما جال بفكرها، واكتفت بهز كتفيها ببرود وهي تغغم:

- أشتاق إليه ولا أشتاق إليه في ذات اللحظة.. لقد بدأ لتوه يتسلق أولى درجات سلم نجاحه وهذا يسعدني بأكثر من رؤيته مجرد شاب يلعب ويتدحرج على العشب مع أشقائه.. أعتقد أنه سيمضي قدما يترقى المناصب والمنازل بسرعة خرافية ولن يرضى أبدا بأقل من منزلة الآلهة مكانا في النهاية..

لم تكن (نونيا) قد اكتفت من إطلاق كل ما بداخلها من طاقة سلبية، وزادها رد (نينيت) عصبية فاحتقن وجهها بالدماء، وبدا واضحا أنها ستعيد الانفعال من جديد من

الصفير كسيل عرمرم يبدأ بزخات واهية تنقلب لفيضانات مهلكة في لمح البصر، ولكن لطمتهما صرخة أمهما آتية من الداخل، صرخة تموج بكل زعر الدنيا.. وهكذا ابتلعت (نونيا) لسانها وهبت منتفضة لتقوم، لحقتها (نينيت) لتعدو كلاهما نحو البيت متوقعة الأسوأ..

كانت الشمس قد صارت مجرد كتلة برتقالية اللون لا تضيء الموجودات بما يكفي، والشفق يتسلل إيذانا بقدوم الليل الحالك، لذا تعثرت (نونيا) مرة فالتقطتها (نينيت) وأعادتها على قدميها، أرادت (نونيا) أن تشكرها ولكن اختنق حلقها بأنفاسها المتسارعة اللاهثة من شدة المجهود المبالغت ومن الانفعال أيضا.. لم يكن لدى (نينيت) أية تخمينات، ولكنها ظنت أن أمهما كعادتها تفزع من أقل شيء، ولن تتعجب إن كان سبب هذه الصرخة هو مجرد فأر أليف كان يعدو أمامها.. بينما كانت تخمينات (نونيا) كلها تدور في فلك واحد لا غير، يشبه يقين أنه سبب صرخة الأم لا غير.. شقيقهم الأصغر ذو العامين (نارمر) والذي تم تسميته تيمنًا باسم الملك الأول الأعظم وموحد البلاد والقطرين..

كان المشهد كارثيا بداخل المنزل.. أكثر بكثير مما توقعه أي منهما..

كانت (نونيا) تعلم أن (نارمر) مريض، رآته وقد أصبح

خاملا منذ يومين بشكل واضح، فلما سألت أمها قالت إنها حمى بسيطة، دائما تأتي الحمى والحمول بأول ساعات الليل وقبل خلودهما للنوم، بالطبع نامت (نينيت) آخر بضعة ليال بيت الشتاء والصيف الخارجي فلم تعلم شيء عن هذا، ولم يتم التطرق إليه لاحقا اثناء النهار، ولكن الآن بدا الوضع كارثيا بحق.. الطفل (نارمر) لا يتحرك.. عيناه جاحظتان تنظران للسقف ببلادة.. ولولا بقية أنفاس متباعدة ترفع صدره لظن الجميع أنه قد توفي.. الطفح الأحمر يغزو وجهه وأطرافه وكأن اللون الأحمر يريد أن يحل محل لون جلده الطبيعي المائل لون القمح.. بينما تكومت بجانب جسده بركة صغيرة صفراء من القيء كانت رائحتها الكريهة نفاذة.. شهقت (نونيا) وهي تلطم وجهها بيديها، بينما تماكنت (نينيت) نفسها رغم زعرها وسارعت لتقوم برفع جسد أخيها، ولكنها تراجعت بمجرد أن لمست جلده بفزع وصاحت:

- إن جسده حار.. ليس حار فقط إنه يغلي! سيذوب مخه هكذا..

ولما رأت أمها وشقيقتها يكتفیان بالنظر بفزع جمد أطرافهما، وباقي أشقائها يصرخون ويبكون بدون فهم لما يحدث، اتجهت نحو (نونيا) وقالت لها وهي تقرصها بغلظة في ساعدها:

- أفيقي أيتها العاطفية.. (نارمر) يحتاج لكمادات الماء البارد.. لا انتظري إنه يحتاج لأكثر من هذا.. يحتاج لسكب الماء البارد.. هيا تحركي واجلبي قِذْرًا مملوءة بالماء..

لم يبدو على (نونيا) أنها قد سمعتها بادئ ذي بدء، ثم انتفضت فجأة في رد فعل متأخر للغاية، وكررت بعينين متسعيتين:

- ماء.. سيحتاج ماء..

أفاقت أمهم من صدمتها وهي تحقق برضيعها محاولة أن تحرك شفيتها لتقول شيء ما، وبعد معاناة تحرك لسانها واهتزت أحبالها الصوتية ليخرج صوتها قائلة بإيجاز:

- نحتاج ل (إيمحوتب).. (نارمر) يموت!

الفصل الثامن

أمسك (إيمحوتب) بعدة أوراق بردي مثبتة بالطول الواحدة فوق الأخرى، مما جعلها تبلغ طول عدة أقدام ناهز طوله هو، كانت هذه هي الطريقة المعتادة لضم الصفحات معا وتكوين كتاب، وقام بتقريبها من وجه المهندس الأكبر وهو يقول له سائلا:

- ما رأيك في هذه المعادلات؟

ألقي كبير المهندسين نظرة فاحصة على الدوائر والمربعات والمستطيلات التي تناثرت على سطح البردي، وخطوط أفقية ورأسية عديدة تخرقها، لم تبدو نظراته مركزة بشكل كاف وإنما كان يأخذ فكرة سريعة عن مضمون هذه المعادلات، ثم هز رأسه وهو يغمغم ماسحا حبات عرق نبتت على جبينه:

- هذا جيد.. جيد وجديد.. لا تضيع أنت وقتك أيها الفتى.. لقد اعتقدت أن الشهر الذي قضيته بالمعبد أوقف تفكيرك المعماري..

قال (إيمحوتب) بلهجة ذات معنى:

- حلمي وولائي وكل ما أملك للمعمار أولا وأخيرًا..

اتسعت ابتسامة كبير المهندسين وهو يربت على كتفه
بحنو قائلاً:

- ولكنك أحرزت صيتاً في خلال أيام قصيرة لم يحققه
الكثير في حياة كاملة.. لقد أحبك العمال واحترمك الكهنة..
هذه معادلة أصعب بكثير مما خطته أصابعك بهذه البردية..
لقد صاروا يلقبونك في المعبد بالوزير.. لا أعتقد أن هناك من
تلقب بهذا اللقب من قبل..

- الألقاب لا تهمني..

- أعني هذا جيداً.. لا تبحث عن الشهرة أو النفوذ، ولهذا
سيأتيان خلفك زحفاً طوعاً أو كرهاً..

ثم هز رأسه وهو ينظر حوله، العمال يقومون بسحب
عينات من التربة من عدة أماكن ومختلف الطبقات بناءً على
رغبة -أو أوامر- (إيمحوتب)، مجموعة كبيرة تبلغ العشرين
عاملاً لا يكفون عن العمل، بينما قام خمسة من الزنوج بحمل
ما يشبه الخيمة الكتانية فوق رؤوس الرجلين بواسطة
أعمدة من البوص، لتقيهما نار النهار، إنها معاملة تليق حقاً
بأحد أفراد العائلة الملكية لا أقل..

سأل كبير المهندسين:

- لماذا (سقارة)؟

- لي أسبابي الخاصة ولكنها تركز على مشاهدات وتجارب طويلة..

- لا تقوم بشيء اعتمادا على الحظ.. كلي يقين من هذا..

ثم أضاف شاردا:

- وكذلك الملك.. إنه يعتمد على هذا..

ثم قال:

- أنت تعلم أن جميع المنازل والمعابد تبنى بالطابوق النيء (الطوب اللبن)، كثير من الطين وقليل من الرمل أو التبن لجعله متماسكا، يتم وضعه بقوالب خشبية ثم يجفف تحت الشمس.. صناعة بسيطة للغاية وفعالة.. ولكنها - من وجهة نظر إلها (زوسر) - لا تكفي للصمود للأبد.. يريد شيئا آخر.. شيئا ضخما.. مبهرا.. أبديا.. مذهلا.. شيء يجعل الألسنة تذكر اسمه حتى نهاية الحياة بهذا العالم..

- أعتقد أنني أملك ما يريد..

رمقه كبير المهندسين بانبهار وهو يقول:

- الحجر.. مبنى رهيب شامخ من الحجر..

- هذا هو.. الحجر..

طاف عليهما زوج من العمال بالجعة الباردة فشعرا بأنها أتت في وقتها حقا، وبينما كان (إيمحوتب) يرتشف الجعة بنهم فيزداد تعرقه لحظيا، بينما قرب كبير المهندسين الحافة الفخارية لشفتيه بدون أن يسكب بجوفه أي شيء، ثم باعدها مرة أخرى وهو يسأل (إيمحوتب) بفضول بالغ:

- ولكن كيف؟

أجابه ببساطة:

- سأبني مصطبة حجرية تكون لملكنا مدفنا بالأرض وطريقا ومعراجا للعالم الآخر بالسماء..

كانت المصاطب هي قبور خاصة للملوك القدماء، وكانت حتى عهد الملك (زوسر) تُبنى بالآجر وتغطي فقط بطبقة من الحجر الجيري، تتكون من جزئين مستقلين، حجرة الدفن السفلية ومقصورة علوية، تقع حجرة الدفن عند قاع بئر رأسي يحتوي على تابوت حجري وبعض من الأثاث الجنائزي الخاص بالحياة الأخرى، يتم دفن الملك أولا ثم يتم بناء حوائط هذه الحجرة قبل أن يتم ردم البئر بالحجارة والتراب.. بينما تتكون المقصورة -وهي الجزء البارز فوق سطح الأرض والمائل للعين- من كومة من مواد البناء على شكل متوازي مستطيلات بحوائط حجرية مائلة قليلا، وهي التي تقام بها الطقوس الجنائزية وتعج بالغرف والممرات،

ويتصل كلا من غرفة الدفن والمقصورة من خلال باب وهمي
يتم إغلاقه بتمائيل عديدة..

ولكنها لم تكن بالبناء الجديد وهو ما تعجب بسببه رئيس
المهندسين قليلا فقال بتشكك:

- أغلب المقابر القديمة الملكية الفخمة ذات المصطبة تكون
مغطاة فقط بالحجر الجيري.. هل تريد أن تكون المصطبة
مبنية من الحجر نفسه؟

وكان السؤال فيه تشكيك - لا إرادي - في إمكانية الخروج
ببناء إعجازي من هذا، فحتى إن نجح (إيمحوتب) في جعل
المصطبة الملكية بالكامل من الحجر - وهذا استثنائي ولم
يحدث من قبل - ولكنه لا يرقى لأن يوصف بالمعجزة..

قال (إيمحوتب) بنفس البساطة وهو يكاد ينهي جعته:

- هذا إن كانت مصطبة واحدة!

شعر كبير المهندسين بدهشة تمتزج قليلا بعدم الفهم،
فسأله وهو يخفض كوب جعته الذي لم يمسه من استغراقه
في الحديث:

- لا أفهمك!

انحنى (إيمحوتب) وقام بالجلوس القرفصاء أرضا، ثم

محا براحتي يديه الرمال ليجعلها صفحة رائقة تصلح كلوح رسم، ثم توثبت أصابعه لتقوم بالرسم بالتزامن مع كلماته الحماسية:

- لن تكون مصطبة واحدة.. ستكون عدة مصاطب..
الواحدة فوق الأخرى.. مصاطب عدة تعلو بعضها بعضا،
ويصغر حجم ما يعلو منها عما يسبقها، سيأخذ شكلها
الخارجي شكل الهرم..

ردد كبير المهندسين مبهورا:

- هرم؟

- نعم.. هرم مدرج.. أو مصاطب متراكبة.. سيبلغ ارتفاعها
السماء وستعيش أبد الدهر لتخلد اسم إلها (زوسر)..

(وتخلد اسمك أيضا أيها الفتى!)

فكر في هذا ولم يجاهر به..

- كما سيكون هناك تجديد في مجموعة المباني الجنائزية
والمعبد الملحقة بهذا الهرم، سأقوم ببناء أنصاف أعمدة
حجرية متصلة بالجدران تكون على هيئة سيقان البردي،
أعمدة متراصة بجانب بعضها البعض كسيقان البردي..

لم يسمعه كبير المهندسين جيدا، ما زالت مخيلته تحاول

وضع صورة مبدئية لهذه المصاطب المتعددة المترابطة والواصلة لعنان السماء، مشدوها لمجرد الفكرة ذاتها، ولكنه لم يلبث أن قَطَّب بهمَّ واضح وهو يقول محولا أفكاره لكلمات منطوقة:

- أيها الفتى.. بناء بهذا الارتفاع الاستثنائي سيحتاج لقطع ونحت أعداد لا يمكن تخيلها من الكتل الحجرية، أعداد لا يمكن إحصاؤها ولا عدّها، ناهيك عن عدد الرجال اللازم لنقل هذه الأحجار من المناجم البعيدة لمنطقة البناء هنا، عدد الرجال سيناهز عدد كل العاملين بالبلاد من أقصاها لأدناها، وهذا لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع بالإضافة لعدم عقلانيته، كما لا يمكنك تجاهل القوة التي يتطلبها الأمر من العمال لسحب الصخور الثقيلة، بالإضافة للسلام التي سيتطلبها الأمر، هذا جنوني.. لا أريد إحباطك عزيزي (إيمحوتب) ولكن ما تفكر فيه خيالي لدرجة عظيمة.. إنه حلم.. الطريق الذي سنحتاج لتشيينه لنقل الأحجار فقط سيستخدم مواد وطاقات أضعاف ما سيستخدمه بناء المقبرة نفسها.. كما أنني لا أظن حقا أنه يمكن لمساحة صغيرة أن تستوعب كل هذا العمل المعقد.. ستتزاحم أكتاف الرجال ويتصادمون باستمرار ويعيق وجود بعضهم البعض.. صمت رئيس المهندسين ينتظر الرد من (إيمحوتب)، كان

على يقين أن (إيمحوتب) ليس ساذجا لدرجة أن تفوته كل هذه المعوقات التي ذكرها الآن، هو فقط قام بالجهر بها، ولكن ما فاجأه هو استغراق (إيمحوتب) في التفكير وكأنه اكتشف لتوه كل هذه الأمور البديهية، بديهية كمهندس على الأقل.. وللحظات اهتزت ثقته في الفتى الجديد، ولكن تلك اللعة في عينيه جعلته يثق أن هناك ما يدور بخلد الفتى مما لا يمكن الإلمام به، فاكتمى بصرف النظر عنه ومتابعة حركة العمال الدؤوب تحت أشعة الشمس التي صارت متوسطة الشدة الآن وهي تميل نحو الغروب.. وبدأ يشعر بالفعل أنه لم يعد يتعرق كما كان بأول لحظات منذ قليل..

(أعرف أنني يجب أن أجد طريقة أبسط وأكثر منطقية للبناء.. مع قوة عمل أقل وجهد منطقي لا إعجاز فيه..)

التفت كبير المهندسين ل (إيمحوتب) ولم يعلق، بدا الفتى منجذبا لعالم آخر بنظراته الشاردة، عالم لا يوجد إلا في خياله فقط وهو يضيف:

- هذا الإنجاز سيجعل منا أمة عظيمة، وسيجعل اسم الملك (زوسر) خالدا.. ربما سيفوق مجد الملك العظيم (نارمر)..

بلل رئيس المهندسين شفته السفلى بلسانه، لقد جف ريقه من التفكير وليس من القيظ إذ صار الجو معتدلا بالفعل، وقال بلهجة فيها خشوع عظيم:

- ربما عليك أن تتوصل للإله (خنوم) بقوته الخارقة الإعجازية ليحول طاقته لمادة تسهل تشكيل الأشياء..

رأى (إيمحوتب) في خياله شكلا متجسدا لكيان أزرق أشبه بالإنسان جسدا باستثناء رأسه التي كانت رأس كبش، هيئة الإله (خنوم)، ولكنه سخط على نفسه لتتبدد الصورة من تلقاء نفسها من خياله.. الآن وبعد أن قطعت كل هذا الشوط بالاعتماد على تجاربي ونظرياتي سألجأ للآلهة الخيالية التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟!!

زاد شعور كبير المهندسين بجفاف حلقه فطلب ماءً باردًا من أحد الزوجين الرابضين حولهما، وقال محاولا تلطيف جو العصف الذهني المسيطر على الوضع الحالي وهو يزدرد الماء:

- للتفكير العنيف تأثيره على الجسد بما يفوق تأثير الطبيعة نفسها.. أشعر وكأن ماء البحر كله لا يكفي لبلّ ريقى..

ضرب (إيمحوتب) جبهته براحة يمينه وكأنه يعاقب نفسه على شططه اللحظي، نظر كبير المهندسين نحوه بدهشة وكاد يفلت قدح الماء الفخاري من بين أصابعه، ولكن لم يكن (إيمحوتب) يشعر بوجوده وهو يخلع الجزء العلوي من إزاره الكتاني تاركا فقط الحلية المقوسة الملتفة حول عنقه،

ثم انتزع الحلية -أمام أعين كبير المهندسين الذاهلين- وترك أصابعه تتبعد لتسقطها أرضا بجانبه، وضربت ريح خفيفة الجزء السفلي من إزاره فجعلته يرفرف للحظات فوق ركبتيه، لم يعد يرتدي سوى الجزء السفلي هذا وغطاء الرأس الفخم، فخلع جمة الشعر المستعار وقذفها بعيدا، وكأن وجودها كان يثقل رأسه ويعيق دماغه عن التفكير بحرية.. كان يلبس تماما ككاهن وهذا ما ألمّ بذهنه فجأة.. ولن يفلح إن فكر كأحد الكهنة، عليه أن يكون مهندسا فقط لا أكثر.. أو على الأقل شخصا عاديا عاري الجذع..

انحنى ببطء ساهما في الأرض الترابية الصفراء الجافة وكلمات كبير المهندسين الأخيرة تدق ناقوسا منسيا بخلفية ذهنه.. ماء البحر.. ماء البحر.. راقبه كبير المهندسين بقلق بادئ ذي بدء، ثم استحال قلقه اهتماما وفضولا وهو يتابع أصابع (إيمحوتب) تندس بين ذرات التراب وتقبض عليها وكأنها تود الاحتفاظ بكل ذرة منها، قبل أن تتراخى وتتركها تنساب من بين الأصابع كشالات صغيرة من حبات من ذهب.. يكمن حل هذه الأحجية في نسخ وتسريع العملية التي تستخدمها الطبيعة بأعماق البحار عندما تقوم بترسيخ بقايا الكائنات الحية البحرية والطين في صخور الحجر الجيري الصلب..

تحرك (إيمحوتب) كالمسحور تاركا الخيمة الكتانية الحامية هائما على وجهه بدون أن ينطق، تبعه كبير المهندسين بدون كلام وإحساس داخلي يموج بكيانه يقول له إن شيئا جللا على وشك الحدوث هنا.. معجزة إلهية سكبتها السماء بعقل هذا الفتى الجبار الصامت.. انحنى (إيمحوتب) عدة مرات يلتقط حجرا صغيرا أو صخرة ويعيدها للأرض ثانية أو يقوم بضرب جبهته بها ضربا رقيقا غير مؤلم.. يوجد هنا ب(سقارة) نوعان مختلفان من الحجر الجيري، تشكّل كل منهما عندما غُمِرَت البلاد تحت البحر، النوع الأول هو الحجر الجيري الصلب، الثاني حجر ناعم نصفه صلب ويمكن فصله بسهولة جدا، كما يتحول لطين موحل عند تجفيفه بالماء.. ننظر للأمر بالعكس.. كما لو كان بإمكاننا التحكم بالزمن والعودة من الحاضر للماضي، هل يمكن التوصل لمادة يمكن إضافتها لهذا الطين الموحل ليعود مرة أخرى لحجر جيري شديد الصلابة؟ بشكل أكثر بساطة هل يمكن تحويل النوع الثاني المرن للنوع الأول الصلب؟ سيتمكن حينها من تشكيل عدد لا نهائي من كتل الحجر الجيري الصلب بدون الحاجة لنقله من أقصى البلاد.. لن نحتاج حتى لبذل مجهود جبار في قطع ونحت الصخور شديدة الصلابة.. يريد طريقة سحرية يتمكن بها من القيام بعملية تصلب للحجر الجيري الناعم، حينها سيتمكن من نقل المواد والسلال وصب الكتل المراد

قولبتها بداخلها.. يقوم بصبّ الحجر الناعم في قالب ثم يضيف عليه المادة السحرية فيتحول لقالب حجري صلب يمكن استخدامه كوحدة لبناء ذلك الهرم الخرافي.. سيصبح العمل بسيطاً جداً ولن يتطلب عدداً مهولاً من العمال أو جهداً غير منطقي..

توقف (إيمحوتب) عن الحركة والتفت لكبير المهندسين وكأنه يراه للمرة الأولى في حياته، تجاوز الأخير هذا التصرف الغريب من (إيمحوتب) برمته وهو يسأله باهتمام:

- أراك تفكر في شيء غير تقليدي؟ هل وجدت حل هذه الاحجية؟ أحجية الهرم الخرافي؟

امتنع (إيمحوتب) عن الرد بشكل مباشر، وقال له وهو يمسح عرقاً وهمياً من فوق رأسه الحليق:

- سيحتاج الأمر لاعتكاف قد يطول أمدّه؟

سأله بدهشة:

- تعتكف هنا؟

أجابه بتصميم:

- لا.. أحتاج للاعتكاف بالمعبد.. بقسم المواد الطبيعية التجريبية الداخلي.. وسأحتاج معي لفريق من أبرع

المهندسين والعمال.. الوقت لا يجري في صالحنا..

وجد كبير المهندسين نفسه يبتسم رغما عنه، الفتى الذي
خطأ أول العشرينيات لتوه يقول إن الوقت ليس في صالحه،
يا له من طموح؟!

كان الجو قد أظلم، فبدأ الزوج في دق الأوتاد التي
ستصير عمداً مؤقتة، وجريد النخل الذي سيصير سقفاً
ليليا، في تحضير غرفتين سيئات فيها كلا الرجلين الكبار،
تمهيدا لعودتهما المحتملة للقصر اليوم الثاني إن لم يقم
أحدهما بتغيير رأيه ومدّ فترة العمل وأخذ العينات، شارفت
أعمال الرجال على الانتهاء لهذا اليوم بعد أن صارت الإضاءة
غير كافية للعمل بشكل مثمر مع هبوط الشمس نحو المغرب
وتلؤن الأفق بمسحة أرجوانية متألقة، ولكن فوجئ الجميع
برجل يأتي من جهة النيل يصرخ بأعلى صوته وكأن شياطين
العالم السفلي كلها تلاحقه.. لا يكف عن الهتاف بصوت
مبحوح أيها الوزير (إيمحوتب).. أمر جلال قد حدث..

الفصل التاسع

كان هناك حلم واحد - أو قل كابوسا- يزور (إيمحوتب) باستمرار منذ سنين، ربما منذ بلوغه سن الحلم، كان ينأى عنه أياما وأحيانا شهورا ولكنه لا ينقطع عنه أبدا، لم يكن حلما بل كان كابوسا مقيما، يستيقظ منه منتفضا متعرقا مصابا بهلع لم ينتابه في حياته الواعية أبدا من قبل، ولا يظن أن مثله سيصيبه يوما ما.. يرى نفسه يسير على أرض (منف) بدون أن تتحرك قدماه.. يندفع للأمام وكأنه يطفو فوق التراب.. يحوم فوق الماء.. يهبط قليلا لتلامس أطراف أصابع قدميه الماء فتبتل قبل أن يعاود سيرته الأولى فيكمل رحلة طيرانه.. يطوف حول قصر الملك.. فوق المعبد الرئيسي ل(منف) -والذي لم يكن حينها قد سمي باسمه -معبد (إيمحوتب).. يحلق بين البيوت فوق رؤوس العمال.. الجو صحو هادئ معتدل لا تشوبه شائبة قيظ أو صقيع.. جو هادئ -نفسيا- أكسبه سكينة واطمئنان طفل صغير.. غمرته سعادة من نجاح في تجاوز رحلته للحياة الأخرى بنجاح وثقل ميزان قلبه.. ثم ينقلب كل هذا للنقيض في لحظات..

سحب سوداء ملبدة متراكمة تأتي من الأفق فتسد عين الشمس.. تتكاثر بسرعة كالهشيم لتتحول (منف) كلها لليل كالح السواد.. ليل سواده مقبض للقلب قبل أن يعمي العين..

وهنا يشعر بقلق خفي على أهله.. يقين ينتابه بأن شرا مستطيرا قد نالهم وقضى عليهم.. ينطلق -محلًا كصقر جارح- قاصدا البيت الذي ولد وترعرع فيه بين أبيه وأمه وأشقائه أجمعين.. تحاول السحب السوداء أن تسبقه فيقبض جميع عضلات جسده وكأن حياتهم تعتمد على أن يصلهم أولا قبل هذه السحب الخبيثة، التي تبدو كنذير شؤم وسقم.. لما لمح الحديقة التي خطتها يوما ما ويتوسطها بيت الشتاء والصيف خفف من سرعته، لم يكن يفكر في كيفية طيرانه وتحكمه في سرعته ولكن بدا الأمر وكأنه شيء بديهي قد ولد به، شيء بديهي وفطري كتناول الطعام، لا تفكر أبداً وأنت تلتهم الطعام فتلوكه قبل أن تطحنه بأسنانك ثم تمرره لجوفك عبر حلقك، وهنا سبقته الغيوم السوداء مع توقفه وقامت بالهجوم على البيت وكأنها تلتهمه.. أحاطت به في لحظة ثم تغلغت بين نوافذه كدخان ملأه عن آخره.. وقبل أن يستطيع أن يلج للبيت اهتزت جدرانه المشيدة من الآجر بقوة، وخيل إليه أنه يسمع صوت قضم وطحن، لم يفكر إلا في شيء واحد بعث في بدنه الرعب.. تلك السحب تلتهم البيت -بمن فيه- التهاما لا يبقى ولا يذر.. شعر بخدر يسري بجسده شاعرا بمرارة الفشل والإحباط، شاعرا بأنه لم يكن قويا بما يكفي، لم يكن سريعا بما يكفي ليمنع السحب من تنفيذ مخططها القاتل.. وأمام عينيه الدامعتين خرجت

أجساد أهله جميعا تثرى.. أبيه ثم أمه ثم (نونيا) ثم (نينيت)،
اشتركوا كلهم في لون بشرتهم شديد السواد، المحترق، وخلو
محجري عيني كل منهم من عيون، وخلو أفواههم المشدوكة
المفتوحة من الأسنان.. كانت أجسادهم تسير كالسكارى
متطوكة ذات اليمين وذات الشمال، بلا عيون وبلا أسنان..
بلا روح تقريبا.. وخلفهم تدحرجت أجساد أشقائه الذكور
الخمس الصغار كما تتدحرج جذوع النخيل التي اجتثت
من جذورها فصارت بلا حول ولا قوة.. تتدحرج وكأن قدما
عملاقة شريرة ركلتهم بمنتهى القوة والقسوة ككرات من
قماش مذي.. شعر بقبضة باردة تضغط على صدره وهو
يرى أهله سائرين كالجثث يهيمون حوله، طائفين، وقبل أن
تنفرج شفتاه باعتذار عن تقصيره فوجئ بالسحاب يخرج
من باب البيت وقد تجمع في قمع شديد السواد، يلتف حول
نفسه بجنون، يميل لأحد الجانبين وهو يكتسب سرعة أكثر
فتضيق قاعدته أكثر وتزداد قمته ضيقا.. كل هذا في صمت
تام غير منطقي جعله يفكر لوهلة في إصابته بصمم تام عزله
عن العالم.. تجمدت الكلمات على شفتيه، وقبل أن يأتي بأية
ردة فعل انقض الإعصار الشرير عليه مباشرة، لاطما في
مساره أجساد أهله لتتفتت في جزء من اللحظة متحولة
لرماد انضم للإعصار على الفور ليزيده حجما، ثم وصله
الإعصار المتنامي أخيرا، فيجد نفسه يقوم من على فراشه

هلعا، وعيناه تراقب برعب بقايا دخان أسود تنسحب من نافذة غرفته لتفر بسرعة تعجز البصر..

وجد نفسه يتذكر الكابوس بتفاصيله وهو يعدو هلعا متجها نحو القارب الملكي الذي جاء به ل(سقارة) أول النهار، والذي كان من المفترض أن يعود به اليوم التالي لقصر الملك كما جاء به، إذ كان من المقرر أن يسهر ليلته بموقع العمل المبدئي الذي اختاره، هو وكبير المهندسين وجميع العمال، والاستمرار في الإقامة والتخيم قدر ما يريدانه من أيام وليالي.. ولكن جاءه الرسول الغامض برسالة طارئة تحمل بضع كلمات جمدت الدم بعروقه، قال له الرسول إن أمه أرسلت تبحث عنه منذ ما يقارب الساعتين، وأن أخيه الأصغر على بُعد خطوة من باب العالم الآخر، ولكنها تعتقد أنه مُقَدَّر له الحياة إن استطاع (إيمحوتب) الوصول إليه قبل أن يخفق الموت بجناحيه فوق رأسه وينتزع روحه من جسده.. كانت أمه تؤمن بقدرته على الشفاء لأبعد الحدود.. تؤمن بقدرته على محاربة المرض والتغلب عليه.. قدرته على التغلب على الموت..

عندما تنظر للمشهد من منظور علوي سماوي ستري كمًا مذهلا من الانفعالات لم يتجمع بالمعبد -معبد (بتاح)- من

قبل قَطّ.. بالردهة الأولى التي تلي بوابة المعبد، كان الطفل (نارمر) يستقر بحضن أمه كدمية مطاطة من الكتان، غارقًا في سوائله الخاصة من عرق وقيء، وعلى ضوء المشاعل المتوهجة المتراقص -التي ضاعف عمال المعبد من عددها بناءً على رغبة الكهنة- برز وجه الأم كتلة متجسدة للقهر الإنساني، بوجه ملطخ بالطين والدموع، لم تهتم بوضع غطاء رأسها ذا الشعر المستعار فتساقط شعر رأسها الأصلي متهدلاً كجدائل التصقت بجبهتها وعنقها بتأثير العرق، كانت تتحرك بجذعها العلوي يميناً ويساراً بعينين زجاجيتين وهي لا تكف عن التردد: «(إيمحوتب).. ابني (إيمحوتب).. الفتى مريض».. بينما وقفت الشقيقتان (نونيا) و(نينيت) ملتصقتان ببعضهما البعض من الخصر ليكونا جسداً واحداً وعاطفة واحدة، ويأس واحد.. لا تكف أعينهما عن ذرف الدموع بلا توقف.. يقف خلفهما الأب يحاول السيطرة على قطيع أولاده الأطفال، الذين لم يكف أحدهم عن الصياح وركل الأرض -أو ركل أحد أشقائه- بقدميه في زعر طفولي وَلَدَه عدم الفهم لما يحدث.. تحمق الكهنة في حلقة واسعة حول الأم المكلومة وطفلها ولكن بدون أن يجروا أحدهم على الاقتراب منها، فما زال الموقف ماثلاً أمامهم عندما تطوع زوج من الكهنة المرتلين وحاولا أخذ الطفل منها، لترديد الأدعية والتعاويذ الشافية، حينها انطلقت من بين شفثيها

زمجرة مخيفة جعلتها أشبه بتجسيد حي -ومخيف- لسيدة الأراضين (سيخميت)، اللبؤء المحاربة.. وخمشت بأظافرها الأذرع التي امتدت لتلمس طفلها، وهي تصيح بملء فيها (لا أريد سحرا، أريد علاجا حقيقيا، أريد (إيمحوتب)!) صمت الجميع في رهبة، تتمم كاهن حديث العهد بالمعبد بصوت خفيض (هذه هرطقة.. إنه كفر مبین..) ولكن أسكته كاهن آخر بحكمة، مغمغما في أذنه (لا تلوم أمّا على وشك فقدان قرة عينها، كما أنها أم الوزير والحكيم (إيمحوتب)، لابد أنه آتٍ وسيتصرف، ولكن لهذه المرأة في قلوبنا من المهابة ما يماثل مهابة السيد (إيمحوتب) في قلوبنا.. علينا فقط أن نتبرأ من هرطقتها أمام السماء..) أوما الكاهن الأول برأسه موافقا إياه، وغمغم بصوت منخفض بمنتهى الخشوع (يا مَنْ تُسَعِدُ الْبَشَرَ، الْقَادِمِ مِنْ (سَائِس)، أَنَا لَمْ أَلْعَنْ أَيَّ إِلَهٍ..)

رفعت الأم عقيرتها للأعلى كذئب جامح وأطلقت صيحة هائلة مزلزلة انكسرت في آخرها بفعل نوبة بكاء جديدة داهمتها.. اقشعر بدن الجميع، أغمض الأب عينيه محاولا طرد هذا الموقف من ذاكرته ومحوه للأبد، بينما تهاوت (نونيا) لتسقط فتلقفتها ذراعا (نينيت) بذعر وهي تهزها محاولة التيقن من درجة وعيها.. والتقطت أنوف الجميع رائحة كريهة غير مادية هوت عليهم ولطمت حواسهم بدون تفرقة.. رائحة الموت.. كان هذا عندما التقطت الآذان أصوات جلبة

موكب عظيم قادم.. وتناقلت الألسن بهمهمات فيها شيء من الأمل أن (إيمحوتب) قد وصل أخيرا بمجرد أن وصله الخبر الجسيم..

كان (إيمحوتب) أول من دخل ردهة المعبد، وطأت قدماه الحافيتان الردهة قبل أي ممن رافقه في الموكب، انقسم له الحشد ليسهل مروره السريع نحو قلب الردهة حيث أمه تحتضن ابنها وتمنع أي كان من لمسه، عبر (إيمحوتب) عبر صفين من البشر - كان منهم أبوه وأشقائه الذكور والأنثيين - بدون أن يلاحظ أو يهتم، وتعلقت عينه ب(نارمر)، فأنحنى على ركبتيه ليواجه وجهه مستوى أخيه، نقلت الأم نظراتها لتركز على وجه (إيمحوتب)، ابنها الغائب منذ شهور، وبرقت عيناها بلهفة وأمل للمرة الأولى منذ مرض الطفل وهي تندفع لتقول بسرعة وبدون ترتيب وهي تدفع ب(نارمر) ليدي (إيمحوتب):

- إنه محموم.. هكذا منذ الأمس.. ولكن زادت حدة الحرارة منذ ساعات.. إنه لا ينطق.. لا يتحرك إلا في رجفات.. إنه.. حبيبي ووليدي، إنه يتشنج أحيانا.. تنقلب عيناها للأعلى وتصيرا مجرد كرتين من اللون الأبيض.. لقد أسميناه (نارمر).. سيصير عظيما مهابا.. سيعيش فقط إن عالجته يا بني.. أنت الطبيب وأنت الحكيم.. أفرغ عليه من علمك

وخبرتك واجلب لبدنه الشفاء من السقم الذي نال منه ودعك
من هراء الكهنة والآلهة..

التقط (إيمحوتب) شقيقه من بين يديها وهي تستكمل وقد
تضاعف سيل الدموع من عينيها ليغرق وجنتيها ويتقاطر
على الأرض: لم أهمل فيه.. لم أدخر جهدا في إطعامه ولكنه
رفض إدخال أي طعام لجوفه.. لم أتوقف عن تكميد حرارته
بلفائف الكتان.. ولكن هذا المرض قاسي ولم أرى له مثيلا من
قبل..

(ولكني رأيت يا أماه.. رأيت هذا المرض القاتل عدة مرات..
إن عنقه متصلب بين أصابع يدي، أحاول ثنيه فيقاومني..
كان يقاومني للحظات قبل أن تنتهي مقاومته وتستسلم
عضلات عنقه لدفع يدي استسلاما نهائيا وأبديا.. إن
العطب بدماعه، وإنه عطب لا يمكن شفاؤه.. لا أدري كيف
أستطيع أن أخبرك بأنني عاجز الآن؟ بأنني لا أستطيع فعل
المعجزات؟ بأنني مجرد رجل ذكي لديه طموح لا أكثر؟
تريدين إلها حقيقيا وأنا لست إلا ببشر..)

قال (إيمحوتب) كلماته السابقة سراً ولم يجرؤ على الجهر
بها في وجه أمه المكلومة، بل على النقيض وأمام الأعين كلها
رفع رأسه لسقف المعبد، للسماء، وضم شفتيه بقوة وحاول
كبح دموعه ليخرج صوته قويا متماسكا، يقول بنغمة أشبه

بالتراويل طالبا الشفاء من آلهة المعبد (بتاح) و(سيخميت)
-رغم يقينه أنها لا تضر ولا تنفع، ورغم يقينه الأكبر أن
شقيقه قد فارق الحياة بالفعل- ولكنه لم يرد أن يفعل ما
يشينه طيلة ما بقى من عمره، ما قد يقضي على منصبه
وأحلامه وطموحاته التي تسلق للتو درجة سلمها الأولى
فقط، سيتقرب للآلهة أمام هذا الجمع الغفير دفاعا عن المعبد
والكهنة، ودفاعا عن أمه بالمقام الأول من التهم الرهيبة
التي قد تنالها جراء مجاهرتها بالمعصية الكبرى وسب الآلهة،
وهو يعلم أنه قد قُضي الأمر بالفعل ولا رادّ لقضاء القدر بعد
الموت:

التهليل لك

يا صاحب الصوت القوي الذي لا يراه أحد
صاحب المجد العظيم والهيبة الرفيعة
(بتاح) إله الكلمة الإله العائل الذي تتحقق أوامره
أنت الوحيد الأحد الوحيد الأحد
ومن كلماته تخرج كل يوم ملايين الكائنات
أنت المحاط بالأسرار أفرغ علينا من أسرارك
وارحمنا واشف المريض المسكين

واطرِدْ بقوتك وكلماتك الشر والموت

اتسعت عينا أمه بدون تصديق، بينما نَدَّتْ عن أحد الكهنة - ذلك الكاهن حديث العهد الذي اتهمها بالتجديف سرا منذ قليل - تنهيدة راحة بعد أن أحمَد الفتى النيران التي أشعلتها أمه منذ قليل، النيران التي كانت ستطول الجميع - بمن فيهم (إيمحوتب) نفسه - بلا رحمة.. نيران المعبد والكهنة والتي هي قادرة على أن تهز عرش الملك نفسه إن أرادت.. وتابع الكاهن بمنتهى الرضا (إيمحوت) وهو يقول بلهجة مختلفة منتهيا تراتيله:

أَيُّهَا الثُّغْبَانُ الَّذِي يَجْمَعُ كُلَّ قَرِينٍ..

الَّذِي جَاءَ مِنْ كَهْفِهِ..

أَنَا لَمْ أَصْنَعْ أَيَّ اسْتِثْنَاءٍ لِنَفْسِي..

مال (إيمحوتب) نحو أمه كاتما انفعاله، وهمس لها:

- لقد رحل.. فارقت روحه جسده بين يدي الآن.. لا يمكنني فعل أي شيء له.. لا أنا ولا بشري ولا حتى إله.. إنه مرض عضال لا فكاك منه، رأيتُه من قبل قليلا ولم ينجو منه أحد.. الصبر والسلوان هما فضيلتا البشري الطيب.. وعسى أن نجتمع معه يوما ما بالحياة الأخرى..

توقف انهمار الدموع من بين عينيها.. رمقته بنظرة قاسية
قصمت عاتقه.. أخذت من بين يديه جسد (نارمر) -الآن
جثته- بشيء من العنف والعدوانية وهي تقول مغاضبة:

- لقد خسرت اليوم اثنين من أبنائي الذكور.. مُحَرَّمٌ عليك
حضور مراسم تحنيطه ودفنه الجنائزية وعزاؤه أيها الـ
الوزير (إيمحوتب)!

الفصل العاشر

(من مذكرات (إيمحوتب) العلمية بخصوص كواليس
التوصل لحل أحجية الهرم الخرافي)

حاولت إضافة الأملاح المعدنية الموجودة طبيعيا بماء البحر للحجر الناعم، الأملاح التي تتفاعل بسهولة مع المعادن الأخرى ومعظم المواد المعروفة، قمت بالكثير والكثير من التجارب، استغرق الأمر مني شهورا لأبدأ في التفكير في إضافة الجير المشبع بالمعادن والمرتبط بالطاقة الشمسية، خلقت معادن جيرية جديدة لم توجد من قبل، حرقت أجزاء من الحجر الجيري مستخدما ما خلفته شظاياها من رماد لتكوين مواد جديدة.. خلقت من الطبيعة طبيعة.. اكتشفت بمرور الوقت والتجارب أن خلط الجير بالملح ينتج مادة كاوية (الصودا الكاوية).. هذه المادة تسببت في تفاعل كيميائي شديد القوة بين الطين والجير، وحولت كليهما لمادة قوية لاصقة (أسمنت طبيعي).. اكتشفت مادة طبيعية تستخدمها الطبيعة في أعماق البحار، خمنت أنها تستغرق دهورا من الزمن لتحويل المخلفات البحرية لأحجار، ولكن ما قمت بخلقه أنا من مزيج كيميائي يستغرق فقط يوما لا أكثر ليتصلب، ثم ثلاثون يوما ليجف بشكل تام.. وهكذا نجحت في خلق أول حجر صناعي في تاريخ البلاد - والعالم كما

أظن- ورغبت في مشاركة الملك (زوسر) وكبير المهندسين
هذا الإنجاز العلمي الفريد في الحال.. والذي سيكون اللبنة
الأولى لتشييد المقبرة سداسية المصاطب.. الهرم الخرافي
المدرج الذي حلم به كلانا، أنا والملك العظيم (زوسر)..



(قصة أب وابن)

بانتهاء نسل آخر ملوك الأسرة السادسة ينتهي عصر بناء الأهرام، وتنطوي معه صفحة عصر المملكة القديمة العظيمة التي لا تزال آثارها تدهش العالم أجمع حتى الآن..

يبدأ عصر انتقالي من أربع أسرات قبل أن يظهر أول ملوك الأسرة الـ ١١ (إنتف) الأول ليؤسس بداية عصر الدولة الوسطى القوي، والذي شهد ملوكا من أعظم ملوك (مصر) وهم (أمنمحات) الأول وابنه (سنوسرت) الأول ملوك الأسرة الـ ١٢، وهم ملوك ساروا جميعًا على الأسس العنيفة -والحكيمة في نفس الوقت- التي بناها (أمنمحات) الأول وعلمها ابنه (سنوسرت) الأول، والذي قام بدوره بتمريرها لأولاده تباعا، ليستمر عصر عظيم بلغت فيه (مصر) شأنًا عظيمًا داخليا وخارجيا، وامتد نفوذها جنوبا في عهد (سنوسرت) الثالث العظيم، والذي تصل عظمته للحد الذي جعل (النوبيين) يعبدون تمثاله المقام على ضفاف النيل جنوب (مصر) كإلهٍ معظم، وتستمر عبادته حتى بعد وفاته بسنين، يُنسب إليه فضل إنشاء قناة (سنوسرت) -أو قناة (سيزوستيريس) كما سماها الإغريق- والتي تربط النيل بالبحر الأحمر، الغرض الرئيسي من حفرها كان نقل قواته مائيا للجنوب في حروب إخضاع (النوبة)، ثم صارت عنصرا

زاد من تقدم الزراعة داخليا، وحركة التجارة الخارجية مع بلاد (بونت) (الصومال حاليا) وجزر (كريت) و(قبرص) بالبحر المتوسط..

شهد هذا العصر تطورا هائلا في مجال العمارة، وتم تفعيل التنجيم بالمحاجر على نطاق واسع، كما شهد أعمالا بنائية تاريخية عظيمة خلّدها التاريخ مثل سدّ (اللاهون) ب(الفيوم) ومعبد التيه (اللابيرينث)..

((إِنَّ عَدُوِّي السَّاقِطَ الَّذِي كَانَ بِصَحْرَاءِ (أَبِيدُوس) لَنْ يَقُومَ وَأَنَا سَعِيدٌ بِهِذَا..

أَنَا بِذَاكِيرَتِهِ..

لَقَدْ اسْتَوْلَيْتُ عَلَى السُّلْطَةِ بِبِلَدَتِي لِأَنِّي وَجَدْتُهُ هُنَاكَ..

لَقَدْ جَلَبْتُ الظَّلَامَ بِقُدْرَتِي..

لَقَدْ انْتَشَلْتُ الْعَيْنَ مِنْ عَدَمِهَا..

وَذَلِكَ قَبْلَ حَفْلِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ..))

السطور ٣ و٤ و٥ و٦ و٧ من الفصل رقم ٨٠

من اللوحة الثامنة والعشرين.. كتاب الموتى..

وصايا (أمنحات) الأول لولده (سنوسرت) الأول

- أنت يا من أصبحت إلها.. أصغ لما سألقيه عليك حتى
تصير ملكًا قادرًا على البلاد وحاكمًا على شواطئ النهر..

-لقد ترك لنا أسلافنا إرثًا لا يستهان به، مزيج من نجاحات
وإخفاقات، ثورات وحروب، تحالفات ودسائس، ولكني
أستطيع أن أجزم لك -يا ولدي- أن حكم (كيميت) لا يستتب
إلا عندما نكون نحن الملوك، ملوك وأمراء (طيبة)، ربما نجح
ملوك (منف) العظماء في صنع حضارة مزدهرة، حضارة
نتذكرها -ونتذكر أسماءهم- كلما نظرنا لأهرامات (سقارة)
المهيبة الشامخة التي تناطح السماء، وتطل قممها على العالم
الآخر لتأخذ قبسا من نور الآلهة.. ولكن بانقضاء سلالاتهم
تخبطت البلاد بين حكم عشرات من الملوك الذين حكموا
لشهور لا أكثر، لا يوجد اهتمام بالرخاء والتنمية، لا ينظر
أحد لحال المواطن البسيط، لا يفكر أحد في توسيع نفوذ
البلاد خارجا واستجلاب الخيرات من كل أنحاء العالم، على
النقيض تقلصت حدودنا وقلت خيرات البلاد، كان هذا قبل
أن يظهر الملك الطيب القوي (إنتف) الأول ويؤسس حكما
كان الأساس لبدء التغير في أحوال البلاد، والذي كان أيضا
بدءا في تحول القيادة ل(طيبة) وللإله (آمون)..

- سار خلفاؤه على نهجه، وبينما يتصارع أمراء وحكام أقاليم الشمال البربريين على الحكم والنفوذ، كان الجنوب يتوحد شيئاً فشيئاً، بل حدثت معارك بسيطة بين (أنتف) الثاني ومملكة الشمال نجح فيها في مد حدود الجنوب للشمال أكثر، ولكن كان ابنه (منتوحتب) الثاني أكثر قوة وطموحاً، استغل جريمة ارتكبها ملوك الشمال بتدنيسهم للجبانة الملكية المقدسة ب(أبيدوس)، فقام بحشد الجيوش وحقّز الجنود بأن دافعهم الديني للحرب سيجعل الآلهة تنصرهم.. وفي حروبك القادمة كلها احرص على هذا، لا بد للجندي من حافز، اعطه حافزاً جيداً -دينياً أو مادياً أو حتى عاطفياً- وستجده يحارب كعشرة جنود واثقا من النصر، لا تسوق جنودك كالشياه المسيّرة ولكن عاملهم كأبنائك، وضع دائماً حولك الأقوياء المخلصين من الرجال، فلا فائدة من قوي لا يؤتمن جبهته، ولا نفع من مخلص بلا قوة، ولا تنس أنه بدون جيش لا يمكنك تحقيق الاستقرار الداخلي قبل الخارجي، وهذا ملخص لمجموعة من النصائح التي سار على نهجها العظيم (منتوحتب) الثاني في حربه لتوحيد البلاد، والتي ساعده في تحقيقها أخوه القائد الرهيب والمحارب المغوار (منتوحتب) الثالث..

- نجح (منتوحتب) الثاني في توحيد البلاد بالقوة، وصار

لقبه هو موحد الأرضيين، عمل على مركزية الدولة بأن قلل من سلطة الحكام وزاد من نفوذ (طيبة) عاصمة القطرين، كما أرسى الحملات العسكرية جنوبا في عمق (كوش) وشمالا ببلاد (كنعان) معيدا جزءا كبيرا من الهيبة الكيمتية الخارجية، وقد أحبه الكيمتيون واعتبروه (نارمر) الثاني.. كان (منتوحتب) الثاني ذكيا بما يكفي ليخلد اسمه، فلم ينس أن يشيد معمارا يقترن وجوده باسمه للأبد، فبنى معبدا جنائزيا جميلا على البر الغربي للنيل على طراز جديد فريد لم ير مثله أحد من قبل، تحيط به الحدائق الغناء وتملا ساحاته وأبهائه المسقوفة متعددة الأعمدة، وربط بينه وبين مقبرته طريق مهيب يحف بتمائيل كثيرة له شخصيا، لقد كان ملكا عظيما في التشييد كما كان في الحرب.. وهذا هو مثال للملك الكامل..

- أما عن خليفته المحارب (منتوحتب) الثالث فإنه لم يجد مجالا لأي حرب، لقد كانت الأمور مستقرة بشكل كبير داخليا وخارجيا، وكنت أنا وزيره الأمين وكان لي الفضل في أغلب المشاريع الداخلية الهامة والتي ساعدت في نهضة البلاد، فلما حان أجله وانتهى حكمه القصير الهادئ لم يكن له وريث للحكم، فقامت بالوثوب للحكم -رغبة في الحفاظ عليه من التشتت والعودة لعهود الثورات والتخبط- معلنا نفسي ملكا على الشمال والجنوب..

- انقلاب عسكري؟ حسنًا.. ليطلقوا عليه ما يشاؤون.. ولكني لم أكن لأستطيع أن أنصب نفسي ملكا بدون يد الجيش القوية.. ولكن لتعلم جيدا أنه بدون دم ملكي ونسب يعود لملك سابق لا يمكنك حكم (كيميت)، هكذا اعتادوا وهذا هو ما يستحيل تغييره.. ولكن.. يمكن التحايل عليه.. وسأخبرك كيف..

- بادئ ذي بدء عليك أن تتيقن أنه لن يتركك الشعب تحكم بسلام وهناء ورضى تام - مهما بلغ نسبك الملكي من عظمة- إن أهنتهم، وجعلت غنيهم فقيرا، وحولت فقيرهم لمتسول.. وفي نفس السياق يمكنهم أن يتحملوك- وإن لم تملك أي دم ملكي حتى- إن جعلت الخيرات تتدفق بين أيديهم، ووهبتهم الأمان والحياة الكريمة، وكرمت الآلهة بالأبنية التي تخب الأبصار.. لا أخفي عليك أن نسبنا كعائلة ينحدر من دم ملكي ولكنه بعيد للغاية، لن يتقبله العامة في المعتاد، يريدون نسبا مباشرا، ابن أو أخ أو حتى أنثى كوصية على العرش، لهذا كان من الضروري أن يكون امتلاك الحكم غصبا، ثم ليكن الحكم الأول والأخير للشعب..

- بادئ ذي بدء ابدأ بالدين، الشعب يحب الدين ويجعله دستورا فوق أي دستور آخر.. لهذا ابتدعت الأسطورة التي جعلتني ملكا تم التنبؤ بقدومه منذ سنين، ملكا سينتشل

البلاد من الهاوية ويجعلها بلدا سخاء رخاء، نبوءة قيلت على لسان أحد حكماء ملك قديم يدعى (سنفرو) اسمه الحكيم (نفرتي) يدعي فيها قدرته على قراءة الغيب، ويخبره أن ملكا سيأتي -بنفس اسمي- ليقوم بالمعجزة وينقذ البلاد، وستسانده أيدي الآلهة نفسها.. سيصدق العامة لأنهم يريدون أن يصدقوا كل خرافي يرتبط بالدين وبصلاح البلاد.. وقد أعطتني هذه النبوءة شرعية غير معلنة أشبه بالدم الملكي إن لم يكن أكثر فعالية.. أجزلت العطاء لحكام كبار الأقاليم ممن يمكن ضمان ولائهم، بالتزامن مع عزل المتمردين منهم، بينما غيرت كل حكام الأقاليم الصغيرة بآخرين أضمن ولائهم، لا تنس أنهم كانوا سبب عدم استقرار حكم الشمال لسنين، وإن اهتممت بحكام الأقاليم البعيدة فلم يكن هذا قبل أن أضع حولي كل المخلصين بالبلاط، فمن البلاط الملكي تبدأ الثورات وشرارات التمرد الأولى.. ثم جاءت مشكلة الحدود الخارجية، بنيت سدا عظيما بشمال شرق البلاد قبل أرض الفيروز لأمنع تماما هجرات الآسيويين الذين لا يمكن ضمان نواياهم وأطماعهم، كما نشرت الحصون غربا بطول الحدود، وسيّرت الجيوش جنوبا وقمت بتثبيت نفوذي هناك.. وهكذا استتب لي الأمر سلميا قبل استتابة حريبا.. وجاء دور تخليد اسمي بالتاريخ وهو أمر لا بد لك من فعله لتوكيد إنجازاته، لا بد من معمار مذهل تنقش عليه انتصاراتك ويجعل خلفاءك

يذكرون اسمك، لهذا بنيت هرما عظيما على غرار أسلافنا
العظام، وأضفت له زخرفات أخذتها بالفعل من أهرامات
(سقارة) ..

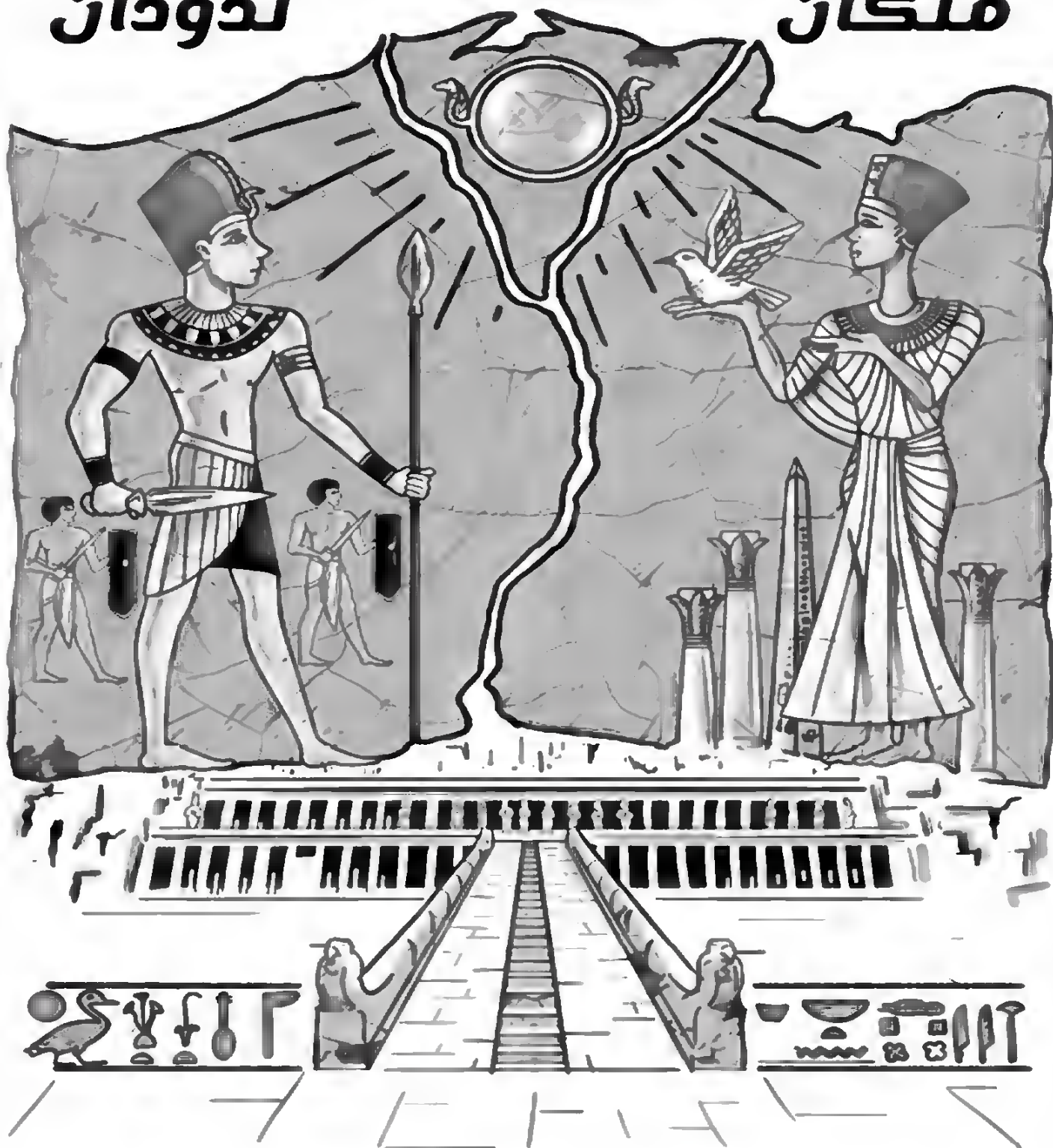
- ثم كان أمر إشراكي لك في الحكم في آخر بضعة سنين،
لإكسابك الخبرة اللازمة، ولمنع أطماع أي متوثب على الحكم
بإثبات حضورك كوريث للعرش قبل التتويج الرسمي.. وهنا
يأتي الدرس الأخير والأهم ودرس حياتك كلها.. عندما تكون
نائماً اجعل الحارس الشخصي لك قريباً من قلبك؛ لأن الرجل
لا صديق له في يوم الشدة، فإني قد أعطيت الفقير، وعلمت
اليتيم، وجعلت من لا ثروة له مثل صاحب الثراء، وقد كان
أكل خبزي هو الذي جند الجنود ضدي، والرجل الذي مددت
له يد المساعدة هو الذي أحدث لي بها المتاعب، والذين
يرتدون فاخر كثنائي عاملوني كالذين في حاجة إليه، والناس
الذين يتضمخون بعطوري قد لوثوا أنفسهم وهم يستعملونه
بخيانتني.. حينما هاجمني المتآمرون بعد العشاء ليلاً كنت
أخذت ساعة من الراحة واضطجعت على سريري، وكنت
متعباً وأخذ قلبي يجثو وراء النوم، ثم شعرت كأن أسلحة
تلوح، وكأن إنساناً يسأل عني، فانقلبت كأني ثعبان الصحراء
وقد استيقظت على صوت الحرب، وكنت وحيداً ووجدت
أنها حرب جنود، ولو كنت أسعفتُ بالسلاح في يدي لكنت قد
شئتُ شمل المخنثين شذر مزر؛ ولكن لا شجاع في الليل، ولا

يمكن أن يحارب الإنسان وحيدًا؛ إذ لا نصر بدون معين..

- لهذا.. وبشكل قاطع ونهائي.. خذ الحذر من مرءوسيك؛
لأن الناس يصغون لمن يرهبهم، ولا تقترب من منهم على انفراد،
ولا تثقن بأخ، ولا تعرفن لنفسك صديقًا، ولا تصطفين لك
خلانًا؛ لأن ذلك لا فائدة منه.. املك البلاد بالسوط تعش ملكا
عظيما مبجلا.. املك البلاد بالسوط تعش طويلاً..

لدودان

ملكان



(قصة ملكة السّلم وإمبراطور الحرب)

(طيبة)

اسم المدينة بالمصرية القديمة (أواست)، هي التي أصبحت (طيبة) المدينة المُتَحَفِيَّة وإحدى عواصم (مصر) القديمة ذات التقاليد الملكية الشامخة، وهي (الأقصر) الآن.. تقع على بعد مئات الأميال جنوب العاصمة الشمالية الأقدم (منف)، يقطعها المسافر مبحرا باتجاه الجنوب بطول النيل المغلق المحاط بالمرتفعات الصخرية.. فرض (آمون) نفسه عليها إلها رئيسيا في أواخر الأسرة ١١، سهل المدينة يشطره النيل، السهل الذي يطل على الجبل الغربي الأخاذ، هذا السهل كان مقر ملوك الأسرة ١٨ الفاتحين الذين طردوا (الهكسوس)، وظلت مركزا تتقاطر على مرفأها ثروات الإمبراطورية كلها، حتى جاء (إخناتون) وحرّم المدينة من هذه الميزة، فقط لتستعيد المدينة مجدها على يد (حور محب) وأسرة (رمسيس) الثاني من بعده، وتصبح المدينة المقدسة مدينة (آمون)..

على الضفة الشرقية: تمتد المدينة خلف أرصفة الميناء، تغص بالحدائق الوارفة، يقبع هناك معبد (آمون) ب(الكرنك)، وبجواره القصر التقليدي الملكي.. ثم يمتد شرقا خلف

المدينة سهل شديد الاتساع يصل للتلال والصحراء الممتدة حتى البحر الأحمر..

وعلى الضفة الغربية: يغلب وجود المنحدرات الصخرية من الجبل الغربي، وعلى طول الحافة الرملية يتراص صف من المعابد الجنائزية لكل ملوك الإمبراطورية العظام، في وادي الملوك والملكات..

بعد انقضاء نسل (أمنمحات) الأول العظيم تداعيت الدولة الوسطى، تتابعت أسرات ضعيفة أدت لطمع بدو الشرق (الهكسوس) واحتلالهم ل(مصر).. ولم ينجح في ردعهم إلا ملوك (طيبة) المحاربون..

نجح آخر ملوك الأسرة ١٧ العظيم (كامس) في السير على خطا والده وجده وطرده (الهكسوس) من البلاد، ثم تلاه الأعظم (أحمس) الأول والذي تعقبهم شرقا وشت شملهم..

جاء من بعده ابنه الملك (أمنمختب) الأول ليحصد ثمار جهد أبيه ويستكمل بناء نهضة داخلية، فلما انقضى أجله تبعه الملك (تحتمس) الأول متجاوزا الأربعين من عمره..

ولنتوقف هنا قليلا حيث يبدأ التاريخ في تسطير أكثر علاقة معقدة بين ملكين، لا جدال أنهما من الأعظم - إن لم

يكونا الأعظم بالفعل - في تاريخ العالم كله..

((أَمَّا بِلَادِ (بُونْتِ)، فَقَدْ ظَهَرَ فِيهَا مَا كَانَ خَفِيًّا..

إِنَّكَ خَلَقْتَ أَشْكَالَكُمْ..))

من سطور اللوحة العشرين.. كتاب الموتى..

مدينة (طيبة)

((تذكّري أن دماثة الأخلاق هي مفتاح حب الناس لك.. ولا تنس النهوض لوالديك ولمن هم أرفع مرتبة منك))

كتبتّها مرة.. وأعادتها.. ثم كررتها عدة مرات.. أمسكت بالعود تلو الآخر، أعود من البوص كانت تُستهلك بتكرار نفس الكلمات باللغة الهيراطيقية، على قرطاس من البردي كان يهتز لحماستها مع قرع طرف العود الذي لا يكل ولا يمل.. رفعت ظهر يدها الصغيرة لتمسح عرقا بدأ ينهمر على جبينها مع نشاطها المحموم، فقد كانت شمس الظهيرة - شمس الوجه القبلي - لا ترحم في هذا الوقت الصيفي من العام، ولم تنجح تيارات الهواء الشمالية الباردة المتدفقة من بين أعمدة البهو المفتوح - في تخفيف شدة القيظ، كان تركيز الفتاة منصبا على تكرار الكتابة فلم تنتبه لصوت الخطوات البطيء الذي يقترب منها بهدوء، فلما ارتسم الظل على ورقة البردي أغلقت الفتاة عينيها وهي تزفر بغضب مصطنع، فارتفع أنفها المعقوف قليلا - والذي ورثته عن أبويها وجديها الملكيين - وضافت عيناها المكحولتين وشفتان شبه ممتلئتان ينفرجان لتهمس:

- لقد أمرت بمنع أية زيارة تقطع تركيزي!

انحنت يد قوية معروقة تمتلئ ذراعها بعضلات مفتولة
لتقبض على ورقة البردي، ثم رفعت الورقة ليأتيها صوت
أبيها الملك يقرأ باهتمام باطنه السخرية اللاذعة:

- عدة كلمات تكرريها باستمرار.. هذا يستدعي تركيزا لا
يستهان به!

رفعت الفتاة ذات البشرة الخمرية اللطيفة ذقنها المستدير،
ثم استدارت بجذعها - وهي جالسة - لتواجه أبيها الملك
بوجهها، أصدرت حصيرتها المصنوعة من نبات (الحلفا)
خشخشة مع تحركها، ابتسمت له وهي تسأله:

- أتسخر من وريثة عهدك والأميرة الملكية سيدة الأرضين
ووارثة عرش (طيبة)؟

انحنى الملك (تحتمس) الأول ليرفع ابنته بذراع واحدة في
حركة سريعة مفاجئة وهو يقول لها:

- نسيتي أن تضيفي وصف زعيمة النبيلات..

أطلقت ابنته شهقة مع مباغتته لها، ثم تماكت نفسها وهي
تدفن وجهها في جانب وجهه بمنتهى الحب، إذ أنه لم يكن
أباها فقط، بل كان معلمها الأول في كل مناحي الحياة،
بالإضافة لمشاركته لها لأسرار الحكم والحكمة.. لم يختصها
وحدها بمثل هذه الحظوة، كان اهتمامه بكل أولاده من

كل زوجاته شبه متساوٍ، ولكن الفتاة (حتشبسوت) وحدها أظهرت ميلا واضحا للرجبة في التعلم، وتفوقا واضحا في سرعة تعلمها لكل ما يخص التعامل مع شؤون البلاد، ورغم عدم إتمامها لعامها العشرين بعد ولكنها كانت تستطيع إدارة بعض من أمور البلاد في حالات غياب والدها النادرة..

عندما كان أبوها (تحتمس) الأول ينظر نحوها لم يكن يرى سوى ملك قوي قادر على إكمال ما بدأه من نهضة للبلاد، ولم يكن يعيبها إلا كونها أنثى، فتنهد بمرارة وهو يعلم أن القوانين والغرف يقتضيان أن يكون الملك ذكراً من أصول ملكية، والأصول الملكية تأتي عن طريق الأنثى، ولهذا كانت (حتشبسوت) الوريثة الملكية بما أن دماء أمها الملكة (أحمس) تتحدر من جدها الملك العظيم (أحمس) الأول قاهر وطارد ملوك الرعاة (الهكسوس)، وهذا يعني أن الملك القادم سيحتاج ليتزوجها ليكتسب حق ملك البلاد، بسبب عدم وجود أي أولاد ذكور للملكة (أحمس)، ورأى بعينه ابنه (تحتمس) الثاني -الذي مال لحياة الدعة والاسترخاء بأكثر من حياة الملوك- وهو يتزوج (حتشبسوت) ليصير ملكا شرعيا، هذا هو المتوقع بدون أدنى شك، ولكنه شعر بالقلق يجتاحه لمجرد تفكيره في أن ما بناه من مجد سيتوقف على هذا الفتى العاثر، والذي لن ينجح في إبقائه لعام واحد بكل تأكيد.. وتمنى من كل قلبه أن تكون (حتشبسوت) خير

معينا له بكل ما اكتسبته من خبرة في الإدارة على يديه هو
شخصيا، بالإضافة لما تعلمته على يدي أمها الملكة العظيمة
ذات الدماء الملكية الأصيلة..

سألها وهو يعيدها لتقف في مواجهته:

- تكتبين حكمة جميلة، ولكن ألم تتوقفي لوهلة لتفكري في
شطرها الثاني؟

نظرت له باستفهام صامت فاستطرد:

- أهنأك من هو أعلى منك مرتبة حقا؟

ارتبكت وهي تضحك وتقول:

- بالطبع.. أنت وأمي..

ربت على ظهرها وقال لها:

- إجابة صحيحة.. ولكن هذا لا يعني أنها إجابة مناسبة..

- لم أفهمك..

- الملك ليس ملكا إلا بدعم رؤوسيه.. لا أجدف ولا أعني

أن الآلهة لا تدعمنا.. لا أنكر اختيار الإله (آمون) لنا لنشاركه

الألوهية وحكم البشر.. ولكن لن ينجح حكمك في الاستقرار

بدون تكوين جبهة قوية -ممن حولك وخلفك- تسانئك

وتكون لك عينا خفية تحميكي من غدر الأقربين قبل غدر الأعداء.. لم يستطع جدك الأكبر العظيم (أحمس) الأول في طرد ملوك الغزاة المحتلين إلا بعد أن وُحِدَ البلاد داخليا في جبهة تسانده.. واستكمل جَدُّك (أمنحوتب) استمرار نجاحه الخارجي بإعادة تنظيم البلاد حوله بادئ ذي بدء.. وسرت أنا -الملك العظيم (تحتمس) الأول- على نهجهما وأدخلت للجيش المصري أحسن جياد العالم مستوحيا الفكرة من أعدائنا، وخرجت في حملات عسكرية مزلزلة على عَدُوِّنا في عقر داره لينجح رماتنا الأغوار في دحر ملوك الرعاة شمالًا وشرقًا حتى ضفاف نهر (الفرات)، موسعا من حدود البلاد ومانعا أي احتلال قادم بِوَأْدِهِ في مهده.. ابنتي وحببتي، لم يكن يتأثى لي تحقيق أي من نجاحاتي الخارجية بدون تثبيت جبهتي الداخلية من حلفائي بداخل القصر وبداخل (طيبة).. إن لم تنجحي في استيعاب أي من الدروس العملية -في حياتك كابنة ملكية حالية وزوجة ملكية مستقبلية- باستثناء هذا الدرس لكان كافياً..

ثم أضاف وهو يميل نحوها:

- ولا تنسِ عقبة العقبات كلها.. مَنْ وُلِدَ لِيُنْظَرَ إِلَيْهِ، لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَحَدٌ..

أومأت برأسها موافقةً إياه، ثم حركت يديها لتجمع أطراف

ردائها الكتاني الفاخر المصنوع يدويا وتطويه عند خصرها النحيل، فظهر جسدها الرشيق المتناسق المائل للنحافة، ثم أشارت لجارية كانت تقف عند مدخل البهو فسارعت لتأتيها بإناء فخاري مملوء بماء بَرَدَه النسيم، غمغمت وهي تشير للجارية لتصب الماء البارد على يديها:

- حان وقت الغداء..

(وأنا أيضا يا أبي أريد درسا مثل دروس (حتشبسوت)!)

نظر الاثنان -الملك وابنته- للفتى (تحتمس) الثاني، ذو الجسد الواهن والوجه الناعم الذي خلقتة حياة الدعة والراحة، وقارن الملك -لا واعيا- بين الفتى وأخته، الملك القادم وزوجته الملكية المستقبلية، وشعر بغصة في حلقه وهو يتخيل مستقبل البلاد الذي قد يصير على المحك، ولكن لم يمنعه هذا في أن يبتسم له، ويشير له ليقرب قائلا:

- الدرس الموجه لك الآن هو أن تحذو حذو أختك وتغسل يديك قبل الأكل..

تحرك الجمع الثلاثي المبتهج نحو جناحهم الخاص، حيث استقبلتهم الملكة (أحمس) بأن احتضنت ابنتها (حتشبسوت) ثم (تحتمس) الثاني ابن زوجها، كانت تحبه أيضا رغم أنه لم يكن من رحمها، وكانت تعلم -كزوجها- أن مصيره كملك

مستقبلي مرهون بزواجه من الابنة الملكية الكبرى والوريثة (حتشبسوت)، كان الشبه جليا بين الأم والابنة وتجلّى في ذات الأنف والمعقوف والوجه والذقن المستديران، فاقت الابنة أمها جمالا، ولكن ظل جمال كل منهما في المستوى المتوسط الذي لا يثير الانبهار.. كان غداءً سريعا تخللته أحاديث وضحكات وجو عام من المرح.. برغم شخصية الأم الحازمة لم تكن قاسية، وكان الفتى (تحتمس) يميل كثيرا لإطلاق النوادر الباعثة للضحك، بينما مالت الابنة أكثر للرزانة ولكن بدون تعقيد.. جلس الجميع على الأرائك المنخفضة دون كلفة، وانحنت الخادومات الصغيرات يقدمن لهم الأطعمة في صحاف ممتلئة باللحوم الساخنة الشهية، ثم أنهوا وجبتهم بأطباق من فاكهة التين والبلح، وبآنيّة من الجعة المبردة.. ثم تعطر الجميع بعطر زيتي غرفته أيديهم من أوانيه بملاعق طويلة منقوشة، ووضع الخدم العطور بأعلى رؤوس الملكة وابنتها ليفوح بالمكان شذا الروائح الجميلة..

اختلى الملك والملكة بغرفتهما الخاصة لقليل من الراحة، بينما تشابكت أيدي (تحتمس) الثاني و(حتشبسوت) -ببراءة- ليتجها نحو الحديقة، ونشاط الشباب يدفعهما للبعد عن أخذ أي وقت للراحة.. كان (تحتمس) يعلم بحب شقيقته المبالغ فيه للورود، فكان دائما يبادر بالتقاط زهرة لوتس من حول إحدى برك الحديقة الملكية، ويقوم بتثبيتها فوق أذنّها أو

بين خصلات شعرها، ولكنها لم تبتسم هذه المرة كعادتها من فعله هذا، أزاحت يده بهدوء وهي تبتعد عنه مقتربة من بركة أزهار اللوتس، وتتسع عيناها بغضب وهي تشير نحو منسوب ماء البركة المنخفض صائحة:

- أيها البستاني!

جاءها اثنان من بستاني القصر على عجل، تتطاير خلفهما حواشي أرديتهما البيضاء المخططة التي تستر نصفهما السفلي فقط، لم يفهم (تحتمس) ما يحدث، صاحت (حتشبسوت) في البستانيَّين بلهجة مخيفة جمدت الدم في عروق (تحتمس) قبل عروق الرجلين:

- من المسؤول عن ريّ هذه البركة؟

ارتجف أحدهما بذعر بينما أشار الثاني نحوه مجيبا بارتياح لم ينجح في إخفائه:

- هو!

زمت شفتيها وهي تصيح:

- منسوب ماء البركة منخفض! هذا لا يليق بحديقة الملك والإله!

غمغم الرجل بوجه شاحب كالموتى:

- اعذريني يا سيدتي الأميرة ولكن النيل منخفض..

شعر (تحتمس) بأن في الأمر مغالاة، أو أن الأميرة الصغيرة
تبالغ في فرض سلطانها وهي تقول للبستاني المسكين:

- إن انخفض منسوب النيل عليك أن تضاعف من كمية
ماء السقاية.. هذه بديهيّات عملك أيها الرجل.. سيتم عقابك
بعشرين جلدة الآن في وضح النهار بقلب الحديقة عقابا على
إهمالك، وتذكرة للجميع بضرورة عدم التقاعس عن الاهتمام
بأية زهور بالحديقة الملكية!

انهمرت دموع الرجل الصامته وهو ينحني بتخاذل، وزميله
يأخذه -يجره خلفه- متجها به لجذع شجرة قريب، وقد
انبرى اثنان من الخدم في جلب سوط العذاب تمهيدا لتنفيذ
عقاب الأميرة.. بينما بدت (حتشبسوت) نفسها هادئة وهي
تمسك بذراع (تحتمس) بهدوء قائلة مبتسمة:

- زهرة جميلة فواحة.. أشكرك عليها..

ردّ (تحتمس) ببعض كلمات غير مسموعة، وقد انقبض قلبه
لمجرد تخيل ضربات السوط اللاهبة لظهر المسكين العاري
بقلب الحرّ، ولكنه لم يجرؤ على الاعتراض، شخصية أخته
كاسحة وتفرض نفسها على جميع البلاط الملكي بمنتهى
القوة وكأنها امتدادا فعلي للملك نفسه، فتشاغل بالنظر لماء

البركة الذي عج بأسماء كثيرة كانت تتوالت بمرح بين الحين والآخر، ووجد نفسه يغمغم بدون أن يدري:

- أسماء جميلة!

أضافت على ما قاله مستمتعة بالمشهد الطبيعي الخلاب وأشعة الشمس تنعكس عن صفحة الماء بين سوق الورود:

- ومفيدة.. تطرد البعوض!

صمت الفتى (تحتمس) ولم يعقب، وشعر بمدى شوقه لرؤية فتيات القصر من الجواري وهن يتمايلن بأجسادهن البضة عندما تنامى لسمعه صوت موسيقى آلات الطنبور الوترية والجنك، آتية من جهة القصر، بينما امتلأ عقل (حتشبسوت) بالرغبة في الاتجاه نحو اصطبل الجياد الملكية لحبها الشديد للجياد الآسيوية المتقدمة نشاطا، وهَفَّت روحها لركوب عربة صغيرة ذات عجلتين يجرها زوج من هذه الجياد.. وبين رغبات الفتى والفتاة المتناقضة، انسلت حية لامعة الجلد مبتعدة عن البركة بعد شربت رشفة من الماء المنخفض..

انتبهت (حتشبسوت) مع رؤيتها لرجل أربعيني وقور طويل القامة متقد الذكاء الواضح من نظرات عينيه، يرتدي لباسا فاخرا يليق بأحد رجال البلاط، إنه (أنيني) كبير

المهندسين قد جاء القصر في زيارة رسمية للملك، نست حينها كل ما كانت تفكر فيه بخصوص الجياد وقالت بفرحة:

- كبير المهندسين.. هذا رائع!

سألها (تحتمس) بتعجب:

- وما الرائع في ظهور كبير المهندسين؟

أجابت بدون أن تنظر نحوه:

- هذا يعني مناقشات جديدة بشؤون البلاد..

ثم رنت نحوه:

- ألن تأتي لتتسمع للحديث؟

زفر براحة وهو يقول وابتسامة عريضة ترتسم على مَحْيَا وجهه الخامل أخيرا:

- لا لن آتي معك.. سأتوجه نحو الراقصات والحواة..

الفصل الثاني

تسللت (حتشبسوت) عبر البهو الملكي متجهة نحو قاعة اجتماعات الملك الرسمية، لم يكن يجرؤ أي حارس على إيقاف دخولها لهذه القاعة ذات الأهمية القصوى، ربما كانت الوحيدة التي يتم السماح لها بمثل هذه الخرق، ولكن الحقيقة أنها كانت الشخص الوحيد بالقصر المهتم بحضور مثل هذه المناقشات، حتى أمها الملكة (أحمس) لم تكن تبدي أي اهتمام بمثل هذه الأمور السياسية، وكلها يقين أنه سيكون لابنتها الكبرى نصيب من الحكم يوما ما ليس بالبعيد..

أفسح لها الحارسان فدخلت تسير على أطراف أصابعها، جاءها صوت (أنيي) الهادئ يقول:

- ستكون الأعمدة التي يرتكز عليها السقف من خشب الأرز الذي نستورده من تلك البلاد الشرقية البعيدة.. أعتقد أن جذوع الأشجار هائلة الضخامة يتم رفعها الآن فوق مياه النيل بعد انتقالها من مياه البحر، كما أن أمهر صنّاع البلاد جاهزين بموقع البناء..

رد عليه صوت أبيها القوي راضيا يقول:

- مجهود عظيم رغم عدم اعتقادي بجدواه، فما الفائدة من

بناء بوابتين جديدتين لمعبد الإله (آمون)؟

أتى جواب (أنيني) على الفور:

- ليصبح المعبد أكثر روعة.. ليتذكر الجميع عظمة الملك ابن الإله..

- ولكن ما فعلته سيجبر الجميع على تذكرني.. استكمالي لكفاح أسلافي العظميين (أحمس) و(أمنحتب) الأول.. لقد تجاوزت ما فعلاه أيضا وعبرت (الفرات) بعد تشتيتي للملوك الرعاة، لا يوجد ملك قبلي تخطى هذا النهر..

- ومن سيسمع عن إنجاز عظيم مثل هذا إن لم يتم تخليده على جدران المعبد وبواباته؟ ما يُنقش على الحجر يعيش أبد الدهر، بينما ما يُحفظ بالصدور ويُحطّ على ورق البردي لا يُخلد..

أتاها صمت أبيها للحظات قبل أن يهمس:

- صدقت..

كان تفكيرها مغايرا لتفكير أبيها تماما، سمحت نفسها بوضع نفسها مكانه، وفكرت أنها لو كانت الملك لبنت المعابد الضخمة المهيبة، ولتركت آثارا تمجد الآلهة والبلاد وتقوم بتخليد اسمها أبد الدهر..

قاطع صوت (أنيني) كبير المهندسين أفكارها قائلاً للملك:

- وليزيد جمال المعبد أيضا ربما نحتاج بناء مسلتين من الجرانيت، يكلل قمة كل منهما هرم ذهبي يقوم بتجميع أشعة الشمس، وعلى سطحهما يتم تدوين اسمك المهيّب وكل ما قمت به من إنجازات خالدة..

لم تسمع ردا من أبيها ولكنها أعجبت بالفكرة لأقصى حد، وظلت الفكرة تزور أحلامها لعشرات الأعوام المستقبلية، أحلام امتلأت كلها بطموح بلا حدود لكل ما يمكن لملك تحقيقه من قوة وعظمة متجسدة في مسلتين شامختين، تعج بنقوش تسرد قصة حياتها العظيمة كملكة لم تنجب مثلها البلاد من قبل قطّ..

فوجئت ب(أنيني) يقترب منها، كانت قد شردت في عالم أحلامها الخيالي فانعزلت عن العالم الواقعي، ولم تسمع كبير المهندسين يستأذن الملك بالانصراف، فتراجعت خطوة للخلف متفاجئة من قربه منها، ثم انتبهت فاعتدت ورفعت قامتها في تصرف بدا مضحكا ل(أنيني) لفتاة غادرت الطفولة لتوها حتى وإن كانت وريثة العرش، انحنى لها في احترام مبتسما، كان يعرفها جيدا، وكثيرا ما شاركها في نقاشات سياسية اتضح فيها مدى اهتمام الابنة الملكية بشؤون الحكم، وكذلك قدرتها على التصرف فيها بدرجة

كبيرة، ووجد نفسه يسألها كما يسأل أبيها الملك قائلا:

- أعتقد أنك قد سمعتِ جزءا كبيرا من مشروعِي المقترح على جلالة الملك.. فما رأيك؟

استعادت سيطرتها على نفسها وجزء كبيراً من شخصيتها الصلابة، فرفعت رأسها لتحاول النظر في عينيه وهي تقول بقوة:

- أعجبني كثيرا أمر تخليد الإنجازات عبر النقش على الحجر.. هكذا فعل أجدادنا العظام، وهكذا يجب أن نفعل..

هز (أنيني) رأسه إعجاباً بكلماتها، ولما أحس باقتراب خطوات الملك من خلفه قال بصوت مسموع:

- الأميرة تبدي استعدادا غير مسبوق لتولي شؤون الحكم..

كان (تحتمس) الأول يعلم جيدا أن رئيس مهندسيه يمزح، فلا يوجد تقليد يسمح لامرأة في البلاد بتولي مقاليد الحكم، ولكنه تعجب لما رأى (حتشبسوت) لا تبتسم، ونظرات جادة نارية تكاد تثب من عينيها، فوضع يده على ظهر (أنيني) وهو يودعه، ثم انتظر حتى غادر قاعة المناقشات تماما، فانحنى ليواجه (حتشبسوت)، وقال لها وهو يداعب ذقنها المستديرة الصغيرة:

- ما رأيك بنقاش بعض نقاط الإدارة في الحكم الآن؟

تهللت أساريرها وهي تمسك بيد أبيها، تجذبه جذبا نحو الطاولة الحجرية المزخرفة، والتي تراصت حولها مقاعد جلوس كبار رجال البلاد وقاداتها الفارغة الآن، مغممة:
- هيا بنا..

وبينما كان الفتى (تحتمس) يقضي الليلة تلو الأخرى في سهراته، كانت الفتاة (حتشبسوت) تقضي الساعات في تشرب كل ما يقتضيه الحكم من خبرات، وكأنها تريد أن تنهل من بحر معرفة أبيها الذي بدا لها قاعه بلا قرار كبئر الغامضة، كلما تبهرت فيه زاد الظلام، وكلما ازدادت معرفة أيقنت بمدى عمق ما تحتاج لمعرفته، وهكذا، وعندما أطل خبر وفاة أمها الحزين، ومع انتقال الملكة (أحمس) سليلة محجري مصر من ملوك الرعاة للعالم الآخر، كانت (حتشبسوت) جاهزة لأخذ مكان الصدارة في عرش (مصر) بعد وفاة الزوجة الملكية الأولى، واضطر أبيها الملك (تحتمس) الأول لإشراكها في مقاليد الحكم كملكة ذات دم ملكي أصيل، وهكذا - وبلمح البصر- تحولت الفتاة التي كانت طفلة للملكة ابنة الملك، وبدأ الملك يوزع المهام الملكية بينهما موقنا من قدرتها على الاضطلاع بمهام الحكم الثقال من توقيع لأوراق الدولة واعتماد لهبات المعابد، والسهر على أشغال المعابد

والمناجم، ومتابعة تنفيذ القانون، وأحوال الجيش وحكام الأقاليم والحاميات الخارجية، أمور الزراعة والفلاحين والنيل، بالإضافة لمقابلة البعثات الأجنبية.. وقامت (حتشبسوت) بمشاركة وزير الجنوب عدة مرات في رحلاته لتفقد أحوال البلاد، وأثبتت أنها حاكمة نابغة في ما يخص أمور السلام والإدارة، بينما تركت أمور الحرب لأبيها الملك المحارب الذي كان يقود جيشه بنفسه بين جنوده..

وظلت دوما تتذكر يوم تتويجها بتاج البلاد المزدوج بمعبد الإله ب(طيبة)، عندما وقف أبوها فخورا بها، يصيح في كل الرجال حوله من كبار القادة والكهنة والنبلاء:

هذه ابنتي.. وريثتي.. (حتشبسوت) الحبيبة..

أضعها في مكاني.. ومنذ الآن سترشدكم..

استمعوا لقولها واخضعوا لأوامرها..

إن من يعبدها سيعيش..

ومن يقول شراً ضد جلالتها سيموت..

كان عمر (تحتمس) الأول يزحف في أواخر الخمسينيات سريعا، وبدأ يحس بتعبه ودنو نهايته، زادت مهام (حتشبسوت) بمرور الأعوام، في حين أكثر (تحتمس) من

الجلوس والسمر مع أصدقاء حروبه القدامى، وبدأ يفكر في اختيار موقع لمقبرته يكون فريدا لا يتعرض للنهب والسرقة، فقد كان يؤمن أنه إن تم التعدي على تابوته الجنائزي فإنه لن يضمن الخلود بحسب العقيدة المصرية، لأن (الكا) -أو روحه- يجب أن تجد الجسد سليما لدى عودتها له مرة أخرى.. وهكذا بدأ يقوم بإعداد حملة جديدة ولكنها لم تكن حملة عسكرية هذه المرة كالمعتاد، بل كانت حملة من مهندسين وعمال للبحث عن مكان جديد بالضفة الغربية للنيل، يصلح كمكان آمن لدفنه، صاحبته ابنته الملكة في هذه الرحلة السرية عند الفجر..

تجاوزا مقابر أمراء وأشراف (طيبة) -مكان يدعى (القرنة) الآن- مخترقين سلاسل جبال غامضة موحشة، أخفت الملكة شعور الخوف الذي كان يلفها وهي تنظر للخواء يمينا ويسارا، وبعد رحلة مرهقة لاحت لهم المنطقة التي بدت وكأنها قد أعدت من أجل هذا الغرض، وادي ضيق تحيط به الجبال وكأنها جدران شامخة، وتعلوه قمة مثلثة وكأنها هرم نحتته الطبيعة، وقال الملك (تحتمس) بوهن وهو يشير للجميع بالتوقف:

- هنا سيتم دفن ملككم وإلهكم.. هنا سيرقد بيتي الأبدي السري.. ستقومون بعمل طقوس دفن جنائزية وهمية

بمعبد الجنائزي المعروف، ولكن هنا سيكون مستقري
الأخير..

ونحن نعرف هذا المكان الآن باسم (وادي الملوك)..

وبعد استقرار الملك على الموقع السري لدفنه، وأثناء عودة
الحملة المضفرة، لاحت ل (حتشبسوت) بقعة قررت سرًا أنها
ستقوم ببناء معبد جنائزي مهيب بها لها، كان مدرجا واسعا
طبيعيا في أحضان الصخور الجبلية التي تقف عمودية تطل
للسماء، يصلح لأن يتم بناء معبد مليء بالأعمدة والأبهاء
المفتوحة، حيث ستسطر ما ستقوم به من أمجاد كملكة
مستقلة لا شريك لها.. وهو الذي سيعرف فيما بعد باسم
الدير البحري.. لقد كانت (حتشبسوت) تحب الفخر تماما
كأجدادها، تعشق التناول في البنيان والمغالة في التزيين
والنقوش، ولم تترك أي مما امتلكه والدها العظيم من تواضع..

وعندما أتمت (حتشبسوت) العشرين من عمرها، انتهى
أجل أبيها الملك العظيم (تحتمس) الأول، وكان (أيني) قد
انتهى بالفعل من تشييد مقبرته السرية، فاستراح ملك وبدأت
حياة عصيبة لملكة.. سارعت بوأد كل ما يمكن أن يهدد
وجودها كملكة على البلاد وقدمت بالزواج من (تحتمس)
الثاني، على أن يكون هو الملك وهي الشريكة الملكية،
مستسلمة لتقاليد البلاط وخوفا من دسائس الكهنة، وفكرت

بضرورة البدء في تنفيذ أهم نصائح أبيها، لابد من خلق حزب قوي بالبلاط والقصر يكون لها عضدا في حكمها، إن أرادت ألا يتم تهمةيشها عن قريب، خاصة وأن كهنة (آمون) يترصدون لها منذ وفاة أبيها..

بدأ زوجها (تحتمس) الثاني الحكم بتلقي أخبار عن ثورة جديدة بالجنوب، لقد سارعوا بالانقلاب فور سماعهم بخبر رحيل الملك المهيّب الذي أذاقهم الويلات، كان تصرفه مخالفا لتصرف أبيه، لم يقود الجيش بنفسه، بل أعطى الأوامر لقائدي الجيش بالتحرك جنوبا وذبح جميع الأعداء بمنتهى الوحشية، وألا يتركوا فيهم ذكرا على قيد الحياة، كتذكرة لاستمرار سيطرة الجيش المصري القوي الذي لا يتأثر بتغير الحكام، ثم توقف (تحتمس) الثاني فجأة ليكتشف أنه لا يستطيع إدارة بلد عظيمة مهيبة مترامية الأطراف من (مصر)، توافد على قصره رجال الدولة كالمهندسين والوزراء وحاكم الجنوب ورئيس الخزنة وغيرهم، ورأته (حتشبسوت) يرنو نحوها مستغيثا أن تساعد..

وهكذا أكملت الملكة ما كانت تجيد فعله كأبيها وأفضل، واضطر الملك أن يتنحى جانبا ليترك لها الحكم الفعلي للبلاد، موقنا بصحة قراره هذا، محاولا أن يضع أمله كله في أقوى ذكر من أبنائه يستطيع أن يرث العرش، وهو نفس تفكير

الملكة التي تمت لو استطاعت أن تنجب منه ذكرا يكون ملكا على البلاد بعدها، ولكنها لم تنجب منه إلا الإناث، بينما استطاعت غيره من محظياته أن تهبه عدة ذكور، ولكن بدا من الواضح أن أحدهم كان أقوى بكثير من كل أشقائه، وأنه جاهزا ليكون وريث العرش، بدأ الملك (تحتمس) الثاني في إعدادة ليكون الوريث (تحتمس) الثالث من بعده، إذ شعر بتطور الوهن بجسده سريعا وقرب موته، تمت تنشئة الابن الملكي تنشئة تليق بمواهبه، فتعلم القراءة والكتابة سريعا بالدور الملحقة بمعبد الإله (آمون)، وكان قد قرأ كل الكتب عن سيرة أسلافه العظام بعمر صغير، ولكن تدخلت (حتشبسوت) بجبروتها - وخبثها- وأرسلت الطفل لكهنة (آمون) ليعمل كاهنا لديهم بحجة تنشئته تنشئة دينية سليمة.

ارتسمت خطة مأكرة في مخيلة الكهنة -بالطبع- عن استغلال الملك القادم في صفهم منذ البدء، وكانت صفقة رابحة للطرفين، تنشئة الملك بقلب الكهنة يعطيه حزبا قويا مُعينًا ضد الملكة التي تمسك بكل شؤون الحكم، كما يعطي الكهنة حقا مكتسبا مستقبليا في المشاركة في حكم البلاد، ظنوا أنفسهم أكثر ذكاءً من الملكة حينها..

لم تكن (حتشبسوت) غافلة عن ما يحاك ضدها بواسطة

الكهنة وبواسطة زوجها، وبدأت في البحث عن أشخاص ذوي نفوذ بالبلاط يكونوا لها حزبا تقف به ضد الكهنة، ولكن فاجأتها وفاة (تحتمس) الثاني نفسه، وبدأت دسائس الكهنة وسط الشعب عن استهجان أن تحكمهم امرأة أن تأتي ثمارها، ولما لمست الملكة شرارة الغضب في عيون الشعب، قامت كعادتها باتخاذ قرار سريع وقوي وحاسم في استمرار لخطتها التي رسمتها منذ سنين، فأبدت رغبتها في تتويج (تحتمس) الثالث -الطفل- ملكا للبلاد، بوغت الكهنة بموقفها ولم يفهموه في البداية، وظنوه استسلاما منها لهم، وللملك القادم (تحتمس) الثالث، ولكنها كانت بعيدة النظر، إذ فوجئوا جميعا بأن الملكة تنصب نفسها وصية على العرش، وتمتلك صلاحيات أكثر مما كانت تتمتع بها إبان زواجها السابق، واضطر الملك الصغير للانزواء تحت جناحها لتصبح وصية عليه، واكتشف الكهنة أن الملكة الخبيثة قد سبقتهم بخطوة، إذ كانت الوصاية حقا لهم أكثر من كونها حقا لها؛ يحكم نشأته بينهم..

ثم قامت بضربتها الكبرى باختيارها لشاب قوي طموح -كان يعمل كاهنا- ليكون مربيا لابنتها الملكية الكبرى، إنه السيد (سنموت)، أقوى رجال البلاط وأكثرهم ولاء لها، ثم وضعت أخيه (سن من) ليشرف على جزء من شؤون البلاط، ووضعت (حبو سنب) وزيرا لمقاطعات الجنوب، ووضعت

(تحتوي) مشرفا على بيت الفضة والذهب، هؤلاء الرجال الأربع هم أول من اختارتهم بعد عناء وجهد وتمحيص ليكوّنوا حزبا الذي سيكون لها سندا ضد الكهنة و(تحتمس) الثالث، وهو الحزب الذي نما وتشعب مع الوقت ليصير ممتدا كشبكة العنكبوت بالقصر وخارجة، ولقد أثبتوا جميعا كفاءة عالية، خاصة (سنموت) والذي تمكن من صد جميع دسائس الكهنة وتحجيمهم بصلاحياته التي أعطتها له ومكره السياسي..

كانت أمور الحكم الآن تقع بين يديها بالكامل، بينما تم إرسال وريث الملك للجيش ليبدأ جزء تدريباته العسكري بعد بلوغه العاشرة، كانت الملكة تحاول إبعاد منافسها المحتمل قدر ما تستطيع، إذ أنها كانت تعلم أنه قاب قوسين أو أدنى من الوصول لعمر يمكنه من إعلان نفسه ملكا وإنهاء وصايتها، سواء بجرأته أو بقوة حزبه من كهنة (آمون)، فكانت ضربتها الأخيرة له وللكهنة عندما بلغ عمر السادسة عشرة قامت بتعيينه قائدا للجيش.

أسقط في أيدي الكهنة، لقد انخرط الفتى في سلك الجيش، بل وأبدى تفوقا ملحوظا فاق به جميع أقرانه، جسده القوي الضخم الرياضي، وذكاءه الخارق في اتخاذ قراراته أهلاه ليكون خير قائد للجيش، وشعروا جميعا بمرارة فقدته كملك

محتمل، وبدأوا يفكرون حقًا أنهم لربما كانوا مجرد أداة بين الملك الفتى والملكة الماكرة، (حتشبسوت) استولت على الحكم أمام أعينهم بعد أن أرسلت لهم الفتى طُغْمًا يشتم تفكيرهم ويضاعف من آمالهم الوهمية في الاستيلاء على الحكم، واستغلهم (تحتمس) الثالث أيضا كحزب قوي جعل لاسمه مهابةً أخافت الملكة نفسها وجعلتها لا تقوى على الإقدام على إيذائه، والاكتفاء بتحجيمه وإبعاده، لينجح في أن يصير قائدا حربيا لا يشق له غبار في سن مبكرة للغاية..

الفصل الثالث

معبد الإله (آمون) ب(طيبة)

اتسعت ابتسامة الكاهن (خنسو) مع سماعه لخبر زيارة الملك (تحتمس) الثالث الشاب للمعبد، كان جميع الكهنة قد أَلْفَوْه إثر معاشته لهم سنين طفولته بالمعبد، قاموا بتعليمه إتقان القراءة والكتابة، وأضافوا لمعلوماته التاريخية كل ما يخص أسلافه وحيواتهم وحروبهم، وكل ما حيكَ حولهم من مكائد ودسائس، وكأنهم يعدّونه ليكون ملكا قادمًا بخلفية تاريخية ودعم المعبد ليؤازرهم في حربهم -حرب كهنة (آمون)- التي لا تتوقف ضد القصر الملكي، الحرب التي نادرا ما خسروها، الحرب التي يشعرون الآن جميعا أنهم لا يستطيعوا إحراز نقطة تقدم واحدة فيها أمام الملكة الأريبة (حتشبسوت)، التي اغتصبت السلطة من الوريث الشرعي سلميًا بمنتهى الذكاء، وصارت تدير جميع أمور البلاد هي و(سنموت) وحزبها، تديرها بحكمة نجحت في إسكات الشعب الحائق على توليهم امرأة، وفشلت جميع محاولات الكهنة في إثارة الشعب عليها إذ لم يرى الناس خلال أعوام حكمها منفردة إلا المزيد من الخيرات والتقدم في كل المجالات، فصمت صوت غضبهم حتى حين..

خرج كبير الكهنة بنفسه ليقابل (تحتمس) الثالث خارج

المعبد في رد فعل استثنائي لم يكن ليفعله حتى وإن زارته الملكة نفسها، الكاهن الأكبر الذي عينته الملكة (حتشبسوت) بنفسها كبيرا لمعبد (آمون) في محاولة سياسية لاختراق المعبد مقر حزب أعدائها، لم يتبعه إلا عدد قليل من كبار الكهنة، وبدا على وجوههم التبرم لعدم تقبلهم لوجوده بهذا المنصب من الأساس، لم يكن بالنسبة لهم إلا رجل الملكة وعينها بداخل المعبد، بينما بدا (خنسو) ومن حوله أكثر تحررا في إبداء مظاهر الفرحة بعودة الملك المصري، الذي رغم وجود غرض سياسي لتنشئته وتعظيم قدره بينهم ولكنهم في النهاية أحبوه لشخصه، فقد كان بسيطا لا يميل للتفاخر بنسبه ودمائه، قويا كأعظم المحاربين بجسد رياضي يمكن نحته كمثال لدقة وكمال خلق الإله (آمون)، وكذلك ذكاؤه الذي اعتقدوا أنه فاق ذكاءهم بمراحل، فقد كان دائما يؤكد لهم أن التاريخ يرسم له أفضل طريقة ممكنة لجعله أقوى ملك عصري عبر العصور، ووعدهم أن يكون ولاؤه وإخلاصه للإله (آمون) ولكهنته وللشعب فقط، فانتظروا بشوق يوم توليه الحكم ملكا على (مصر) وحده، فكان ينصحهم بالصبر والتريث، وأنه لا يوجد أسوأ من الاختيار الخاطئ إلا تعجل الاختيار الصحيح قبل أوانه، وأن الملكة (حتشبسوت) حقا تفعل أفضل ما يمكن للبلاد وللمعبد وله هو شخصا..

وصل كبير الكهنة وحاشيته القليلة في البداية، بالتزامن مع توقف العربدة الحربية الملكية أمام بوابة المعبد، ليثب من على متنها الملك (تحتمس) الثالث بمنتهى الرشاقة والقوة، الفتى الذي ما زال بمنتصف عقده الثاني من العمر، بدا جسده القوي مثيرا للإعجاب أسفل ردائه الملكي، وكان أشبه بمقاتل يرتدي ثوب ملك، أخفض سوطه الملكي وعصاه المعقوفة قليلا وهو يقترب من حشد الكهنة، عاقدا حاجبيه الكثين فتغضن جبينه المنحدر بشكل حاد للأسفل، كان وجهه عريضا وفكه قوي الشكيمة، جعلته عيناه الضيقتان وأنفه المعقوف أشبه بنسر جارح، وامتلك كتفين يضجان باستدارة عضلاتهما أسفل الدروع..

لم يبدو مسرورا للوهلة الأولى بل كانت الدهشة هي ما أظهره، لم يكن هذا الوجه هو ما توقع أن يراه عند بوابة المعبد، ثم لانت ملامح وجهه قليلا مع رؤياه لصديقه وأقرب معلميه إليه الكاهن (خنسو)، وبجانبه جميع من تربى بوسطهم من الكهنة منذ طفولته، توقف لحظة يفكر في التصرف الأمثل، كانوا جميعا يرتدون ثياب الكهنة البيضاء ذات النُّطق وحلى الصدر الذهبية، ولكنه لم يخطئ كبير الكهنة -رغم أنه لم يراه يوما- بسبب عظمة حلي صدره وتلألؤ ما غزته من مجوهرات براقّة، هذا هو الكاهن الأكبر الجديد بكل تأكيد، وكاد يرى يدي (حتشبسوت) الرقيقتين

تدفع الكاهن الأكبر دفعا في ظهره ليقابله، ويظهر له أنه لا يمكن أن يشعر بالاطمئنان حتى وهو بقلب مكان تنشئته وكل معلمي وأصدقاء طفولته الأقوياء..

ابتسم (تحتمس) الثالث، فقد كان يُعجب كثيرا بعقلية الملكة، ويحاول التعلم منها كيفية التصرف كملك، مدركا تماما أنه لا يستطيع أن يحكم بلادا عظيمة كـ(مصر) وحده الآن -إداريا على الأقل- رغم تفوق تفكيره وعلمه وثقافته وخبراته عن أبيه الواهن (تحتمس) الثاني الراحل، أبيه الذي ما زال يكن له محبة كبيرة، ويرى أن الموت حرمه من مُلكٍ عظيم كان ينتظره، وحياة مديدة كانت ستخلد اسمه..

عدّل من تاجه الملكي المزدوج وهو يقترب من الكاهن الأكبر ببطء، فانحنى له الكاهن الأكبر ببطء قبل أن ينتصب ظهره ويقف، ويقول بنبرة تموج احتراماً ولباقة:

- أُنزّت معبد الإله (آمون) يا سيد وملكى وإلهي (حورس) المتجسد..

هز (تحتمس) الثالث رأسه وهو يرد عليه قائلاً بصوت قوي النبرات يليق بملك بمنتصف عمره:

- أراك للمرة الأولى بالمعبد.. لقد تربيت هنا منذ سنين وأزعم أنني أستطيع اكتشاف الوجه الجديد من النظرة

الأولى..

- هذه قوة ملاحظة تليق بالملك العظيم.. أنا بالفعل الكاهن الأكبر الجديد للمعبد، قام بتوليّتي السيد العظيم (سنموت)..
- (سنموت)؟!

رددها (تحتمس) الثالث ببطء وكأنه يلوك الكلمات حرفاً حرفاً فلا يروقه مذاقها، بينما اكتفى كبير الكهنة بابتسامة واسعة محايدة لا معنى لها، في حين أقبل عليه معلموه وأصدقاؤه من الكهنة بمنتهى الترحاب، وأحاطوا به في شكل نصف دائرة منحنين له باحترام يليق بكونه ملكاً، ثم اعتدل (خنسو) أولهم وهو يبتسم لـ (تحتمس) الثالث بحبٍ مردداً:
- غبت عنا طويلاً يا سيدي..

- أمور الجيش لا تسير بسرعة كأمر المعبد..

قالها وهو يركز نظره على وجه كبير الكهنة وكأنه يوجه له الكلام، وشعر كبير الكهنة برعشة خوف قصيرة تسري بجسده ثم تختفي سريعاً، لقد عاشر أبيه الملك الراحل (تحتمس) الثاني، ويمكنه أن يُقسّم أن الولد يختلف تماماً عن أبيه الهادئ الواهن، هذا الولد سيكون له شأن كبير في حكم البلاد، ولولا قوة (حتشبسوت) وحزبها لاستطاع أن يثب للحكم هو وحزب (آمون) منذ فترة ليست بالقصيرة..

تدخّل في الحوار ليثبت وجوده قائلاً:

- أتمنى أن يكون قد وفقني الإله (آمون) بالترحيب بك في بيته..

- أحسنت سيدي كبير الكهنة..

- اعذرني سيدي الملك، لديّ بعض الصلوات الهامة..

أشار له (تحتمس) بالموافقة على الانصراف وهو يقول
بلهجة ذات معنى ورسالة خفية:

- لا تقلق.. أشعر هنا وكأنني ببיתי بالفعل..

التف الكاهن الأكبر ودلف المعبد بخطوات سريعة جعلت
حواشي رداءه تتطاير خلفه، بينما انتظر (تحتمس) قليلاً
يتجاذب أطراف الحديث مع الكهنة خارج المعبد..

قال له أحدهم وهو ينظر خلف الملك:

- عربة واحدة وأقل من عشرين رجلاً فقط موكبا للملك؟
هذا لا يليق!

أجابه (تحتمس) بلباقة:

- بإمكان هؤلاء العشرين إقامة حرب واحتلال مدينة بلمح
البصر!

ضحك أغلبهم، وخلال لحظات انضم من كانوا مع كبير الكهنة لزملائهم المتحلقين حول (تحتمس) الثالث..

قال كاهن آخر:

- تبدو كملك حقيقي محارب.. ألم يحن الوقت لتسلمك الملكة المتسلطة الحكم؟

رد (تحتمس) بنبرة محايدة:

- إنها الملكة الآن رسميا..

- إنه حقك..

- ولكني لا أريده الآن..

- أخائف منها؟

- لا أخاف مخلوقا من مخلوقات الأرض..

- تخشى حزبها بقيادة (سنموت) ورفاقه؟

صمت (تحتمس) قليلا، كانت علاقة الأخوة بينه وبينهم تسمح لهم بمناقشته كأصدقاء وليس كرعية وكهنة لملكهم، لذا فقد قال لهم وملامح وجهه تتقلص:

- لنتمشى قليلا بجانب المعبد.. لا أريد أن تسمع جدران المعبد ما سأقول..

فهموا جميعا مقصده، ووافقوه، أشار (تحتمس) لرجاله أن يقف الموكب الملكي الصغير في مكانه وينتظره لحين عودته، ثم بدأت يسير وحوله الكهنة..

قال (تحتمس) متسائلا بعد أن ابتعد مسافة كافية عن المعبد والموكب:

- لقد بدأت أسمع هذا الاسم كثيرا.. (سنموت) ..

- إنه رجل (حتشبسوت) الأول وثاني رجل بالدولة..

- ووظيفته الرسمية؟

- مدير البيت العظيم للإله (آمون) والقائم بجميع أملاك وأبنية جلالة الملكة.. والمربي لابنتها الملكية (نفرو رع) ..

- هذا كثير ولكني لاحظت ما هو استرعى اهتمامي أكثر..

رمقه الجميه باهتمام فاستطرد:

- إنه يعيّن المناصب الكبرى بنفسه.. هو من قام بوضع الكاهن الأكبر الجديد هنا..

تدخل صديقه الأقرب (خنسو) وقال:

- ولكنه يعلم أنه غير مرغوب به..

قال (تحتمس) بتركيز:

- ولكنه يؤدي الغرض من وجوده.. لم يعد لحزب (آمون) القوة التي كانت له من قبل..

- لن نستطيع إثارة غضب الملكة أو حتى (سنموت) بمحاربة رجلهم الجديد.. لابد أن تكون ملكا منفردا لنستطيع فعل هذا.. وسنبداً من الآن، فبعودتك نستطيع تكوين جبهة داخلية قوية لزعزعة الكاهن الأكبر..

هز (تحتمس) رأسه نافيا ثم قال:

- هذا لن يكون..

نظر نحوه الجميع بدهشة، إنهم يحفظون شخصيته جيدا، إنه ليس بجبان أبدا، فلماذا ينفي قدرته على دحر رجل الملكة؟

استرسل (تحتمس):

- لقد عينتني الملكة قائدا للجيش.. من الآن فصاعدا لن يعود بإمكانني المكوث بالمعبد كالسابق.. لم أعد مجرد جندي يذهب للجيش أحيانا يتعلم أسرارهِ ثم يعود للإقامة بمعبد (آمون)..

قال (خنسو) بسخط:

- تبعدك مجددا.. إنها تفرقنا وتشتت شمل حزبنا..

قال آخر بحدة وكراهية لا يخفيها:

- لقد صار لقبها (حورس) الأثنى في أغاني المديح بقصرها.. صارت ترتدي ملابس الملوك الرجال في الاحتفالات الرسمية وتضع اللحية المستعارة الصغيرة لتبدو كالرجال.. إنها تحاول محو فكرة أنها أنثى حتى لا يطالب الشعب بك كملك ذكر..

نظر (تحتمس) للسماء.. تفكّر مليا.. من السهل أن يشعر بالحق، أن يترك الغضب يسيطر عليه ويقود تفكيره بمجرد سماعه لهذه الكلمات المُحرّضة، والتي لا تخلو من شيء من المنطق، ولكنه دفع نفسه للهدوء والتفكير بعقلانية كعادته، قال وكأنه يحدث نفسه:

- ربما كان هذا صحيحا.. ولكن هل من المعقول أن تقوم الملكة بتسهيل تنشئة وريث العرش الدينية والتاريخية ثم العسكرية؟ ثم الأنكى تقوم بتنصيبه قائدا للجيش - خصمها المحتمل التقليدي الثاني بعد المعبد - بمنتهى السهولة؟ لقد تعلمت كثيرا بين جدران هذا المعبد، تعلمت تاريخ ملوك البلاد من قبلي، قرأت سيرتهم جميعا وعثراتهم قبل إنجازاتهم، توغلت في شتى أنواع العلوم والمعارف، أغرمت بعلوم النبات والحيوان بشكل خاص، اجتهدت لأقرأ عن علم الإدارة والصعوبات البيروقراطية التي تواجهه.. لا أعتقد أن

الملكة قليلة الخبرة في الصراعات السياسية أو في اتخاذ خطوات سريعة استباقية ماهرة لتغفل عن كل هذا، إن كل ما يحدث ينم عن تحضيرها لملك عسكري قوي ينجح في يؤازرها، أو على الأقل أن يخلفها ويحافظ على إرثها الذي لا يمكن الاختلاف على عظمته..

صمت الجميع، لم يجرؤ أحد على مناقشته، بدا حديثه منطقيا ولكنه يخالف كل ما بذروه بصدوره منذ قدومه لهم طفلا، بعد كل شيء الفتى يتصرف كملك، ولا يسمح لأحد بتطويعه على هواه، سواء الكهنة أو الملكة، ومن الواضح أنه يضع قيادة الجيش نصب عينيه منذ زمن، لذا فقد جاء تصرف الملكة الأخير على هواه إن لم يكن حلما قديما له..

قطع (خنسو) الصمت وهو يقول:

- هناك أنباء عن لقب جديد للملكة بدأت تردده بالبلاط الملكي وقام بتوصيله للمعبد رجلها الكاهن الأكبر، تدعي أنها زوجة الإله (آمون)، زوجة ملكية إلهية، وتروي أحلاما زارها فيها الإله نفسه وطلب منها تقلد هذا المنصب الكهنوتي والذي لم يتولاه ملك من قبل..

لم يعقب (تحتمس) وإن كان الكلام نفسه يحمل عواقب بالغة الأهمية والخطورة.. قال آخر:

- أخبرنا الكاهن الأكبر بالأمس أن الإله (آمون) أخبر زوجته الملكية أنه حزين..

لفتت الكلمات انتباهه (تحتمس) وبعض من الكهنة يبدو عليهم التعجب مما لم يسمعه من قبل، فالتفتوا جميعا نحوه فأكمل شاعرا بأهمية ما سيقوله:

- تقول شائعات البلاط منذ فترة قريبة أن الملكة أمرت (سنوات) والوزير (حبو سنس) بالبدء في إنشاء معبد خاص بها، وأنه قد تم بالفعل إنشاء جزء منه بالبر الغربي، فحزن الإله (آمون) لأنها ابتعدت عن معبده هنا وكذلك عن معبد أبيها الجنائزي رغم أنها بنت معبدها الجديد تكريما لأبيها (آمون)، فقال لها زوجها الإله آمرا أن تشيد له (بونت) في بيته..

ردد (تحتمس) بدهشة شديدة:

-(بونت)؟

ردد جميع الكهنة الاسم بتعجب، وسأل البعض عن معنى الكلمة، وأبدى البعض تفهما للمعنى فأتسعت عيونهم بدهشة، فقال (تحتمس) الذي قرأ كثيرا حتى تشبع بالمعرفة:

- إنها بلاد بعيدة تقع جهة الجنوب الشرقي.. إنها مصدر البخور الذي يتم حرقه بمعابد الإله (آمون) أثناء القيام

بالطقوس الجنائزية والتعبدية..

ثم قال بنبرة إعجاب:

- يا لها من ملكة.. توضح اتصالها بالإله (آمون)، ومدى حرصها على طلب رضاه.. لا أستبعد أن تلعب على وتر الشعب الآن وتسيّر الأسطول البحري نحو بلاد (بونت)..

قال الراوي العليم مؤيدا:

- هذا ما حدث بالفعل.. قال الكاهن الأكبر إن أسطولا تجاريا يتم تجهيزه للاتجاه نحو بلاد (بونت)، سيكون أكبر أسطول تجاري عرفه التاريخ، سيكون ضخما بما يسمح بجلب أشجار بخور كاملة النمو لتزرعها بحديقة (آمون) بداخل أسوار المعبد هنا، خمس سفن محملة بالسلع التجارية المصرية والهدايا الملكية في الطريق نحو زعيم بلاد (بونت)، والملكة في انتظار أن يخبرها المعبد بيوم سعيد للسفر لتخرج بنفسها لتودع الحملة التجارية الأسطورية والتي لن تأتي قبل عامين من الآن..

زفر (تحتمس) باهتمام، لقد أخبره الكهنة عن إنجازين أسطوريين في نفس اللحظة للملكة، معبد خاص بها، وحملة ستخلد اسمها في التاريخ.. وفكر للحظات أنه ليس من اللازم أن تكون ملكا مغوارا تشن الهجمات شمالا وجنوبا وشرقا

ليخلدك التاريخ، يكفي أن تكون ذكيا في السلم أيضا، يكفي أن تكون (حتشبسوت).. ورغم عدم تسييرها لأية حملات تأديبية حتى الآن خارج الحدود كأسلافها الذكور، ولكن هذا لا ينفي تدخلها بنفسها وقيادتها لحملة عسكرية ب(النوبة) في بداية حكمها كملكة منفردة وعودتها مظفرة، هي لا تتأخر في الدفاع عن البلاد عسكريا، ولكن لا يوجد أي خطر يُذكر على الحدود يسترعي الاهتمام الآن وقامت هي بتجاهله، ورغم ظنه أن استراتيجيتها هذه الدفاعية ليست بالمناسبة للظروف الحالية، ولكنها على الأقل تظل استراتيجية مناسبة لجلب مزيد من الرخاء للبلاد وبنائها اقتصاديا وتجاريا، وهو ما سيساعده في فترة حكمه المستقبلية كملك منفرد، ولم يظن أنه يبالغ حين اعتقد أنها تقوم بالفعل بتمهيد حكمه ببراعة حتى يمكنه الانطلاق عسكريا في كل الاتجاهات..

ولكنه لابد وأن يثبت أنه ليس ضعيفا أمام الملكة العظيمة، حتى وإن كان من أجل إثبات أحقيته بما تفعله من جهد من أجله - إن كان هذا صحيحا- فقام على الفور باتخاذ قرارا غاية في الجرأة.. قرر أن يستكمل تدريبه وقيادته للجيش وعدم تدخله في حكم الملكة حتى تطلب هي منه هذا بنفسها أو يشعر بضعف موقفها، أو ينتهي أجلها.. أحيانا تكون قمة القوة بعدم الزج بنفسك -متسرّعا- في حرب أنت لست أهلا لها حاليا، حرب تستهلك وتظهرك بمظهر الضعيف

الغزّ المهزوم، خاصةً وإن كانت كل الظروف ضدك.. ولتكن سياسته من الآن فصاعدا هي سياسة الانتظار فقط لا غير، ولكن انتظار المفترس المتحيّن للحظة الانقراض على غريمه في أية لحظة مهما طال الانتظار..

الفصل الرابع

كان المصريون قد حفروا قناة تربط النيل عند نهاية الدلتا بالبحر الأحمر، كان هذا من زمن إبان ملوك ما قبل (أحمس)، وتحديدًا الملك العظيم (سنوسرت) الثالث، قامت (حتشبسوت) بإعادة استخدامها من جديد عن طريق تنظيفها وتهيئتها للملاحة، وهكذا سار الأسطول المصري المهيب خارجًا من النيل لخليج (السويس) ثم للبحر الأحمر، يحمل على متنه التجار والهدايا بدلًا من الجنود والعتاد، كانت رحلة طويلة جدًا استغرقت شهرًا كثيرة، ولكنهم نجحوا في الوصول لـ (بونت) بنجاح فاستقبلهم رئيس البلاد بمنتهى الترحاب، مُغربيًا عن مدى سروره من هدايا الملكة المصرية العظيمة، ثم حدث تبادل تجاري واسع النطاق، فاشتد عجب تجار وأهل (بونت) بعقود الخرز والمشغولات المصرية فائقة الدقة والجمال، وأعطوا المصريين عن طيب خاطر ما أرادوا من أكوام البخور وأشجاره كاملة النمو وأخشاب الأبنوس الأصلية النادرة وأخشاب أخرى طيبة الرائحة، والعديد من مواد تجميل العيون، وجلود بعض الحيوانات، والقليل من الحيوانات العجيبة على المصريين كالقردة والنسائيس، وبعض من أهل (بونت) بأطفالهم حتى.. استغرقت الرحلة عامين ذهابًا وإيابًا.. ولما رست

السفن ب(طيبة) كان يوم عيد ب(مصر) كلها.. واحتفلت (حتشبسوت) بقصرها وأجزلت العطاء للجميع، بدايةً بالإله (آمون) الذي زرعت بداخل أسوار معبده عشرات من أشجار البخور الفواحة مكونةً حديقة يمكن التنزه بداخلها بحرية، معلنةً للجميع أنها قد أنشأت (بونت) للإله (آمون) بحديقته كما أمرها، مؤكدة أنها زوجة إلهية مطيعة، ثم لم تنس رجالها بالعطاء وخاصةً (سنموت) والوزير..

لما انفض الحشد المحتفل خلت القاعة إلا من الملكة والرجل الأول للدولة (سنموت)..

كان واقفا باحترام يشد قامته الطويلة، كان يرتدي ملابس مزخرفة تعج بالذهب والفضة تليق بملك لا أقل، وأطل وجهه الوسيم أسفل غطاء رأسه الذهبي ليضيف من جلالته ومهابته، عينان واسعتان مكحولتان وأنف طويل يعلو شفتان مضمومتان على الدوام، كان عمره مقارب لعمر الملكة، وكان الشخص الوحيد بالبلاد كلها الذي يجروء على رفع وجهه والنظر مباشرةً لوجهها بدون خوف أو تكلف..

ارتخت ملامح وجهها بمجرد اختفاء آخر شخص، وهبطت من عرشها لتأخذ خطوتين تقترب من (سنموت) وهي تقول بلهجة منتصرة:

- لقد نجحت الحملة.. إنه انتصار جديد..

ابتسم لها (سنموت) وهو يقول بصوت رخيم هادئ:

- في رأيي هو الانتصار الثاني بعد انتصار انفرادك بحكم البلاد..

- إذا لابد من تخليده..

- جدران معبدك الجنائزي الجديد جاهزة لتلقي وصفا مفصلا للحملة من أول يوم لآخر لحظة..

- لِنُدَسَّ القليل مما نريده إذا بين السطور..

اتسعت ابتسامة (سنموت) قائلاً:

- هذا لابد منه.. وهذا هو الوقت المناسب..

صمت.. رفعت رأسها نحو السقف الملون.. أغلقت عينيها وهي تقول ببطء:

- لابد أن يقترن ظهوري بالإله (آمون).. ولابد ألا أغفل عن ذكر اسم أبي العظيم (تحتمس) الأول.. لننقش أنني الملكة المباشرة بعده، ثم ليتم نقش قصة ميلادي وحياتي وإنجازاتي.. مقرونة برسوم لزواجي المقدس من (آمون).. أنا سليلة ملك أسطوري، وزوجة سيد الآلهة..

- عادل بما يكفي..

ثم أضاف بخبت:

- ولا بأس من إضافة إنجاز مدني جديد يضاف لسجلك المتخّم بالأعمال العظيمة..

نظرت نحوه بتساؤل ولهفة، فقال:

- مناجم النحاس والملاخيت بأرض الفيروز - (سيناء)- تحتاج لإعادة العمل بها، لقد توقف التنجيم هناك منذ غزو الملوك الرعاة لنا.. ثم لنخلد هذا الفعل العظيم بالمزيد من النقوش على جدران معبدك الجديد وكذلك على جدران الجبال الحجرية بالمناجم نفسها..

ثم أنهى حديثه قائلاً بمكر:

- ولندع العمال يقرروا من أفضل ملك أتى بعد (تحتمس) الأول..

قاطعته وهي تبتسم بركن فمها:

- لم يأت ملك بعد (تحتمس) الأول غير الملكة (حتشبسوت)..

قال وكأنه قد انتبه لأمر هام:

- اعذريني يا مليكتي لقد نسيت تماماً تهنئتك.. توافق هذه الأيام عيد (الحب سد).. عيد تجديد ارتقائك للعرش.. إنه

عامك الخامس عشر لحكم البلاد..

قالت بخبث:

- لقد نسيت ما هو أهم يا (سنموت).. أن ملكتك لا تفعل أي شيء اعتباطا..

نظر نحوها متسائلا فقالت بجذل:

- لقد حسب لي الوزير (حبو سنب) الوقت الذي ستحتاجه حملة (بونت) بالتقريب.. وبناءً عليه قمت باختيار وقت تحرك الحملة ليتوافق عودتها مع عيد تجديد ارتقائي للحكم.. ثم لكزته في كتفه بسخرية وهي تقول إزاء نظراته المتعجبة:

- أظن أنني لا أستطيع فعل شيء بدون العودة لك؟ أم صدقت حقا أنني انتظرت نبوءة معبد (آمون) لاختيار يوم التحرك؟!

هز (سنموت) رأسه بإعجاب وهو يقول بتأثر:

- حكمة سيدتي تفوق حكمة البشر أجمعين، وتنافس حكمة (آمون) وباقي الآلهة..

ضحكت، ثم أشارت له قائلة:

- بهذه المناسبة أريد تجهيز قطع مسلتين هائلتين لا مثيل لهما في التاريخ، تأتي من أحجار الجرانيت بالجنوب، أريدها أن تكون أكثر ارتفاعا من أية مسلة أخرى، انقشها بإنجازاتي وقصة حياتي الإلهية، اصقلها جيدا واجعل فوق قمة كل منهما هرما ذهبيا لامعا.. دع (تحتوي) - مشرف مخازن الذهب والفضة- يقوم بنفسه بتغطية هرمي قمة المسلتين..

كانت تتذكر حديثا قديما بين أبيها وبين (أنيني) وهي تقص التفاصيل، ثم أنهت قائلة:

- ولتضعهما ببهو الأعمدة الذي شيده أبي.. وقم بوضوح بتجسيد صورتني راكعة أمام (آمون) أتلقي منه إشارات المُلْك..

ثم أضافت بدلال:

- ولتأمر النقاشين بإظهارني جميلة الجميلات..

انحنى (سنموت) بطريقة تمثيلية وهو يقول:

- إذا فلن يحتاج إلا نقش هيئتك كما هي يا سيدتي الفاتنة..

أعجبها الإطراء فأشرق وجهها، رغم علمها أنها لم تكن فاتنة، كانت متوسطة الجمال على أفضل تقدير، بل إن (سنموت) نفسه يفوقها وسامة بكثير، ولكن لا توجد أنثى لا تصدق

وَتُسَرَّ بِمَدِيحِ جَمَالِهَا حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ مُلْكَةً، خَاصَّةً لَوْ كَانَتْ
مُلْكَةً مُهَيِّبَةً لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى مَدِيحِهَا بِأَرِيحِيَّةٍ هَكَذَا..

ثُمَّ اعْتَدَلَتْ بِسُرْعَةٍ وَفِكْرَةٍ قَدْ طَرَأَتْ بِذَهْنِهَا، فَسَارَعَتْ
بِالْقَوْلِ:

- رَأَيْتَ فِي الْحَلْمِ أَنَّ سَفِينَةً رَسْمِيَّةً ضَخْمَةً تَحْمِلُ (آمُون)
عَلَى مَتْنِهَا مِنْ مَعْبَدِهِ - (الْكِرْنَك) - لِلْبَرِّ الْغَرْبِيِّ مِنَ النَّيْلِ.. ثُمَّ
يَحْمِلُهُ الْكَهَنَةُ عَلَى مَحْفَةٍ فَوْقَ أَكْتَافِهِمْ فَوْرَ وَصُولِهِ لِلشَّاطِئِ
الْآخِرِ، وَيَقُومُوا بِتَوْصِيلِهِ لِقُدْسِ الْأَقْدَاسِ بِمَعْبَدِي الْجَنَائِزِيِّ
الْجَدِيدِ - (الْدِيرِ الْبَحْرِيِّ) - لِيَقْضِيَ لَيْلَتَهُ بِبَيْتِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي
شِيدَتْهُ لَهُ، قَبْلَ أَنْ يَعُودَ مَجْدِدًا صَبَاحَ الْيَوْمِ التَّالِيِ لِمَعْبَدِهِ
بِالْبَرِّ الشَّرْقِيِّ..

كَانَ (سَنَمُوت) مُوقِنًا أَنَّهُ لَيْسَ بِحَلْمٍ، وَأَنَّ الْمُلْكَةَ قَدْ أُعْجِبَتْ
بِأَسْلُوبِ تَضْمِينِ أَهْدَافِهَا السِّيَاسِيَّةِ عَنْ طَرِيقٍ وَصَفَهَا كَأَحْلَامِ
إِلَهِيَّةٍ لَا بَدَّ مِنْ تَنْفِيزِهَا، وَلَكِنْ أَعْجَبَتْهُ الْفِكْرَةُ، وَقَدَّرَ أَنَّ الشَّعْبَ
سَيَفْرَحُ بِهَا كَثِيرًا، خَاصَّةً وَأَنَّ الْمُلْكَةَ لَا تَدْخِرُ جَهْدًا لِتَكْرِيمِ
الْإِلَهِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَبْجُلُونَهُ عَنْ حُبٍّ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ هُمْ
وَأَجْدَادُهُمْ..

بَدَأَتْ أَفْكَارٌ مِنْ نَوْعِ آخِرِ تَرَائِدِ دِمَاغِهِ فَسَارَعَ بِسُؤَالِ الْمُلْكَةِ
عَلَى الْفَوْرِ:

- وماذا عن (تحتمس) الثالث؟

سألته وقد تلاشت ابتسامتها وتوترت ملامح وجهها:

- ماذا عنه؟

- يبدو غير مبالٍ بتفردك بالحكم..

- إنه ذكي بما يكفي كي لا يخوض حرباً خاسرة..

- أو ربما أحب أن يعيش بالجيش..

- لا أنكر هذا.. الفتى محارب جسور وقائد ذكي بالفطرة..

يبدو أنه لم يرث شيئاً من والده الراحل.. ولكن يدفعه ذكاؤه
للتفوق في المجال الذي سمحت له بأن يعبت فيه كما شاء..

وضع قبضة يده على ذقنه وهو يقول متفكراً:

- الفتى (تحتمس) الثالث يصلح لأن يكون ملكاً قوياً.. ولكن

وجودك كان من سوء حظه..

أضافت منهية الحوار:

- وكذلك وجودك بجانبني أنت وكل كبار رجال الدولة من

المخلصين لي..

قال (سنموت) وهو يتهاى للرحيل:

- ملكتي.. حافظي على نفسك.. لا يمكنني أن أتخيل

رحيلك.. لا يمكنني أن أتخيل كيف سيتلذذ ذلك الفتى
بالانتقام مني..

لم تقولها (حتشبسوت) ولكنها أسرّتها في نفسها قائلة:
(عليك أن تحافظ أنت على مكانتك هذه.. فالأشخاص لا
يضيعون مكانتهم إلا بأيديهم..)

ولم تدرِ كم كانت كلماتها هذه أشبه بنبوءة فيما يخص
(سنموت)..

الفصل الخامس

وقف (تحتمس) الثالث وسط جنود فرقته ثابتا كجبل، فاق طول قامته طول الكثير من الجنود، لم يكن يرتدي لباسا ملكيا أو حتى لباسه كقائد للجيش، بدا كجندي عادي من أحد أفراد قوات المشاة، أكبر قوات سلاح الجيش المصري وقوته الضاربة، نظر نحوه الجنود بانبهار، وتذكروا ما قَصَّه عليهم آبائهم عن جده (تحتمس) الأول المهيّب الذي كان يقود حروبه بنفسه وسط جنوده، فأحبوه واتخذوه ملهما للنصر، وها هو الحفيد الملكي يقف بينهم كجندي مغوار جسور، ويقف يطلب تحدي أحد أفراد فرقة المشاة الخاصة الملقبة ب(نختو عا) أي (أبناء الذراع القوية)، وهي أعتى فرق المشاة وأكثرها انضباطا، والذين يتم اختيار جزء كبير منهم ليمثلوا فرقة (شجعان الملك)، وهي فرقة عمليات خاصة من المشاة الثقيلة يتم استخدامهما في المهمات الصعبة والمستحيلة والسرية.

أحجم الجميع في البداية، إنه الملك في النهاية، شجعهم (تحتمس) بأن قال موجهًا كلماته للجميع:

- إن نجاح في هزيمتي سيضمن له مكانًا دائمًا في فرقتي فرقة (شجعان الملك) ..

استمرَّ التردُّدُ قليلاً قبل أن يتقدم جندي ضخمة الجثة من (تحتمس)، لا يجرؤ على النظر في وجهه، ولكن بدا فزق ضخامة الجسد واضحاً لصالح الجندي الذي قَبِلَ التحدي، ابتسم (تحتمس) راضياً، وقال له بصوت منخفض:

- ارفع رأسك وانظر في عيني خصمك مباشرة.. لا بد أن تقرأ خطوات خصمك وتنبأ بها من نظراته..

رفع الجندي عينيه ببطء، لم ينجح إلا في رؤية خوذة (تحتمس) الزرقاء الشهيرة، ورأى وجهه يتموج أمامه أسفل الخوذة كالسراب، أَحَسَّ (تحتمس) بقلقه فقام بما رأى أنه الأفضل ليكسب الرجل ثقته بنفسه، انقض عليه مباشرة!

استل فأساً برونزية قاطعة ووثب للأمام بسرعة ليهوي بها على رأس خصمه بمنتهى القوة والسرعة وكأنه ينوي قتله بلا تردد.. لم ينجح خصمه في أخذ وقته للتراجع أو حتى لصدِّ الضربة، وشقق الجنود بذعر مع مرآهم لخوذة الجندي البرونزية تتشقق، والدماء تسيل من جرح بمقدمة رأس الجندي.. صاح الجندي بدهشة أكثر منها ألم، ولكنه لم يسقط..

تراجع (تحتمس) خطوتين، ثم رفع فأسه وهو يقول:

- الفأس البرونزية التي أخذناها من أسلحة جيوش الملوك

الرعاة.. قوية وفعالة ونفاذة لبرونز الخوذات الدفاعية.. ولكن كم أكره هذه الخوذات الثقيلة التي ستتسبب في تقليل قدرة احتمالنا في حالة الزحف لمسافات طويلة في الحرّ.. فما الحل؟

زمجر الجندي وهو يمسح الدماء عن عينه، ثم استل سيفاً منجلياً وهوى به على صدر (تحتمس) في حركة مباغتة قوية، ولكن كان من الواضح أنه يضرب بقوة لا تكفي للتسبب في ضرر، لا يزال يخشى الملك ويخشى إيذاءه جسدياً.. تحرك (تحتمس) بسرعة جانباً ليتفادى الضربة، ثم ضرب بطرف فأسه نصل سيف خصمه بقوة أسقطت السيف نفسه أرضاً، وذراع المحارب تهتز من عنف الضربة، وأتبعها بأخرى جعلت الفأس يهوي على صدر خصمه بكل قوته، سارع خصمه برفع درعه ولكن كانت ضربة الملك سريعة أكثر منها قوية، فنجحت في خرق الدرع وخدشت جزءاً من لباسه الحربي وعادت الدماء تنز على صدره، فهم الجميع الآن أن (تحتمس) لا يمزح، وفهم خصمه أنه إن لم يدافع عن نفسه بجدية ويحارب ربما سيلقى حتفه هنا لا مزاح..

قال (تحتمس) بهدوء، وهو يدور حول خصمه بِحُرِّيَّةٍ وتمهّل وكأنه يلقي محاضرة بحديقة قصره الملكي:

- هذا الدرع مصنوع من جلد الثيران.. خفيف مناسب

للحملات طويلة المدى، ولكن يسهل اختراقه إن تم ضربه بسرعة مناسبة..

زمر خصمه ثم انقض عليه بكل قوته هذه المرة وقد استوعب الدرس، لم يكن يملك سلاحا بعد أن جرده الملك من سيفه المنجلي، فهاجم بدرعه معتمدا عليه بكل وزنه الثقيل عازما أن يطيح ب(تحتمس) ويقذف بجسده للخلف إن لم تُسقطه الضربة القوية أرضا على ظهره، ولكن باغته (تحتمس) بأغرب رد فعل لم يتوقعه هو أو أي من الجنود، لقد قابل هجومه بهجوم مماثل رغم وضوح فارق القوة الجسدية بينها، ثنى ركبتيه قليلا لينخفض جسده، ثم ارتكز على الجزء الأمامي لباطن قدميه وهو يُخرج من طيات لباسه الحربي خنجرا ذهبيا لامع النصل، ثم وثب كزُمحٍ منطلقة رأسه نحو الدرع، وفَرَدَ ذراعه اليمنى حيث أمسكت أصابع يده بمقبض الخنجر بقوة لتطل مقدمة الخنجر الحادة للأمام مباشرة..

كان مشهدا فريدا لم يره أحد من قبل، الخصم الضخم يهاجم بدرعه أمامه وكأنه يركض للأمام، والملك ينحني ثم يثب نحو الدرع قاصدا تمزيقه بطرف خنجره القاطع..

شهق الجميع عندما اخترق النصل الدرع بمنتهى السهولة والسرعة، لتمتد ذراع الملك القوية خلفه مستكملة مسيرتها

من خلال الثقب الذي خلقه الخنجر معتمدة على سرعة الانقضاضة، فتقوم بتوسيع الثقب قليلا وتسمح للذراع فالتقدم أكثر بداخل الدرع حتى عبر من الذراع ما تعدى المرفق، مما يعني أن الخنجر الآن قد انغرس بصدر أو بطن المحارب الضخم ومزق أحشاءه على أقل تقدير، وعندما ارتطم الدرع ثم جسم حامله بجسد الملك لاحظ الجميع أن الملك تحرك بزاوية شبه مستحيلة ليعود بجسده للخلف، وكأنه يستطيع التحكم بجسده فينقض للأمام ثم يعود للخلف في نفس الوقت الذي لم تنته فيه انقضاضة خصمه بعد، وهكذا ترك الملك جسده يندفع للخلف عن عمد ويسراه تحتضن كتف خصمه اليمنى وكأنها تتمسك بها، اتسعت عينا خصمه بألم نابع من بطنه لا يصدق أن الخنجر قد انتزع حياته بمثل هذه السهولة، لا يصدق أن حياته العسكرية ذائعة الصيت ستنتهي على يد ملكه أثناء تدريب لا أكثر، وسقط الجسدان فوق بعضهما البعض ليتدحرجا لبعض الوقت على الرمال الصفراء اللاحبة..

أزاح الملك جسد خصمه المهزوم بلطف - ولكن بقوة- وهو يعتدل، وأشعة الشمس الذهبية تنعكس على خوذته الزرقاء وتتبدد في كل مكان، سقط الدرع ليكشف عن موضع إصابة خنجر الملك القاتلة، ثم كانت المفاجأة الأخيرة والأقوى عندما كانت أصابع الرجل تتحسس بطنه الذي لم يمسه

سوء، بينما التف حوله (تحتمس) وسار عدة خطوات قبل أن ينحني ويلتقط شيئاً من بين الرمال، خنجره الذهبي!

قال (تحتمس) وهو يعيد خنجره لمكمنه:

- من الضروري أن تحتفظ بخطة بديلة إن فقدت سلاحك، كما أفعل أنا دومًا بإخفائي لهذا الخنجر أسفل دروع لباسي الحربي، وكما فعل هذا الجندي الذكي بأن هاجم بدرعه، حوّل وسيلة دفاعه في لحظة لوسيلة هجوم قوية وفعّالة.. في الواقع لا وجود لكلمة دفاع بالحروب، الهجوم هو خير وسيلة للنصر إن لم يكن وسيلتها الوحيدة المضمونة.. استخدم كل ما تملكه من هجوم حتى وإن ظنه الناس وسيلة دفاع، بل -على- النقيض خاصةً وإن ظنه الناس وسيلة دفاع، فستكون حينها المفاجأة מזלזلة تربك الخصم وتسهّل النصر عليه..

تمالك خصمه نفسه وأعاد مسح مزيد من دماء فروة رأسه براحة يسراه بعد أن أعاقته نظره وغطّت عينيه، ثم قال بصوت أجش:

- ولكنك لم تتفاجأ بهجومي بالدرع..

قال (تحتمس) ببساطة:

- لأنني كنت سأفعل مثلك إن كنت مكانك..

ثم نظر للجنود وقال بعلو صوته القوي:

- دائما وأبداً ضَع نفسك محل خصمك وتوقَّع خُطوته القادمة، إنْ نجحتْ في تخمين خُطَّته يمكنك قهره بمنتهى السهولة.. هذه القاعدة يمكنك تطبيقها في كل المواقف، حتى أثناء تدريبك وحدك، إن لم تجد خصماً -لتضع نفسك مكانه- تخيَّل وجوده.. حارب نفسك وكأنك الخصم!

أراد خصمه أن يتحدث ولكنه توقف قليلا ليفكر، وهو يرى بخياله كيفية تفكير الملك.. (لم يضع الملك بحسابه فارق القوة الجسدية والحجم الذي لا يجب في صالحه.. لقد توقع أنني -بعد خسارتي لسيفي- سأهاجمه بدرعي، فوضع خطته المضادة السريعة والفعالة بناءً على توقعه، بأن استغل اندفاعي الجسدي القوي باتجاهه ليسهل من اختراق خنجره لدرعي.. لقد أخذ -حرفيا- من قوتي لينتصر عليّ، فلولا اندفاعي للأمام لَمَا نجح الخنجر في اختراق درعي.. أكاد أرى بأن عيناى الملك يخرق بنصل خنجره الدرع ثم يفلته بسرعة، بحركة دائرية سريعة ربما، قبل أن يمس جسدي ويقتلني في الحال..)

أخذ الجندي المهزوم نفساً عميقاً ثم قال منحنياً للملك:

- أعترف لك بهزيمتي يا سيدي، وأنحني لك انحناءة ليست

بأنحاءة الرجل لملكه - وإن كنت بكل تأكيد تستحقها- ولكنها
أنحاءة الجندي لقائده المخضرم، أو أنحاءة الرجل لمعلمه..

هلل الجنود وبدأ عدد كبير منهم يتصايح مطالباً بحق
نزال منفرد ضد الملك، ليتعلموا المزيد من خبراته وعبقريته
الحربية، بينما زمجر الجندي المهزوم وهو ينحني ليلتقط
درعه ويرفعه عالياً يقي به جسده بجديّة شديدة هذه المرة،
وهو يقول بوحشية تموج جذلاً:

- وأحتفظ بحقي في إعادة النزال، وسأغلبك هذه الجولة..
يا سيدي!



الفصل السادس

ماتت (نفرو رع) الابنة الملكية ل (حتبسوت) ..

كان الخبر مزلزل الوقع على قلب الملكة، فلم يكن خافيا على أحد أن مصير الابنة البكر كان مرسوما بوضوح لا يمكن الحياد عنه، فزواجها كان أمرا لا بد منه من الفتى الطموح الصامت - حتى الآن - (تحتمس) الثالث ليكسبه مزيد من الشرعية والنفوذ، وكانت تحبها بحق، ولكن ما اكتشفته بعدها بقليل كان أكثر إيلاما لها، وكان البداية الحقيقية لنهاية السلام في حكمها، ونهاية حكمها نفسه.

وقفت تنظر بثبات لأحد جدران معبدها الجنائزي الجديد، والذي أضاءته نيران مشعل أمسكه أحد كبار رجال الدولة المقربين لها، لم يكن بالداخل سواهما إذ كانت زيارة سرية غاية في الأهمية، ولم تأخذ معها إلا عدد بسيط من الحراس ممن يمكن ائتمانهم على أشد الأسرار خطورة، انتظروا جميعا بالخارج عند مدخل المعبد البديع، تاركين الملك والرجل معها يريها ما سيقرب كل الموازين.

قالت (حتشبسوت) بعدم فهم:

- الجدار يبدو لي طبيعيا.. نقوش لأحداث مع رسوم لي وللإله (آمون) ..

غمغم الرجل بانفعال لم ينجح في إخفائه:
- هذا الظاهر..

ثم أخرج من نطاق رداءه آلة ذات نصل معدني عريض ومقبض خشبي، وضع سن النصل على الغطاء الجيري الأبيض ثم قام بكشطه ببطء أولاً، ثم زادت سرعة كشطه للطبقة الخارجية وقتها ليبدأ اللون الأبيض في التقشر والسقوط أرضاً كذرات من رمال بيضاء تفترش الأرض بين قدميه، وتبدأ في الظهور حروف ونقوش كانت منقوشة على البلاط الداخلي بطريقة سرية، فلا يمكن أن تظهر إلا بإزالة الطلاء الخارجي، واتسعت عينها بذهول وهي تقرأ النقوش المخفية بمهارة بقلب جدران معبدها الشخصي الجنائزي الخاص، لم تكن - حتى هذه اللحظة - تصدق ما قيل لها، ولكن لم يعد بالإمكان الهروب من الحقيقة المرة، وشعرت باضطراب مؤقت في الرؤية وهي ترى حروف اسم (سنموت) تتكرر كثيراً بالطبقة الداخلية، وابتهالاته وصلواته ل(آمون).

صمت الرجل قليلاً ليعطي الملكة فرصة لاستعادة تماسكها النفسي من هول الصدمة، فلم يكن خافياً على أحد بكل البلاد مدى الثقة التي توليها - كانت توليها - الملكة لمربي ابنتها الراحلة والرجل الأول بالدولة (سنموت)، ثم همس

بنبرة منكسرة:

- ليس هذا كل شيء يا مليكتي..

نظرت نحوه بعينين متعبتين ولسان حالها يقول: (أهناك المزيد؟!)

قال لها بهدوء:

- أأذن لي جلالة الملكة أن أطمع في أن تتبعني؟

- زمت شفتيها بقوة وهي تومئ برأسها دون أن تنطق، وشعور عارم بالجفاف يجتاح حلقها وينفذ لروحها، تحرك واضعا المشعل بجانبه ليسمح لها برؤية الأرض التي ستخطو عليها قدميها، كان يتجه نحو غرفة الدفن المعدة لها والتي سيرقد بها جسدها بعد رحيلها، تعجبت وقالت وهي تسأل بصوت مسموع لا يخلو من بحة مريرة:

- أنتجه نحو غرفة دفني؟

- نعم سيدتي..

ثم توقف ليعطي لها مساحة لتقف بجانبه، ثم أشار لبقعة معينة بركن الحجرة وهو يقول بإيجاز:

- هنا أحد طرفي النفق..

رددت بدهشة يمتزج بها عدم الفهم:

- النفق؟

اقترب من البقعة التي أشار نحوها، ركلها عدة مرات بقدمه التي يضعها بصندل ذي سيور متشابكة، غمغمت وهي تميل برأسها جانبا لترى تلك البقعة بتركيز أكثر:

- يستحيل أن تنجح بقدمك العارية في أن ...

بترت عبارتها بشهقة تفوح بالذهول عندما انهارت البلاطة تحت قدمه بسهولة كما لو كانت من ورق البردي، وتبين أن هناك ممر يتجه للأسفل ولم تكن هذه البلاطة الهشة إلا تَفْوِيهَا لإخفاء بوابة النفق السري، أشار لها الرجل نحو النفق فقاطعته بإشارة من يمينها، ثم أغمضت عينيها وهي تقول بنفاد صبر:

- لن أتحرك خطوة للأمام.. قل لي ما سأجده باختصار..

زفر بضيق وهو يقول متحاشيا النظر لعينيها:

- مقبرة أخرى سرية سفلية، بناها (سنموت) لنفسه، وقام بربطها بمقبرتك الملكية -حجرة الدفن- لكي يربط بين مصيرك ومصيره في الحياة الأخرى..

فكرت (حتشبسوت) بمرارة: (هذا يخالف كل تعاليم

العقيدة.. هذا لم يحدث من قبل.. إنه يريد أن يشق طريقه
لجنة الخلد بركوبه خفية - واحتياالا- بسفينة الشمس الإلهية
التي ستحملني لأفق الحياة الأخرى.. لماذا يا (سنموت)؟
أعطيتك ما لم أعطه لأي شخص آخر.. جعلتك ملكا غير
متوج.. فلماذا الخيانة؟ لماذا تنهي بنفسك عظمتك؟

كانت قد اتخذت القرار على الفور، القرار الذي لا رجعة
فيه، ورغم أنها كانت تترثيه في خيالها، ولكن واقع الأمر
أنها كانت تترثي حالها أكثر، فقد كانت تعلم علم اليقين أنها
بخسارة (سنموت) ستخسر أقوى أفراد حزبها، وستكون
هذه بداية نهايتها، فالفتى -الملك- (تحتمس) قد شب ليصل
الثلاثينيات من عمره، وصار قائدا محبوبا بالجيش من كل
الجنود، بالإضافة لكونه كاهنا يحظى بحب المعبد، ستكون
ياقصاء (سنموت) قد دقت أول مسامير نعش حكمها،
وشجعت (تحتمس) على القيام بالمبادرة التي تأخر فيها
كثيرا.. ولكن ما باليد حيلة، لابد من عقاب الخائن، كما أنها
قد فعلت ما تظن أنه سيخلد اسمها للأبد، فعلته ونقشته على
جدران معبدها ومسلتيها وهذا يكفي، وليكن القدر رحيمًا بها
من تغير العز لمذلة، ومن غدر الزمن..

كان الخبر مدويا بكل أرجاء البلاد.. الملكة تعلن عن
الاستغناء عن مهام (سنموت).. لم تتوقف الأسئلة عن

التجوال بعقول الجميع، كبار الدولة قبل عامتها، لم تدع خبر خيائته لها وكانت صارمة في كتمان الأمر عن الجميع، لذا كان العجب هو سيد الموقف، وحده لم يفكر مرتين، الملك المنبوذ (تحتمس) الثالث سارع بتهيئة قراره العاجل بين جدران المعبد وبصدور جنود وقائدي الجيش، ليقوم بانتزاع حقه في حكم البلاد انتزاعا سلميا ولكن لا هوادة فيه، واستسلمت الملكة مكتفية بإعلان رضاها عن قدرة الملك الآن على الانفراد بحكم البلاد، وسلمته السلطة سلميا -ورسميا- أمام الشعب كله، وكاد (سنموت) يموت هلعاً، كان يعلم مصيره الآن، ولم يرحمه (تحتمس) كما توقع، فنكّل به قبل أن يقتله شر قتلة، وقام بقتل وتشريد جميع أفراد حزب (حتشبسوت) القديم، وقام بإحلال أصدقائه القدامى من الكهنة في محلهم ليكون حزبا جديدا بالبلاط الملكي يقوّي سنين حكمه القادمة.

أيقن (تحتمس) بروحه قبل عينيه أن الملكة مريضة، مريضة بشدة، كانت تقاوم مرضا ما غامضا دون أن تعلن عنه، ولكن قضت صدمة (سنموت) على مقاومتها -الجسدية قبل المعنوية- واستسلمت للمرض الخبيث الذي كان يحارب لينهش جسدها عبر آخر بضعة سنين، فتدهورت صحتها فجأة بعد تولي (تحتمس) الحكم في سنين معدودة، وبأول سني حكمه ماتت (حتشبسوت) في سن الخامسة

والخمسين..

وها هو (تحتمس) الثالث يقف بجوار زوجه (مریت رع) ابنة الملكة الراحلة الكبرى بعد الراحلة (نفرو رع) ووريثة العرش الآن، يقدم القرابين لتمثال الملكة العظيمة بمعبدتها تأبيناً لها، وبينما تميل الشمس القرمزية للغروب الآن ملونة الأفق بدرجات حمراء نارية، وكأن السماء ترثي الملكة بدموع دموية قانية، أخفض (تحتمس) وجهه ليماً نظره بلون الرمال الحمراء، ووثب لذهنه تقارير رجال (مصر) عن خزائن البلاد المملوءة عن آخرها بالخيرات والذهب والفضة والطعام، وعن الاستقرار الكامل بالبلاد وخلوها تماماً من أية اضطرابات مدنية من أقصاها لأدناها، وتذكر نشأته بين الكهنة والتي هيأته لتلقي علوم الدنيا والدين، ثم تنشئته بقلب الجيش والتي كانت صقلا عمليا لموهبته وطموحه، أدرك أن بإمكانه الآن بدء تسيير حملات جيوشه في كل الأنحاء شمالا وشرقا وجنوبا بدون القلق على (مصر)، والتي هيأتها (حتشبسوت) إداريا وتجاريا وجعلتها بلدا غنية مستقرة قادرة على تحمّل ثقل حروب لا نهاية لها، فغمغم بصوت لم يسمعه غيره:

- شكرا أيتها الملكة..

((أَعْدَاؤُكَ قَدْ سَقَطُوا مُكْبَلِي الْأَيْدِي وَالسَّكِينِ قَدْ اخْتَرَقَ

صَلِّبَهُمْ..

أَمَّا (رَع)، فَإِنَّ مَرْكَبَهُ اللَّيْلِيَّةَ تُبْحِرُ بِنَسِيمِ عَالِيلٍ..

لِأَنَّهَا دَمَّرَتْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَدْ يُهَاجِمُوهُ..

الْجَنُوبِيُّونَ وَالشَّمَالِيُّونَ وَالْغَرْبِيُّونَ وَالشَّرْقِيُّونَ يَجْرُونَ
مَرْكَبَتَكَ..

وَذَلِكَ لِحَمْدِكَ..))

السطور ١٤ و ١٥ من الفصل ١٥.. اللوحة ١٩ من كتاب
الموتى..

الفصل السابع

تكتفت الغيوم بالسماء وغابت شمس النهار، وكانت برودة الشتاء تتغلغل أسفل الأردية والدروع وتصيب الجنود برعشة باردة تماثل رعشة حماسهم للحرب، تجمع الجيش المصري العظيم بسهول الدلتا، صفوف منظمة بدقة تعبر بهمة ونشاط بحيرة التمساح، تم حشد الجيش كله بقاعدة عسكرية ب(ثارو) -شمال شرق (القنطرة الحالية)- حيث عبروا من خلال بوابتين ضخمتين جانبيتين، بينما أحيط الحصن كله بأسوار مستطيلة من الطوب اللبن محاطة بخندق مائي بالكامل، إنه أحد حصون (أسوار الحاكم) الدفاعية التاريخية الشهيرة..

في مقدمة الجيش تزحف فرق المشاة في صفوف متوازية، ثمانية صفوف متتالية تتحرك وكأنها وحدة واحدة متناغمة، وخلفها نافخوا المزامير الحربية النحاسية لا يكفوا عن إصدار الموسيقى الحماسية، يليهم فريق ضباط الملك، ثم تلوح للعين العربية الحربية الأولى وقد رسم عليها لوحة تمثل الكباش مٌتَوِّج الرأس بقرص الشمس، كدليل على أن معبود (طيبة) العظيم يحميهم.. وخلفها عدة فرق أخرى من الضباط في عرباتهم الحربية ثم تأتي عربة الملك نفسه، يسبقها اثنان مترجلان من حملة المظلات، يقودها (تحتمس)

الثالث بنفسه، بينما أسد طليق يسير بجانب الخيل لا يكف عن الزئير.. ثم يأتي خلفه باقي الجيش من المشاة، وفي الأخير رجال الإمدادات يقودون حميرا وثيران تحمل الصرر والجرار..

تم ضرب المعسكر، خيام من الكتان للضباط وكبار القادة، بينما نام الجنود على حصائر من الخيرزان قابلة لإعادة الطي والحمل لمسافات بعيدة، وخلع الجنود أغطية رؤوسهم (النمس) الكتانية وغمروا رؤوسهم بالماء، وكانت فترة راحة أعقبها تحرك الجيش المهيّب بطول الطريق الساحلي نحو (غزة).. كان (تحتمس) يجبر الجيش على التحرك بأقصى سرعة، فقد كان فطنا لأن أفضل نقطة للحرب -لخصمه- ستكون ب(غزة)، حيث السهول الواسعة التي ستعطي الأفضلية لعرباتهم الحربية نقطة القوة لديهم، أو تجعلهم -على الأقل- على علم بكل تحركات جيشه، وهو يعتمد في النصر في هذه الحرب على السرية التامة في تحركاته حتى الآن، مستغلا نقطة تفوق خصمه -الجال الوعة- كنقطة تخفي له تعطيه الأفضلية..

يقود (تحتمس) المهيّب جيشه شرقا نحو أول خطر يواجهه في بداية ملكه، الأول والأكثر بقوة بكل تأكيد، خطر آتٍ من أمير (قادش) الذي ظن أن الملك الجديد ليس بالقوة

المناسبة للحفاظ على إرث أجداده، خاصة وأن (حتشبسوت) لم تبرز أنيابا تُذكر في خلال فترة حكمها الطويلة التي امتازت بالسلام والرخاء المصري الداخلي..

وبينما يقف (تحتمس) الثالث على متن عربته ثابتا ينظر لقمم جبل (الكرمل) في الأفق، والتي تفصلهم عن خصمه بالجانب الآخر، أيقن مرة أخرى أن خصمه ليس بالبراعة التي يظنها هو وحلفاؤه، فبالرغم من تحصنه خلف الجبال الوعرة فقد كان بمقدوره فعل الأفضل، كان بمقدوره التحرك جنوبا ونشر قواته جنوب الجبال، الرماة فوق الجبل والمشاة حول سفح الجبل، حينها كان سيضطر (تحتمس) للانسحاب موقنا من استحالة هزيمة هذا التفوق الجغرافي الطبيعي.. ولكن ما لم يستوعبه الملك (تحتمس) هو استحالة أن يحلم خصومه بأن يقوم هو بالرد على هجومهم بهجوم مضاد وقائي انتحاري، لهذا فقد أهملوا تماما هذه الاحتمالية ولم يضعوها بالحسبان، واستكملوا حشد المزيد من الجيوش خلف الجبال الشاهقة..

تذكر مناقشة حامية دارت بينه وبين قواد جيوشه والوزير (رخ مي رع) منذ أيام قليلة قبل بداية الزحف نحو (كنعان)..

قال قائد:

- لقد تمللوا من الحكم الكيمتي.. هؤلاء الآسيويون

تجرؤوا عندما لم يخرج عليهم جيش كيميت لفترة طويلة، ولكنهم انتظروا فقط زوال حكم (حتشبسوت) لينقضوا على وريث العرش الجديد.. وكأنهم -رغم جنوح الملكة للسلم- كانوا يخشون الجيش، ولكن الآن يظنون الملك الجديد غضا يسهل مباغتته..

قال آخر:

- إنها ليست محاولات فردية.. أمير مدينة (قادش) الكنعانية جمّع بالفعل حوله الأمراء من كل حذب وصوب.. يقال إن حوله الآن ثلاثمئة وثلاثين أميراً بجيشوهم.. إنه حشد لم يحدث في التاريخ من قبل..

تدخل الوزير (رخ مي رع) في الحديث أخيراً، وكان رجل الدولة الثاني بعد الملك، أحد أصدقائه من كهنة معبد (آمون) ممن يثق به ثقة عمياء، وضعه موضع (سنموت) بالنسبة ل(حتشبسوت)، ورغم افتقاره لكثرة مميزات الوزير الأخير الخائن، ولكنه تمتع بالولاء الذي لا شك فيه للملك، بالإضافة لمهارة سياسية وإدارية لا غبار عليهما.. قال الوزير بهدوء:

- هذا متوقع.. لنا كثير من الأعداء.. وإن كان أمير (قادش) يمثل الأطماع الكنعانية -هو وأمراء ولايات (كنعان)- فهناك أيضاً فلول الملوك الرعاة الذين لم ينسوا حتى الآن كيف قام أسلافك العظماء بطردهم وإذلالهم، لقد وصل جدك العظيم

(تحتمس) الأول حتى النهر المقلوب، وهو ما لم ينجح ملك من قبله في الوصول إليه أثناء حروبه معهم.. يمكنك القول إنه أذلهم في عقر دارهم..

غمغم (تحتمس) الثالث بشرود:

- ولكنه لم يقض عليهم بشكل نهائي.. لا يجب أن يترك أي ملك ذيلاً يورق منامه ولو لليلة واحدة..

هز (رخ مي رع) رأسه مؤيدا ثم أضاف:

- بالإضافة للكنعانيين والملوك الرعاة هناك أيضا شعب (ميتاني).. إنهم يتحينون الفرصة منذ دهور ولكنهم يبرعوا في التصرف خفية، سيباركون هذه الحرب ويقوموا بتمويل هذه التحالف سرا، ولن يظهروا إلا بعد انتهاء المعركة.. هذا شأنهم دوما..

قال الملك بنبرة مخيفة:

- لن يكون هناك نصر لهم.. سيهزموا شر هزيمة..

سأله قائد:

- هل سنبادر بتقوية الحصون الشرقية؟ كم عدد الجيوش التي سنقوم إرسالها لتدعيم حاميات (كنعان)؟

قال (تحتمس) الثالث ببساطة:

- لن نرسل جيوشا..

نظر الجميع نحوه بدهشة فأضاف بقوة:

- سنرسل كل الجيوش.. سنهجم عليهم في عقر دارهم.. سأفعل ما لم يفعله ملك كيمني من قبلي.. سأستأصل الشر من جذوره.. سأقتلع رأس الحية السامة بعون الإله (آمون) ويده الباطشة على أعدائه..

لم يعقب أحد.. كانت كلماته حماسية ولكن غير قابلة للتنفيذ عمليا.. فتجراً (رخ مي رع) -بحكم قربه الشخصي منه- وقال بهدوء يزن كلماته:

- ولكنهم يملكون جيوشا كالجراد..

قال (تحتمس) مجادلا بنبرة تنم أنه قد درس الموضوع برمته ولا يتحمس بدون عقل:

- أعلم جيدا تعداد جيوشهم.. ولكني أحفظ عن ظهر قلب تعداد جيوشنا العظيمة.. كفة العدد متعادلة..

جادل الوزير:

- ولكن هناك متاعب الزحف الذي سيستغرق أياما.. سيصل الجنود متعبين..

- سنباغتهم.. لن يتوقعوا أبدا أن نبادر ونهاجم تحالفهم.. سنستخدم سلاحِي المفاجأة والسرية.. كما ستتغلب كفة الإرادة والعزيمة والإصرار على ضعف الجسد.. وسيؤازرنا الإله (آمون)..

قال قائد بصوت مبحوح:

- ولكن هناك مخاطر أخرى نتجاهلها إن حركنا الجيش كله.. هناك مخاطر من الجنوب ومخاطر من الغرب.. وربما مخاطر من الداخل وثورات يقودها غياب الملك وجيشه..

أخذ الملك نفسا عميقا ثم قام من على كرسي عرشه فبدا مهيب الجسد حقا، انحنى جميع من بالقاعة بسرعة مع قيامه المباغت، أشار لهم برفع رؤوسهم وهو يسير بينهم وكأنه يتسلى بريضة المشي، قائلا:

- انتصارنا في الشرق سيجعل أعداء الجنوب والغرب يفكرون ألف مرة قبل التفكير في الانقلاب علينا.. فلا يوجد جيش سيفوق في تعدادهِ وعتادهِ جيوش تحالف أمير (قادش) الحالية.. كما أنني سأترك البلاد في أيدي أمينة.. يد كهنة (آمون) المحبوبين من الشعب..

ثم أنهى كلامه بنبرة خفيضة:

- ثم أنه لا يوجد داعٍ لانقلاب الشعب.. لقد تركتهم الملكة

(حتشبسوت) يرتعون في خيرات لا نهاية لها.. وهذا هو السبب الرئيسي الذي يجعلني أفكر في المبادرة بالهجوم، إذ لم تشهد بلاد (كيميت) استقرارا مثل هذا..

لم يجادله أحد هذه المرة، لقد اتخذ الملك قراره الذي لا رجعة عنه، والذي فكر فيه بمنتهى المنطقية والحكمة بالفعل.. ولكنه لم يكتفِ بما قاله وأضاف مسترسلا:

- منذ القدم، منذ بدء توحيد القطرين على يد العظيم (نارمر)، بدأ نظام الجيش يتكون من إمدادات متتالية من حكام الأقاليم للملك، وتسبب هذا في نراع دائم بين الحكام والملك والذين مثلوا أحيانا تهديدا حقيقيا على سلامة الأمن القومي، وذلك عندما بدأوا يماطلوا الملك في إرسال الجيوش مقابل امتيازات محلية وأراضي.. ثم توسعت البلاد واتسعت حدودها في كل الاتجاهات، وصار الجيش يخرج لمسافات مهولة خارج الحدود المعروفة، كان لجغرافية بلادنا بدور هام في حمايتنا -عزلنا- عن التهديدات الخارجية، وإجبارنا على القيام بدور المدافع -اليسير- بنجاح، الدور الذي لا يمكن التقليل من نتائجه بالنظر لنتيجة حكم الملكة (حتشبسوت) وملوك كثير من قبلها انتهجوا نهجا سلميا.. فمن جهة الغرب تحمينا الصحراء الشاسعة من قبائل البدو المتجولة، وإلى الشرق صحراء أرض الفيروز وكذلك ضعف

بلاد (كنعان) كتهديد والذي لا يرقى لكونه أكبر من هجمات خاطفة.. جنوباً وقُرت تضاريس جنادل النيل حماية طبيعية بالإضافة لضعف جيوش (النوبة) بشكل عام.. بينما منع البحر الأخضر العظيم -البحر المتوسط- أي غزو، فلم نشهد -حتى الآن- تهديداً آتياً في شكل جيوش على متن سفن من جهة الشمال.. ولكن هذا الانعزال كان له عيوبه بقدر ما له من مميزات..

وقف، أشار لأحد الخدم ممن يحملون الماء، فأتاه بإناء ينضح بالماء البارد، فرشف منه رشفة طويلة نمت عن عطش بالغ، ثم أعاد الإناء لحامله وقال بصوت أكثر نقاءً وقوة:

- لقد كنا منغلقيين تماماً عن أية تطورات عسكرية تحدث بنظام الجيوش والأسلحة حولنا.. اكتفينا بسلسلة الحصون الشرقية الملقبة ب(أسوار الحاكم) لتقينا شر هجمات الكنعانيين الخاطفة، مثلها كمثّل حصون الجنوب الدفاعية، وكنا نكتفي بالضغط في العمق الجغرافي لتوسيع مدى بُعد هذه الحصون عن الحدود، ولكن.. هل نجحت هذه الحصون في الدفاع ضد هجوم الملوك الرعاة المزلزل؟!

وجم الجميع وذكرى الاحتلال القاسية تمر بقلوبهم فتمسها ببرودة، وشعروا بطعم المرار بحلوّ قهمل والملك يكمل استرساله ودرسه التاريخي والحربي:

- لقد كانوا منفتحين على غيرهم، خاصةً على شعوب ما وراء النهر المقلوب، وهكذا بوغتنا - بوغت جنودنا- بالعربات الحربية والخيول والخوذات والدروع البرونزية والأقواس المركبة والفؤوس الخارقة والسيوف المنجلية، لم نرَ أي من هذه التقنيات من قبل، لذا فقد كانت هزيمتنا سهلة وسريعة إذ كانت دفئا الحرب غير متكافئتين على الإطلاق.. كانت كحرب بين الحاضر والمستقبل.. كان التأثير النفسي لرؤية الحصان بالحرب لأول مرة قويا على الجنود، كما كان مدى أقواسهم المركبة يفوق مدى أقواسنا المعتادة أضعافا مضاعفة، لقد كان الوضع مهينا حقا عندما تم دفع جيشنا العظيم كله للتقهقهر من أقصى الشمال جنوبا حتى مدينة الإله (آمون)..

ثم أنهى بانفعال وهو يرفع قبضته المضمومة نحو الأعلى بقوة:

- هذا لن يحدث أبدا مجددا.. سنهاجم من أجل الدفاع.. وسنهاجمهم بتقنياتهم نفسها التي نجحت في هزيمتنا من قبل ولكن سنتفوق عليهم بالإرادة وبمؤازرة الإله (آمون).. وقوتي الإلهية وحكمتي..

تحمس الجميع وضاحت القاعة الملكية بالهتافات، لقد اقتنع الجميع برؤية ملكهم، إلههم المتجسد، والذي داعب عقلهم

والمنطق لديهم قبل أن يلعب على وتر الإرادة وحب النصر،
والرغبة في الانتقام من غريم قديم يريد تكرار الماضي..
وعمّت الرغبة المتوحشة قلوب الجميع ليبدأ الزحف شرقاً
نحو (كنعان)..

لم تجانب كلمات (تحتمس) الثالث في الأغلب الحقيقة،
فبالرغم من اتساع نطاق دولة (كنعان)، من (غزة) جنوباً،
ومن السواحل الفينيقية حتى (أوجاريت) بالشمال
الغربي، وقاعدة جبال (يهودا) و(السامرة) شرقاً، ثم شمال
هذه الجبال عبر وادي (جرزيل) ووادي (البقاع) وانتهاءً
ب(قادش) بأقصى الشرق، كل هذه البلاد لم تكن هي مصدر
الملوك الرعاة الذين احتلوا (مصر)، بل كانوا مجرد عابرين
ل(كنعان) آتين من مكان ما بالشمال أو الشرق، متسلحين
بتقنيات حضارات الرافدين المتعاقبة وبلاد (ميتاني)،
وبالتالي فبالسيطرة على هذا الممر الحيوي لهم ينتهي
خطرهم..

عسكر الجيش في مواجهة جبال (الكرمل) جنوباً، وقام
(تحتمس) بعقد اجتماع طارئ وحيوي مع قواد الجيش، فلم
يعد بينهم وبين تحالف خصومهم إلا الالتفاف حول هذه
الجبال وملاقاة خصومهم المنتشرين خلف الجبال كالجراد..
وفي خضم اجتماع شمل جميع القواد وشجعان الجنود، قال

الملك مشاورا إياهم:

- إن اللئيم الساقط أمير (قادش) قد اتجه نحو (مجدو) خلف هذه الجبال، وأقام فيها قيادة جيوشه وقد التف حوله حلفاؤه ورؤساء البلاد الموالية للتحالف ضد (كيميت)، جيوش أتت من خلف النهر المقلوب ومن (ميتاني) ومن أقاصي الشمال المجهول - يقصد (أوروبا) - ومن سواحل (فينيقيا).. إن (مجدو) نفسها مدينة مهمة، تعتمد عليها عشرات المدن للحماية والتجارة، لديها أراضي زراعية شاسعة، وكذلك إمداد مائي يأتي من تحت الأرض.. أشيروا عليّ..

أشار قائد بالإذن بالحديث ثم قال:

- لقد اتخذوا حذرهم جيدا سيدي.. رغم نجاحنا في التسلل كل هذه المسافة - وهو نجاح في حد ذاته - فقد تم رصد وجودنا وتحركاتنا.. إن مدينة (مجدو) نفسها - كسائر مدن (كنعان) - مشيدة فوق متراس شديد الارتفاع كحصن طبيعي ضخم تحوطه المنحدرات من كل جانب، يستحيل اختراقها.. لقد حشدوا جيوشهم خلف الجبال من الناحيتين، لا يمكن اختراق الجبال فالمرمر - ممر (عارونا) - ضيق للغاية وبالكاد يكفي جندي واحد ليمر في أغلب مناطقه مما سيضطرنا لخفض وتيرة تقدمنا خلاله باستمرار، وإن اجتزناه سيصل

أول جنودنا لنهايته قبل أن يكون آخر جنودنا قد تحرك من هنا، كما يمكن لجماعة قليلة من قاذفي الأسهم متمركزة على نهاية قمم الجبال الداخلية المحيطة بالممر الضيق أن تبديد الجيش كله في لمح البصر، إنهم يعلمون هذا جيداً لهذا اختاروا موقع معسكرهم بعناية، وهكذا علينا أن نختار إما الزحف باتجاه الشرق أو الغرب من الجبال.. ولا أحتاج جواسيس لأعلم علم اليقين أن كلا المخرجين سيكون مدججا بالجيوش المنتظرة بتحفز منذ الآن..

سأله (تحتمس) الثالث وهو يوجه السؤال للجميع وليس لهذا القائد فقط:

- وما الحل إذًا؟ هل نتراجع؟!

ولم يجب الملك إلا صمت هادر مخيف مقبض منذراً!

الفصل الثامن

(ستخترق جلالتي طريق (عارونا) الوعر، وقسمًا بحياتي وبحياة (رع) الذي يحبني، وقسمًا برحمة (آمون) الذي سيعاونني، وبنسمات الحياة التي تختلج بأنفي، فليبق معكم من يرغب في اجتياز أحد الطريقين الدائريين المحيطين بالجبال، وليتقدم من يشاء مع جلالتي، فإن هؤلاء الأعداء الذين يكرهون (رع) سيظنون أن جلالتي قد اتخذ الطريق الآخر وابتعد عن هذا الطريق الوعر خوفًا.. وجلالتي لا يخاف!)

كانت كلماته قوية مؤثرة لم تترك لأحد فرصة ليأخذ الرأي الآخر، وافقوه جميعًا -حبا وثقة فيه- ليتم حشد الجيش وبدء تحركه عبر المضيق الضيق، وتم تفكيك العربات الحربية وحملها كما يتم حمل المؤن، وهكذا قطع الجيش الطريق المختصر غير المتوقع والذي ينتهي بوادي (قينا) ثم هضبة مسطحة تطل على مدينة (مجدو) مباشرة.. وخدم الحظ -أو القدر- الملك فلم يلق تحالف أعدائه بالا لهذا الطريق، ولم يظنوا أنه سيسلكه ليقينهم أنه يعلم أن حفنة من الرماة على طرف الطريق لقادرة على إفناء جيشه عن بكرة أبيه، كانت مخاطرة أشبه بمقامرة، كانت أكثر المخاطرات التي ربما يذكرها التاريخ يوما ما، ولكنها

جاءت بنتيجة لا يمكن لأحد أن يحلم بها، فقد عبر الجيش كله بدون أن يتأذى جندي واحد، وتم إعادة تركيب العربات الحربية كلها، وخلال ساعات قام (تحتمس) بتقسيم الجيش لجناحين وقلب، كانت المرة الأولى التي يتم تقسيم جيش فيها بهذا الشكل، وكان لهذا التقسيم هدفه، فجيش أعدائه مقسم لجزئين، ينتظره كل جزء عند أحد المخرجين المتوقعين، وهكذا فوجئ العدو بالجيش المصري الرهيب بداخل داره، يشطر جيوشه من المنتصف، ويطل مباشرةً على أبواب مدينته المحصنة..

كانت مفاجأة مزلزلة حقا قذفت الرعب في قلوبهم، حتى أن من بداخل المدينة أغلقوا أبوابها خوفاً من الجيش المصري، ووجد جنود العدو أنفسهم بين الجيش المصري أمامهم، وخلفهم أبواب مدينتهم مغلقة، فضعفت عزيمتهم وخسروا بمنتهى السرعة أمام جنود الجيش المصري المنظم، وفروا من الساحة تاركين عرباتهم الحربية كما هي، والخيام التي تعج بالكنوز والأسلحة أيضاً، ولولا طمع المصريين في ما تركوه أعدائهم خلفهم وتركهم لهم يهربون لأمكنهم قتلهم جميعاً بأمرائهم وبسيدهم أمير (قادش) نفسه، ولكن تجميعهم للغنائم مكّن خصومهم من الفرار، وغضب (تحتمس) غضبا شديداً، واضطر لحصار المدينة لسبعة شهور كاملة قبل أن تستسلم له المدينة شديدة التحصين

والتي لا يمكن الاستيلاء عليها إلا بالحصار.. وكان النصر المبين لـ (تحتمس) الثالث بسبب قرار جريء واحد فقط أكثر من قوته وقوة جيوشه.. وسارع الأمراء المحيطين من الكنعانيين بتقديم فروض الطاعة للملك الجديد المظفر..

كانت أولى حملاته التي أثبت فيها أنه ملك لا يستهان به، وأتبعها بثلاث حملات عسكرية أخرى لـ (كنعان) ليثبت سيطرته، ولكنه لم ينجح في هزيمة أمير (قادش) الفارّ حتى الآن..

ثم كانت حملته الحربية الخامسة نحو سواحل (فينيقيا) والتي فاجأهم فيها باتخاذ البحر لمفاجأة الأسطول الفينيقي وهو بعقر داره، يبدو أنه كان أسلوب هذا الملك المغوار المفضلة، فقام بشن هجوم خاطف سيطر به على الأسطول الفينيقي، ثم تم نقل الجيوش المصرية البرية عن طريق البحر في تقنية جديدة لم تحدث من قبل، وشن حربا شرسة نجح بعدها في فرض سيطرته على هذه السواحل الغنية..

ظهر أمير (قادش) في الساحة مجددا مؤلّبا عددا من الأمراء على (مصر)، فقام (تحتمس) الثالث بشن حملة سادسة استهدفت (قادش)، وضرب حولها حصارا طال أمده لدرجة بدء ثورة المدن الساحلية الفينيقية عليه، ولكنه كان صبورا وتجاهلها حتى دانت له (قادش) أخيرا وسقطت بين

يديه، وكانت (قادش) هي الخطوة التي تسبق غزو وإخضاع (ميتاني) التي تعمل في الظل لشحن الثورات ضد (مصر)، ولكن كان (تحتمس) حكيما فعاد للسواحل الفينيقية لإخماد ثوراتها بشكل نهائي في حملته السابعة، فقد كانت هذه الثغور نقطة الوصل البحرية بين (مصر) وبين (كنعان)..

ثم يَمَّم الملك المصري وجهه شطر (ميتاني)، حجر العثرة الأقوى في وجه سيطرته على (كنعان) و(سوريا) بالكامل، وقام بحملته الثامنة الأسطورية، والتي عبر فيها نهر (الفرات) كما فعل جده العظيم (تحتمس) الأول، ثم قام بغزو إقليم (قطنة) بطريقة فريدة، أعد كثيرا من السفن ليعبر بها النهر متجها نحو (قرقميش)، كانت هذه السفن قد تم بناؤها قرب (جبيل) بأخشاب من جبال (لبنان) القريبة، ثم نقلت برًا ل(قرقميش) على متن عربات تجرها الثيران في تقنية لم يستخدمها ملك من قبله في التاريخ قَطَّ.. كان خصمه ملك (ميتاني) خصما لا يستهان به، وكانت حربا ضروسا لم يتوقع (تحتمس) الثالث مثلها ولكنه انتصر في النهاية، ثم انتشر بقواته شمالا وشرقا ليستكمل تحطيم كل معاقل العدو، وهكذا تمكن من تجاوز إنجازات (تحتمس) الأول الذي كانت حدود آخر حملاته هي مدينة (قرقميش)، فابتسم (تحتمس) الثالث وهو يرى لوحة النصر التي نقشها جده هناك، ونقش لوحة أخرى بجوارها تحمل نصره، ووضعها بجانب لوحة

جده الأعظم، وهكذا وصل (تحتمس) الثالث لأقصى ما وصله ملك مصري بعمق (آسيا) السوري.. وساد الرعب من المصريين بين جيران (ميتاني) من حِيثيين وبابليين وآشوريين، وأرسلوا سفرائهم للملك المصري -الإمبراطور- بالهدايا من الفضة والأحجار الكريمة والأشجار النادرة، ولكن رغم كل هذا لم ينس (تحتمس) الثالث أن ملك (ميتاني) قد نجح في الفرار..

قام بحملة حربية تاسعة لإخماد مزيد من الثورات بالبلاد الفينيقية.. ثم عاد ملك (ميتاني) للظهور مجددا في الساحة بأن جمّع الحلفاء وأعلن الحرب على (مصر)، كانت جيوشه جسارة لا يمكن حصرها ولكن نجح (تحتمس) الثالث في هزيمته مجددا في حملته العسكرية العاشرة، وجمّع هذه المرة أكبر قدر من الغنائم غنمه في كل حروبه..

ثم أرسل ثلاث حملات أخرى لفرض مزيد من النفوذ المصري.. ثم كانت الحملة الرابعة عشرة للقضاء على بدو (الشاسو) الذين يقطنون غرب (آسيا) ويثيرون الكثير من القلاقل.. ثم كانت حملته الخامسة عشرة الآسيوية لجمع الجزية من الحِيثيين وبلاد (قبرص).. لم يكف الملك المصري عن الحملات بمنتهى النشاط ليسارع بإخماد الثورات بمجرد ظهورها، وقد كان لل(هكسوس) دور كبير في تأليب الجميع

على السيادة المصرية..

ثم ظهر أمير (قادش) مجددا في الصورة، أعاد تنظيم جيوشه وضاعف من تحصينات مدينته، وتواصل مع الملك الميتاني الموتور ليتحالفا ضد (تحتمس) الثالث.. فزحف نحوهم الملك بجيوش جرارة من الشجعان، فقضى على كل مقاومة في طريقه، ثم هاجم (قادش) واخترق أسوارها الحصينة، وانتهى بهذا آخر نفوذ آسيوي في عصر (تحتمس) الثالث بالقضاء على آخر فلول (الهكسوس) والميتانيين و(قادش) وحلفائها، وأصبحت السيادة المطلقة للجيش المصري الأسطوري بالإقليم الشرقي كله..

ثم استكمل آخر حملاته -السابعة عشرة- جنوبا ب(النوبة)، حيث قضى على ثورة محلية قامت هناك، ليتمد نفوذ (مصر) حتى الجندل الرابع..

الفصل التاسع

معبد الإله (آمون) الكبير - (الكرنك) حالياً..

على آخر أضواء أشعة الشمس الغاربة، وقف الوزير (رخ مي رع) ينظر للنقوش الجدارية بحنين، كان يتلمس النقوش وكأنه يريد أن يعيش الأحداث مرة أخرى، تعجب الفتى ذو الخمس عشر ربيعا من ما فعله الوزير، كان الفتى يرتدي نقبة ملكية ويضع على رأسه تاجا ملكيا تتقدمه الحية الحامية، كانت ملامحه تحمل كثيرا من ملامح وجه أبيه (تحتمس) الثالث، والذي دانت نهايته وشارك وريث عرشه معه في الحكم، الأمير (أمنحتب) الثاني والذي ورث كثيرا من خصال أبيه الأسطوري، فقد اشتهر بقوته الهرقلية، فلا يمكن لأحد غيره أن يشدّ القوس الخاص به، كان رياضيا عظيما وجنديا بارعا أيضا..

سأل الوزير (رخ مي رع) الأمير (أمنحتب) الثاني بتهذيب:
- أيمكنك أن تقرأ هذه النص بصوت عالي.. واستحضر روح أبيك المقاتل من بين السطور..

تعجب (أمنحتب) الثاني ولكنه لم يكن يرفض للوزير المقرب من أبيه طلبا، فأخذ نفسا طويلا ثم بدأ يقرأ النقش السردي التاريخي:

- لقد اتبعث الملك (من خبر رع) -أي (تحتمس) الثالث- وشاهدت انتصاراته التي حققها في كل بلد.. لقد أحضر أمراء (سوريا) و(كنعان) و(فينيقيا) و(نهارين) -أي (ميتاني)- كأسرى أحياء ل(مصر)، واستولى على جميع مدنهم وقطع بساتينهم.. وقد قمت بتسجيل جميع الانتصارات وكتبتها وفقا للحقائق.. تأمل.. لقد أمر جلالته بتسجيل الانتصارات التي حققها طيلة حكمه المديد، ليمنحه الإله (آمون) الحياة للأبد..

صمت (أمنحتب) الثاني ثم سأل الوزير بفضول:

- من هذا الكاتب الذي عاصر كل الحملات العسكرية بنفسه مع جلالة الملك العظيم أبي (تحتمس) الثالث؟

أجابه الوزير باقتضاب:

- إنه الكاتب الرسمي (ثاني) الأثير لدى جلالة الملك إلهنا..

نظر (أمنحتب) بعيدا، صارع أفكارا بداخله، ثم حولها لكلمات منطوقة قائلا:

- لقد ملأ جلالة الملك القصر بأمراء آسيويين.. لم أحب هذا.. لماذا يضج القصر بالأجانب، يعيشون عيشة ملوك بأرضنا..

- إنهم أمراء وأولاد ملوك بالفعل..

- إنهم مجرد أسرى..

- هذا واقع، ولكن هذا لا يغير نجاح سياسة جلالة الملك في تهديد من يقع بيده من خصومه من الملوك بأن يأخذ أولادهم ليتعلموا بالبلاد كيف يصبحوا حكاما مستقبليين للأقاليم الخارجية الآسيوية، فقد كان هذا يقلل من فرص تمرد الملوك لاستيلاء الملك على أولادهم، بالإضافة لخروج الأمراء بثقافة وهوية تجعل ولاءهم المستقبلي للملك أكثر من بلدانهم.. لقد كان تفكيره صائبا كالعادة..

مط الأمير شفتيه بعدم رضا قائلا:

- لا أتفق.. لنقتلهم جميعا ونذبح نساءهم وأطفالهم..

- هذه سياسة أخرى..

- لكل سياسة..

- لم يكن جلالة الملك دمويا طيلة سنين حكمه المديدة.. كان مخططا بارعا وحكيما وسياسيا من الدرجة الأولى.. وأعظم من حَكَمَ (كيميت) -والعالم كله- يوما ما.. لم يكن مجرد ملك محارب، لقد كان لجلالته اهتمام خاص بعلوم النبات، لقد كانت حملاته العسكرية تصاحب بعدد من الكتب

مهمتهم هي تدوين وتسجيل أي نوع غريب من النباتات والزهور بالبلاد الأجنبية، وكان ينقل عددا كبيرا من هذه النباتات للبلاد لزراعتها، لقد كان ينقش بنفسه صور هذه النباتات على الجدران.. كما جذبت الحيوانات انتباهه، وكان يقضي فترات طويلة بالأيام بالقرب من مستنقعات (سوريا) يدرس ويصطاد الفيلة..

هز (أمنحتب) الثاني رأسه بعدم اقتناع مكررا:

- لكل سياسته!

نجحت سياسة (تحتمس) الثالث في حماية البلاد من أية أطماع خارجية، كانت حملاته العسكرية فعّالة في فرض نفوذ مصري لم يحدث من قبل بالعالم القديم، وهكذا لم يعد يخرج مجددا في حملات عسكرية بنفسه إذ لم تعد ضرورية للسيطرة على هذه المناطق التي صارت مصرية بالكامل..

استمر نهجه في تولية حكم الأقاليم الشرقية للأمراء ممن تربوا ب(مصر) ودانوا لها بولاء لا يتزعزع، وصارت الجزية تأتي لخزائن (مصر) من كل مكان..

وفي سنوات حكمه الأخيرة -التي تركها لابنه الدموي (أمنحتب) الثاني- انشغل بالعديد من مشاريع البناء العظمى،

فقد كان الملك المصري ليس مقاتلا ومخططا بارعا فحسب، بل كان بئاءً عظيمًا أيضًا، نفذ العديد من الأبنية ب(الكرنك) والدير البحري ومدينة (هابو) و(الكاب) و(هليوبوليس) والنوبة.. بالتزامن مع برنامج موازٍ لمحو اسم (حتشبشوت) قدر ما استطاع، محاولا إزاحة مكان لابنه الأمير ووريث العرش..

ثم مات العظيم (تحتمس) الثالث أعظم ملوك (مصر) المحاربين بعام حكمه الرابع والخمسين، وبمجرد سماع خبر وفاته سارع بعض أمراء (كنعان) بالثورة، ولكن عاجلهم (أمنحتب) الثاني بإخماد الثورات بمنتهى الوحشية، ثم أرسل حملات أخرى -عقابية- ل(كنعان) ليسيطر على عنفها بعنف مماثل، فسارعت (ميتاني) والبلاد المجاورة بمبايعة الملك الجديد وعرض اتفاقية سلام.. فقد بدا واضحا للجميع أن هذا الشبل من ذاك الأسد..



(قصة الملك المارق والزوجة جميلة الجميلات)

((يَا أَقْدَسَ مِنْ كُلِّ آلِهَةٍ..

الْحَمْدُ لَكَ يَا مَنْ تَشْرُقُ ذَهَبِيًّا..

أَيُّهَا الْمُضِيءُ الْعَظِيمُ الَّذِي يُشْرِقُ مِنَ الْمَاءِ الْأَزَلِيِّ..

يَضُمُّ أَسْرَتَهُ مَعًا فِي الْمَاءِ جَاعِلًا الْبِلَادَ فِي عِيدٍ..

أَنْتَ الَّذِي يَحْمِي بِعَظْفِهِ وَجُودَهُ..))

من السطور ٣٢ و ٣٣ الفصل ١٥ اللوحة ٢١ من كتاب
الموتى

الفصل الأول

القصر الملكي ب (طيبة) جنوبا..

وقفت الملكة (تي) تحقق مطوَّلاً في زوجها الملك (أمنحوتب) الثالث العظيم، كان يجلس على كرسيه الملكي ذو الظهر المطعَّم بالأحجار الكريمة، بقلب بهو القصر الرئيسي، ينحني على مائدة منخفضة قليلاً، تحوي ما لذَّ وطاب من لحوم الطيور والفواكه وأقداح الشراب مختلف ألوانه، لم ينتبه لوجودها لعدة دقائق، كانت شهيته مفتوحة -كما هو حاله دائماً- يأكل وكأنه يتناول آخر زاده، ابتسمت الملكة بحنوّ وهي تراه بأعينها المحبة يرنو إليها بعد أن انتبه لوجودها أخيراً..

لم تكن تغطي رأسها، لم تكن ترتدي ملابسها الملكية، فقط رداء كتاني فضفاض يمتد لأسفل ركبتيها بقليل، وشعرها الأسود المجعد بشكل جذاب ينسدل على كتفيها، بينما كانت ملامح وجهها هادئة بغير قبح، وَجْهَهَا نفسه كان دائرياً يتميز بالوجنتين الممتلئتين، عيناها واسعتان مكحولتان وأنفها متوسط الحجم مرتفع قليلاً، وشفتاها غليظتان مضمومتان على الدوام مما ينم عن قوة شخصية أصيلة وراثية، وينتهي وجهها الأسمر المنتمي لصعيد (مصر) -تحديداً (أخميم)- بذقن عريضة كجبهتها، وتَحَلَّتْ صفائر شعرها الكثيف بزواج

من قرون البقرة -الإلهة (حتحور)- والتي لم تكن تخلعها إلا فيما ندر.. كانت نحيفة قصيرة بشكل لم يقلل من جاذبيتها، وإن كان الشطر الأكبر من جاذبيتها نابع عن شخصيتها القوية التي يحبها (أمنحتب) الثالث، القوية لدرجة التسلط أحيانا، وفكر الملك في أنها لربما كانت ملكة على (مصر) في عالم آخر تتزوج فيه رجلا لا يميل للسلطة، كأخيها الكاهن (عائن) على سبيل المثال، امتعض قليلا عند تفكيره في نقطة العزوف عن السلطة، فقد كان ابنه الأكبر -ووريث عرشه المحتمل- (أمنحتوب) الرابع لا يبدي أية ميول للحكم والسلطة والحرب، يكتفي فقط بالجلوس لساعات بالفضاء يتأمل الطبيعة بصمت بعيون حاملة.. وسأل نفسه بتعجب من أين له مثل هذه الشخصية المتناقضة تماما عن شخصيتي أبيه وأمه..

أشار لها لتنضم لمائدته بدون أن يتكلم، كان يحبها حبا جما، لم تكن دماؤها ملكية -وإن كان والداها يشغلان مناصب راقية بالدولة- ولكن لم يمنعه هذا من الزواج منها بإصرار، متحديا الكهنة والتقاليد الدينية المصرية المعتادة بتزاوج الأخ من أخته للحفاظ على الدماء الملكية النقية من الاختلاط بدماء العامة، ولم يكن مخطئا في قراره هذا، فرغم ما ثوليه له زوجته المحبة (تي) من مشاعر لم تفتربع الزمن، ومن مساندة في الرأي السياسي يُغْتَدَّ بها، ولكن

يمكن بوضوح رؤية السمات الملكية القوية على وجه ابنتهما الكبرى -وزوجته في نفس الوقت- (سات آمون)، والتي يمكن القول بدون شك إنها ملكة مستقبلية منذ الآن، وليس هذا لأنها زوجة الملك فقط، ولكن لأنها أيضا بنت الملكة (تي) العظيمة التي هي بمثابة مستشارة شخصية له، الملكة (تي) التي تميزت باحترام الجميع بما فيهم الشخصيات الأجنبية، وكان القادة الأجانب على استعداد تام لمقابلتها ومناقشتها في أمور السياسة في ساعات غياب الملك الطويلة، الملك الذي كان رياضيا جسورا عاشقا للهواء الطلق، محبا لرحلات قنص وصيد الأسود والثيران رغم تقدم العمر به نسبيا، فلم يكن يعترض على تسجيل اسم زوجته على المعاملات الرسمية الداخلية منها والخارجية..

ولما تراءت لعقله صورة ابنه الأكبر الذي لا يهتم لأمر الحكم سارع بطرد الذكرى من عقله، ما زال شابا صغيرا وستكفل الأيام بصقل رغباته وتطويعها وإصلاحها، ولم يكن هناك ما يمكن جعله قلقا من الموت، إذ أنه على يقين أن زوجته (تي) قادرة على الأخذ بزمام أمور الملك لحين نضج الطفل الشاب وتأهله للحكم، بالإضافة للملكة الصغيرة المستقبلية (سات آمون) والتي اضطر هو نفسه -الملك- للزواج منها؛ لعزوف وريث العرش عنها وتحول اهتمامه لأخت أخرى غير شقيقة..

هزت رأسها نفياً لرغبته في أن تشاركه الطعام، ولكنها اقتربت منه وانحنت لتطبع قبلة سريعة على جبينه، قبل أن تجلس بجواره على كرسيها الملكي الخاص، تتابعه وهو يتناول إفطاره بشغف، وتتداعى الذكريات لرأسها.. (إنه ابن الملك (تحتمس) الرابع الملقب بسيد العدالة والنظام، وحفيد (أمنحتب) الثاني ابن المهيب (تحتمس) الثالث، إنه عظيم أتى من نسل العظماء..)

لم يكن يضع غطاء الرأس الملكي بدوره، مكتفياً برأسه الحليقة، وبرزت ملامح وجهه لتنم عن شباب لم يبلى بعد رغم زحف العديد من التجاعيد لأسفل عينيه، وكانت ملامح وجهه ضخمة بشكل واضح، ولكنه امتلك تلك النظرة الطفولية التي لم تفارق عينيه بعد، كانت فترة حكمه تعد من أعظم فترات البلاد قوة ورفاهية، امتلأ البيت الأبيض بأموال الجزية، توسع في التجارة الخارجية على نهج من سبقه من ملوك عظام، بالإضافة لجلبه لأمهر الصانع الأجانب ذوي الخبرات ليزيدوا من جلال ورفاهية بلاطه الملكي، كما نما في عهده بناء المعابد الضخمة، واشتهر ببناء معبد ضخم ب(طيبة) سَجَّلَ على جدرانهِ قصة مولده نصف الإلهي، كما كان بلاطه زاخراً بالفنانين من شعراء ورسامين ومثّالين ومغماريين وراقصين وموسيقيين..

تنهدت الملكة (تي)، فهي تحب زوجها حبا جما، ولكنها شعرت بغريزتها بالغيوم آتية تهدد صفو حياتهم الملكية، لقد أصبح (أمنحوتب) الثالث العظيم مسنا، صحيح أنه لا يزال محافظا على لياقته، يقوم برحلات صيده الدورية باستمرار وبنجاح، ولكنها تكاد ترى ذلك اليوم المظلم يطل من الأبواب كزائر غير مرغوب به على الإطلاق، يوم عودته مصابا جريحا جرحا قاتلا، أو يوم مرضه..

شعر بقلقها الخفي فسألها بفم مليء بالطعام:

- ماذا يدور بخلد مليكتي الكبرى؟

ابتسمت له لتطمئنه، علاقتهما أشبه بعلاقة مفتوحة يمكنهما خلالها قراءة أفكار بعضهما البعض، مدّت يدها لترتّب ذراع زوجها القوية وهي تقول:

- لا شيء.. فقط بعض الرسائل الملكية التي قرأتها بالأمس.. هناك بعض التهديدات الجديدة من جهة الشرق.. الحيثيون لا يهدون أبدا ولا بد من يد الإله لتبطش بهم باستمرار وتحدّ من أطماعهم..

سرح في قطعة لحم أمامه بدون أن يفتح فمه ليأكلها، ثم غمغم بعد تفكير:

- لابد أن يكون الملك نفسه على رأس الجيش.. قوة

الحيثيين لا يجب الاستهانة بها.. لقد ورثت عن أسلافي
إمبراطورية مترامية الأطراف حقا..

- وقمت بالحفاظ عليها كما يجب.. وزدت عليها بما شيّدته
من معمار سيخلده التاريخ باسمك..

تابع وكأنه يكمل كلامه ولم يسمعها:

- وما زال (أمنحتب) الرابع صغيرا..

ولكنه اعترض على ما قاله سراً، ليس صغيرا، إنه في
السادسة عشر من عمره، وعندما كان هو في مثل عمره كان
بارعا في رمي السهم لدرجة تلقيبه بيد الإله (آمون)، وكان
لديه قوس خاص به، قوس ثقيل لا يمكن لغيره شدّ وتره..
كما كان جده الأكبر والأعظم (تحتمس) الثالث قائدا للجيش
في مثل عمره.. الحقيقة المؤسفة أن وريث العرش القادم
لم يكن يهتم بأمر الحرب.. لا يهتم للحكم بشكل عام.. وهذا
يُعطي المجال للأعداء من الداخل قبل أعداء خارج الحدود..

وكانما التقطت (تي) طرف الخيط منه، رددت بقلق:

- الكهنة.. كهنة (آمون)..

- الوصوليون! لقد أرسلت لهم لتوي قائد كتيبة الفرسان
القائد (حور محب)، إنه قوي حقا، لم يخشاهم وبادر بتغيير

رؤوسهم بُناءً على أوامري.. لم يتوانى أو يتردد لحظة..

- هذا عمل لا بد منه.. تغيير الرؤوس الخبيثة باستمرار..
ولكنك تعلم جيداً أن من سيأتي على رأسهم لن يكون مُعيّناً
لك مهما بلغ ولاؤه.. الكهنة أنفسهم قوة باطشة متحدة
بإمكانهم جعل أي قائد من جهتك توليه عليهم وكأنه نكرة..

ابتسم بتلذذ متسائلاً:

- تخشين الكهنة؟

- لا أخشاهم ولكني لا أقلل من نفوذهم..

- لا يجب أن يفعل أي ملك خطأً مثل هذا، لكهنة (آمون)
غرور وطلبات وطموح لا يقف عند حد، لقد أصبحوا أكثر
قوة منذ أن تَرَبَّى (تحتمس) الثالث على أيديهم.. ووقفوا به
في وجه الملكة قوية الشكيمة (حتشبسوت)..

صمتت (تي)، فكرت كثيراً بتردد قبل أن تحسم أمرها
وتقول:

- إن كانوا نجحوا في فرض رأيهم - ولو جزئياً - على ملكة
مهيبة مثل (حتبسوت)، فلا أستبعد أن يجعلوا الملك القادم
العبوة بين أصابعهم الخبيرة المحبة للهيمنة..

كانت تشير بوضوح لضعف وريث العرش وميوله غير

السياسية أو الحربية.. ولكن رد عليها (أمنحتب) الثالث
بضحكة عالية أراد بها أن يبدد قلقها، وقال بعد أن وضع
الطعام وفقد شهيته تماما:

- مخاوفك لا أساس لها من الصحة، لا يستطيع أحد أن
يتلاعب بالملك، لن ينالوا منه شيئا، فكما فعلت وتزوجتك
رغما عنهم وعن تقاليدهم البالية، سيفعل ابني الأكبر المثل،
سيفعل ما يريد رغما عن أنوفهم..

لم يكن يدري حينها كم كان صادقا، كانت كلماته نبوءة
ستتحقق بالفعل.. نبوءة صادقة لحد مؤلم.. لحد تدمير البلاد
كلها..

احتضنته بقوة وغاب الاثنان في عناق حار بث فيه كل
منهما قلقه ليزوب في كيان الآخر، ثم انفصلا بلطف، ليصفق
بعدها بيديه لتأتي الفتيات وتقوم بالتخلص من بقايا الطعام،
وتنحني بين يديه خادمة نوبية هادئة تغسل يديه بالزيوت
العطرية، وهو ينظر لخدم البلاط ويصيح بملء فيه:

- أين الراقصات؟ أين الموسيقى؟ أين أولادي؟ أين
(أمنحتب)؟

ومع دخول صف الراقصات وأنغام الجنك وإيقاع الأذرع
المصفقة والصنوج، أضاف بنبرة أكثر انخفاضا مخافة

إغضاب حبيبته الملكة:

- أين (نفرتيتي)؟

ولكنه كان مخطئاً في مخاوفه، فبالرغم من أن ابنته -الطفلة الجميلة- (نفرتيتي) لم تكن ابنتها ولم تأتي من رحمها، وكانت ابنة الملك من زوجة أخرى، ولكنها كانت تكنّ لها حبا جما واحتراما، وتعاملها كابنتها الكبرى (سات آمون) أو أكثر، وتعلم أن الملك سيؤول ل(نفرتيتي) وليس لابنتها التي من صلبها كالمتبع، فقد كان الابن كالأب لا يتبع التقاليد ومن شابه أباه فما ظلم، وكان عشقه وهيامه لأخته غير الشقيقة لا يغيب عن أحد بالبلاط الملكي كله، مما نسف تماما من فكرة زواجه بأخته الشقيقة ودفع أباه للزواج منها بنفسه، ولكن من يمكنه لومه على كل حال، فلا يمكن لأي إنسان مقاومة جمال (نفرتيتي) الإلهي حتى وإن كان طفلا..

الفصل الثاني

بعد قليل مالت الشمس قليلا للأعلى لتبدأ في أن تحتل كبد السماء، وترسل بحرارتها بشكل أقوى وأكثر عنفا على الموجودات، على الجبال الصخرية الجرداء فتغمرها بالأشعة القوية، على رمال الصحراء الشهباء والمزارع الخضراء وأعمدة القصر الملكي الذهبية فتزيدها بهاءً، وعلى صفحة مياه البحيرة الصناعية الجميلة التي توسطت حديقة القصر الملكي، المياه التي اهتزت لتصنع أمواج متتالية لا تتوقف إثر حركات مجدافين كان يستخدمهما صبي يجلس بزورق خفيف مصنوع من سيقان البردي، بجانب فتاة شديدة الجمال تبدو أصغر منه سنًا بقليل..

الصبي شديد النحافة محنّى الظهر قليلا كالأحذب، كتفاه ضيقتان منحدرتان، وأطرافه رفيعة تكاد تبدو أسفل ثوبه الشفاف كأزواج من سيقان بردي نحيلة، امتلك وجهها طويلا توسّطته زوج من عيون غائرة لا تتماشى مع عمره، نظراته حالمة لا تستقر إلا على الجبال البعيدة والسماء القاصية، شفتاه ممتلئتان لا تكثران من الكلام، ولكن كان عقله يعمل بشكل دائم ليعوض هذا الصمت.. لم يكن شكله جذابا بشكل عام على النقيض من الفتاة شديدة الجمال المصاحبة له..

أقصر منه قامة ولكنها أجمل تكوينا بكثير، في الواقع في

إن المقارنة بينهما كانت ظالمة لأبعد الحدود، هذه الفتاة كانت أجمل بنات (طيبة) بوضوح - أن لم تكن أجمل بنات البلاد كلها.. جسدها متناسق بشكل كامل.. رأسها يرتكز فوق عنق نحيل كزهرة لوتس رقيقة، وتضع بالفعل زهرة لوتس جميلة فواحة بوسط شعر رأسها القصير حالك السواد الكثيف، وكأنها تريد تأكيد وجهه الشبه بينهما.. عيونها واسعة مستطيلة مكحولة، أنفها مستقيم دقيق وشفثاتها مكتنزتان تطوقان فمًا شديد الرقة، وأسفل هذا الوجه المليح تواجد ذقن مدبب دقيق بديع المثل.. إنها حقا كاملة التكوين، مما تناقض بشكل واضح مع تكوين الفتى المنفر..

إنهما أخوان غير شقيقان، كلاهما من ذرية الملك العظيم (أمنحوتب) الثالث، إنه الأمير ووريث العرش (أمنحوتب) الرابع والذي لم يرث عن أبيه غير اسمه، ولم يرث من أمه الملكة (تي) شيئًا فيما يبدو، بينما كانت الفتاة ومحظية الأمير هي (نفرتيتي)، بنت الملك من زوجة أخرى، إنها أميرة بالفعل ولكنها لم تكن أميرة ملكية، لم تكن مثل الأميرة (سات آمون)، ولكنها تفوقت عليها باستحواذها على قلب الأمير لتصير هي الأميرة الملكية القادمة غير المعلنة..

سقط المجداف من بين أصابع الأمير، كان سارحا في السماء متسع العينين فاغر الفم وكأنه يحلم مستيقظا،

لم تتعجب (نفرتيتي) إذ لم يكن هذا التصرف غريبا عن (أمنحوتب) الرابع المحب للتأمل لدرجة مَرَضِيَّة، الباحث عن الحقيقة دائما كما يحب أن يصف نفسه.. استرجعت المجداف وبدأت هي تستكمل التجديف بقلب البحيرة الصناعية المُسَوَّرة بالأشجار القصيرة، ورغم عدم اتساق ملامح وجهه ولكنها نظرت لعينييه الحالمتين بإعجاب.. لقد كانت هاتان العينان الداكنتان قادرتين على انتزاعها من عالمها الحقيقي الواقعي، ودفعها دفعا للاستسلام لعمق أغوار عالمه البعيد الحالم.. ولا يمكنها أن تنكر -وهي ما بعد فتاة دون الخامسة عشرة- أن تنكر أنها تعشقه عشقا خالصا لا علاقة له بكونه وريثا للعرش..

سألته بهدوء مخافة أن تنتزعه من أحلامه الواعية:

- فيم أنت شارد؟

لم يرد عليها.. لم يبدو عليه أنه قد سمعها حتى.. كانت عيناه مثبتتان على قرص الشمس الأحمر.. كان يعيش حلمه الخاص بعالمه البعيد المنعزل.. كان يناجي قرص الشمس كما يناجي الحبيب حبيبه.. (إنه بداية كل شيء.. ذلك القرص الناري الحليم الغضوب هو أب الحياة وأمها.. بدونه لم أكن لأحيا.. بدونه لم يكن مخلوق ليحيا.. لم تكوني أنت جميلة الجميلات تشعين بهاء.. يا زهرة اللوتس البديعة..)

سألته وهي تنظر لقرص الشمس بدورها:

- تتأمل الشمس..

قال بدون أن ينظر نحوها:

- أتأمل أبانا.. أبو الوجود كلها..

- تعني (آمون رع)..

هز رأسه الطويل بصمت.. صمت بدا مخيفا في معناه
بالنسبة للفتاة.. عاد ليسترسل متابعا القرص الأحمر بؤله:

- كلا ليس هو.. ما أعنيه هو قرص الشمس.. (آتون).. مصدر
كل الحرارة والضوء والحياة.. انظري لأشعته، إنها أذرع تمتد
لجميع المخلوقات لتباركهم.. تبارك (كيميت).. تبارك العالم
كله.. إنها الله وحده لا شريك له..

توترت (نفرتيتي).. كان كثيرا ما يردد كلاما لا معنى له
أشبه بالهذيان، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى التي يجاهر
فيها بتقيؤ أفكاره المريضة على مسمع من أذنيها.. رددت
وقشعريرة مخيفة تسري بظهرها:

- ولكن.. (آمون).. الكهنة يعلموننا أنه هو إله الشمس.. هو
(رع).. ألا تؤمن بأي منهما؟

ثم استكملت بهمس لم يصل لأذنيه:

- ألا تؤمن بأي من الآلهة العظيمة؟

قال وكأنه يتجاهلها:

- عندما أصبح ملكا - وهذا قريب جدا- سأنادي بعبادة الإله الأحد.. (آتون).. سأكون أنا ابنه وستكونين أنتِ يا (نفرتيتي) -يا زهرة اللوتس الجميلة- ابنة له.. وسنكون نحن وسيطئين له بين البشر..

- (آتون) إله أعظم بين كل الآلهة؟

- (آتون) إله واحد أحد لا إله غيره!

- (آتون) إله لكل المصريين؟

- (آتون) إله لكل البشر!

قالت (نفرتيتي) سرًا (هذا كفر.. هذا تجديف.. هذا خروج عن الدين القويم.. هذا خطير..) ولكن لسانها كان يقول بشيء من الرقة:

- لن تجرؤ أبدا.. لن يجرؤ كلانا.. لن يسمح لك الكهنة بهذا.. كهنة (آمون).. ويوم تتويجك ملكا عظيما سينادون عليك ابنا ل(آمون رع) و(أوزيريس) الحي.. إنهم أقوياء..

التفت نحوها (امنحوتب) الرابع للمرة الأولى، والتمعت

عيناه لدرجة جعلت قلبها يتواثب طربا وعشقا، وقال
بانفعال:

- لقد تمادوا.. زاد نفوذهم أكثر وتنامي بكثير مما يجب..
إنهم ليسوا إلا كهنة لا أكثر، ليسوا حكاما أو ملوكا.. ليسوا نِدًا
للملك.. ليسوا نِدًا ل(آتون) الذي قرر أن يتحدث للبشر من
خلالي ويضع حدًا لكل هذه الآلهة التي لا تنفع ولا تضر أحدا
باستثناء الكهنة.. ألم تسمعي أمي -الملكة (تي)- وهي تقول
لوالدي هذا الأمر كثيرا؟ تشتكي من نفوذ الكهنة المتنامي..
ستساعدني على الوقوف في وجههم.. لا أشك في هذا.. كما
لا أشك لحظة في وقوفك بجانبني أيضا..

همست على الفور:

- بجانبك لآخر العمر.. ما زال أمامنا الكثير من القصص
لنعيشها، بحلوها ومرّها..

ثم استرسلت في أفكارها الخاصة بدورها بدون أن تعلن
عنها.. (سأساعدك قدر ما استطعت.. (آتون).. إله الشمس..
إنها فكرة جيدة ومنطقية.. إله واحد قادر بدلا من الآلهة
المتعددة.. لم أقتنع يوما ما بأن وجود هذه الآلهة حقيقي..
إنها ليست إلا وسيلة لثراء الكهنة المادّي، وتفوّق نفوذهم
على نفوذ الملك، ونشر الخرافات بين الناس بما يعضد من
نفوذهم الشعبي..) لم تجرؤ على قول أي مما فات.. خافت

من سماع صوتها وهو يتلفظ بهذه الكفر.. ولكنها وهبت
الأمير ابتسامة مشجعة وهي تترك المجداف لتمسك يديه
قائلة وهي تتأمل عينيه:

- كيف يمكنك أن تتحداهم جميعا؟ الكهنة ونفوذهم
والناس وإيمانهم بآلهة أجدادهم؟
أجاب بحماس:

- لقد تحدى أبي التقاليد من قبل.. لقد أحب فتاة من عامة
الشعب وتزوجها وجعلها ملكة عليهم جميعا.. لست بأقل من
أبي..

ثم أضاف وهو يحيط رسغها بأنامله بحب:
- ولست بأقل منه في العشق لزوجتي وملكتي المستقبلية..
ثم أضاف مستمتعا بتورد وجهها من الخجل:

- إن كان استطاع أن يسخر من تقاليدهم فلن أعجز عن
فعل ما فعله.. إن كان الملك (أمنحوتب) الثالث عظيما
فلن يقل (أمنحوتب) الرابع عنه عظمة.. يجب أن أعيش
بالحقيقة.. يجب ان أبحث عنها وأجدها..

صمتت (نفرتيتي) ولم تعلق.. شعرت بأن العالم كله
سيتعاون مع حماس الأمير ليحقق له كل ما يحلم به.. هذا

الحماس لا حدود له.. خامرها مزيج من إعجاب بالأمر وخوف عليه.. واكتفى الاثنان بالصمت وهما يعودان بالزورق لبرّ البحيرة وقد أنهكهما الفكر، وأعياهما البوح بالحقيقة.. ورأى كلاهما المستقبل يَعدُّ بالكثير رغم غموضه..

وفور توقف الزورق على البر، تواب الاثنان خلف بعضهما البعض -وقد عادا طفلين مرة أخرى- يتسابقان للوصول لباب القصر، بينما وقفت الملكة (تي) بالشرفة الملكية تراقبهما بحُبّ، تقارن بين غفلتهما كأطفال وبين المستقبل الذي لا يبدو أنه يبشّر بخير..

ثم مات الملك العظيم (أمنحتب) الثالث بعد ستة وثلاثين عاما من الحكم العظيم الذي سيخلده التاريخ كأحد أعظم ملوك (مصر) عبر التاريخ.. ولتبدأ صفحة جديدة من التاريخ تعج بالتقلبات والمفاجآت..

الفصل الثالث

جلس الاثنان وجها لوجه بالشرفة الملكية.. الأم الملكة (تي)، ترتدي كامل لباسها الملكي وحليها وزينتها وغطاء رأسها - التاج الملكي الطويل - وكأنها في مناسبة رسمية، وكذلك ابنها (أمنحوتب) الذي تقلد نقبته الملكية وتاجه المزدوج.. ملامح الأم جامدة، أخفت زينتها الكاملة بدء زحف تقدم عمرها على وجهها، ولكنها لم تنجح في إخفاء قلقها، وعندما يبدو القلق جليا على وجه الملكة القوية (تي) فهذا لا يعني أي خير.. بينما - وعلى النقيض - كان وجه الملك الجديد هادئا خاملا وكأنه لا يحمل للأمة أية أخبار مزللة للحكم كله..

قالت بهدوء ظاهري:

- بعد أن تَوَجَّك أخي الكاهن بتاج القطرين في (أرمنت).. لقد اختليتما ببعض لفترة ليست بالقصيرة..

قال بخواء:

- أراد توجيه بعض النصائح للملك الجديد..

- وهل يحتاج الملك الجديد لنصائح من كاهن؟

- يحتاج الجميع للنصائح.. لا يوجد من هو أكبر من النصيح..

ثم إنه أخوك..

- ولكنه كاهن!

سما بنظره للسماء، تتبع قرص الشمس المائل للغروب، رمقه بافتتان بالغ وهو يقول:

- إنه أحد كهنة الشمس بمعبد الشمس ب(أرمنت).. إنه كاهن جليل مخلص لعبادة الإله القديم (رع).. إنه حانق على كهنة (آمون) الذين اغتصبوا مكانة إله الشمس وجعلوه ملكا فقط لإلههم.. إنه يكرههم كما نكرهم تماما..

حدجته بنظرة صامتة، إنه شقيقها وتعلم جيدا ما يدور بمكنونات صدره، لقد أسر إليها عدة مرات بموقفه من كهنة (آمون) وإلههم بشكل عام، وموقفها من الكهنة بشكل عام كان واضحا، تماما كموقف زوجها الملك الراحل، والذي يعلمه جيدا ابنها الملك الجديد، ولكنها شعرت بغريزتها أن هناك ما هو أكثر بكثير من مجرد توافق في الهوى بين الملك والكاهن، بين ابنها وأخيها، هناك أمر أشد خطورة جعل قلبها يغوص بين ضلوعه فرقا وجزعا..

سألها محاولا تغيير دفة الموضوع:

- سأتزوج (نفرتيتي)..

تنهدت.. لم ترتاح لتغييره للحديث الذي أرادت معرفة تفاصيله، ولكنه أثار نقطة جدلية أخرى لا تقل عن السابقة خطورة.. سألته بوجه مربد رغم علمها بنيته هذه منذ زمن:

- و(سات آمون)؟ ابنتي الكبرى وشقيقتك والوريثة الملكية الكبرى؟

- ولكنها (نفرتيتي) التي أحبها وأثق بها.. ولا أشك أنك تعلمين هذا بالفعل، تعرفينه ولا تعترضين عليه..

أخذت نفسا عميقا، بدا الألم بعينيها الواسعتين المكحولتين القويتين وهي تقول:

- أريدك سعيدا.. وسعادتك مع (نفرتيتي).. وسعادتها معك.. لا أريد أن أخالفك فيما فعلته أنا بنفسي مع أبيك عندما تغلب حبنا على تقاليد الكهنة والدين.. أريد لك زواجا قائما على الحب.. زواجا سعيدا مستقرا، وزوجة محبة ذكية وقوية تكن لك عضدا في سنين حكمك الصعبة، ولا ينتابني الشك لوهلة أن (نفرتيتي) ستكون خير المعين لك، تماما كما كنت أنا لأبيك، وتماما كما سأكون بجانبك حتى يشهد عودك وتصير ملكا عظيما كأبيك وكأسلافك.. ولكن..

تهدج صوتها قليلا رغما عنها وهي تضيف:

- ولكنها ابنتي.. لا يجب أن تضار أو تشعر بأنها نحيت

جانبا..

هز الملك رأسه قائلا بحكمة نادرة لم يبيديها من قبل:

- لا بأس.. توقعت هذا.. لنتنظر سنة أو سنتين على الأقل..
لن أتزوج (نفرتيتي) ولا غيرها طيلة هاتين العامين.. وليُفَنع
الحديث عن زواج الملك حتى انتهاء هذه الفترة.. ولنُدع
الزمن يقرر ما الذي سيحدث لنا جميعا..

كانت الملكة الأم كلها ثقة أن هذه الكلمات ل(نفرتيتي)
الحكيمة وليس لابنها، ولكنها أعجبت بالفكرة على كل حال..

وهنا.. شعر الملك بقوته تنهار في كبت الحقيقة أكثر من
هذا، الحقيقة التي وهب حياته للبحث عنها، وهكذا انبرى
يقص لأمه كل ما دار بينه وبين أخيها، حديث بين اثنين
متصوفين حدث بينهما توارد للخواطر لم يحدث من قبل،
توارد خواطر بين شاب حالم وبين رجل خبير صقلته الحياة
الضروس وأكسبته خبرة لا بأس بها.. وجلس الملك الجديد
يشرح لأمه عن قرص الشمس (آتون)، الإله الواحد الأحد،
وعن عدم مغزى تعدد الآلهة.. والأم تستمع بعينين متسعيتين
فزعا مما تسمع.. من عقيدة دينية توحيدية جديدة ستعطي
الفرصة لكهنة (آمون) لإيجاد ثغرة للوثوب على الملك
وتقويض سلطته بالتشكيك في عقيدته، فليدهم سيطرة على
العامّة لا يمكن الاستهانة بها، تمكنهم من تحريك الشعب كله

إن أرادوا بمجرد التشكيك في إيمان ملكهم الجديد..

ورغما عنها وجدت نفسها تفكر في (نفرتيتي)، سيحتاج ابنها لامرأة قوية وفِيَّة مثلها تقف بجواره خلال سيره في طريق الإصلاح الثوري الديني القاسي.. كما فكرت في أخيها الكاهن، لابد أنه أعجب بفكرة الملك الجديد لأقصى حد، ووجدها فرصة تشبَّث بها بكل قوته ودَعَمَها كفكرة تصلح كوسيلة لتحطيم قوة كهنوت (آمون) المنافسة..

تتابعت أفكار الملكة (تي) ولكنها لم تجد بُدًا من اتِّباع عقيدة ابنها، موقنة أنه لن يحيد عن أفكاره المختلفة هذه حتى يلقي نحيبه دونًا عن إيمانه، وسألته رغم تأكدها من الإجابة:

- و(نفرتيتي)؟

- هي أول أتباع (آتون)، وشريكتي في الوساطة الإلهية بين البشر وبين أبي قرص الشمس..

أومات برأسها موافقة.. ليكن الدين الجديد هو الدين.. ولكنها نظرت مرة أخرى بشفقة لابنها.. ملك البلاد الجديد -الضعيف- والذي يحمل بذهنه أفكارا ستشعل الحرب في كل البلاد.. إنه حالم للغاية، يفكر بسذاجة في معاداة الكهنة الذين اضطر كبار الملوك من قبله لمهادنتهم

سلميا، خوفا من مدى نفوذهم، استدعاه في عقيدته الجديدة التي وجدتها وسيلة جيدة لكسر نفوذ المعبد للأبد، ولكنها لن تكتفي بالأفكار الحالمة كالملك الغرّ، ستقوم باستمالة أكبر عدد من النبلاء والموظفين الرسميين ليتبعوا العقيدة الآتونية الجديدة، تستميلهم بالمنطق وبالإغداق في المال في نفس الوقت، كما أنها لم تنسى أنه يتحتم عليها تصريف شؤون البلاد يوميا، بالإضافة لمواجهة التهديدات الخارجية المتزايدة شرقا..

مرت سنة.. وقبل أن تنتهي الثانية توفيت شقيقة الملك والوريثة الكبرى (سات آمون) بعد مرض مباغت.. بدأ الكهنة يعدون العدة لتزويج الملك من الشقيقة الثانية بعد أن أبدوا استيائهم من تأخر زواجه من شقيقته الوريثة الشرعية حتى ماتت، ولكن عاجلهم الملك وأعلن زواجه من (نفرتيتي) رسميا، ليبدأ أولى خطواته في المجاهرة بعدائهم.. لم تكن أخبار عقيدته الجديدة تخفى عن الكهنة، ولكنه تناولوها بشيء من الاستخفاف، وكأنها نزوة عابرة للملك الحال، في الواقع لم يكونوا يعتبروه حاكما، كان تركيزهم كله على الأرملة الملكية وقوية الشكيمة الملكة الأم، وكانوا ينتظرون بمنتهى الأمل وفاتها ليثبّوا على الملك الشاب، ولكنه باغتهم بزواجه من محظيته الأجل، وبدأوا يشعرون بتسرب الأمر من بين أصابعهم.. خاصة وأن الملكة الجديدة (نفرتيتي) لا

يخفى على أحد شعبيتها وجمالها، وهو الوتر الذي يعتمدون عليه في حربهم ضد الملوك دائما، ولكن لهذه الفتاة شعبية قد تفوق شعبيتهم جميعا.. قد تفوق شعبية (آمون) نفسه.. إنها إلهة تسير على الأرض.. تقف بجانب زوجها في المواكب الرسمية، تغطي شعرها القصير بالتاج الملكي المماثل لتاج زوجها والمعبّر عن وضعها نصف الإلهي..

لقد ساوى (أمنحتب) بينه وبين زوجته في سابقة هي الأولى في تاريخ البلاد، وصار يعاملها معاملة ملك آخر بجانبه مشاركا له في الحكم.. لم يكن يخجل من إبداء حبه لها أمام الناس، يحتضنها ويقبّلها ويلمس وجنتها، فيهمم الناس تشجيعا لهذه العلاقة الفريدة بين ملكهم ومليكتهم، بالإضافة لأن جمال (نفرتيتي) صار أسطورة تتحدث بها الألسن، فقد كان الناس يحتشدون لرؤيتها فقط، وتأمل جمالها الذي لا يمكن أن يكون قد وُهب لبشريّة من قبل.. إنها الأم (إيزيس) العظمى نفسها متجسدة في صورة بشرية.. كانت الفتيات الجميلات يلقين الزهور الفواحة أسفل قدميها.. يقبّلون أناملها.. يلمسون جسدها.. يسكن العطور النادرة على رأسها ذي الوجه المليح، ويعطّرن عقدها المرصع بالجواهر الملونة كالزهور والذي كان يطوق جيدها ويزينه، أم أن جيدها هو ما كان يزين العقد المحلى بالمجوهرات؟

توتر الكهنة وأقاموا الجلسات الاستثنائية.. الوضع خطير.. هذا الاحتفاء الشعبي مؤثر لدرجة لا يستهان بها.. احتاروا في أمر الملك والملكة الحديثي العهد، اللذان لم يحارباهم علانية، ولكنهما فعلا ما هو أكثر قوة بكثير مما فعله أسلافهما.. اكتسبا حب الشعب.. حبا حقيقيا كشخصين وليس كملكين.. وكانوا هم الكهنة أكثر الناس علما بمدى خطورة اكتساب حب الناس.. لم يكن الملكان الشابان كَمَنْ سبقهم، آلهة جامدة تنظر للناس من عليائهم، بل صاروا زوجين يعيشان قصة حب علنية، يظهران بلا تصنع أو حياء، معلنين أن هذا جزء من عقيدتهما الجديدة ((الحياة في الحقيقة)).. فهما زوجان متحابان فما الذي يدعوهما لإخفاء مثل هذا الحب خلف رسميات لا طائل منها..

كانت الملكة الأم ترى كل ما يحدث بعيون متيقظة.. فكرت أن (أمنحتب) الرابع كان ذكيا بما يكفي لتجنب الصدام مع الكهنة، وبدء السير في تنفيذ مخططه لبناء عقيدته الجديدة تدريجيا.. وربما لم يكن ذكيا.. ربما كان فقط منغمرا في أمر العقيدة لدرجة أنه لم يرى الكهنة.. وبعد تفكير أيقنت من صحة استنتاجها الأخير -للأسف- وليس الأول.. الملك الجديد غافل عن خطر الكهنة لا أكثر، نفس غفلته عن شؤون البلاد الداخلية والخارجية أيضا..

نشط (أمنحتب) لبدء تغيير المعتقدات القديمة البالية.. لم يسمح بأن يتم نحت التماثيل المتملقة له، لينحتوه كما هو، بجسده الغريب المنفر ضخم الأرداف رفيع الكتفين طويل الوجه.. إنه ابن (آتون) المختار، لهذا ليفرح بخلقة (آتون) له كما فرح (آتون) به واختاره وسيطا له دونا عن جميع الناس.. وما يسري عليه يسري على زوجته (نفرتيتي) أيضا، منع تملقها بتجميلها في التماثيل، ولكنه كان مخطئا في هذه النقطة، إذ أن أجمل التماثيل لم تكن لتوفي جميلة الجميلات الملكة زوجته حقها..

أمضى الملك والملكة وقتا في شهور عسل ممتدة، قضياها في رحلات مستمرة بين (منف) بالشمال و(طيبة) بالجنوب.. الرحلات التي أوحى للملك بأن يأمر النحاتين باتخاذ قرص الشمس رمزا تخرج منه أذرع ممتدة تلمس جميع المخلوقات بسعادة، ليزين رمز (آتون) الجديد معبده ب(طيبة).. الصورة التي كانت قد داعبت خياله من قبل، في تلك الظهيرة التي صرح فيها (نفرتيتي) بأمر العقيدة الجديدة..

وبينما يراقب كهنة (آمون) الموقف بحذر، محتمون منه -ومن بدء سطوة إلهه الجديد الأوحى- بقوتهم التي استحوذوا عليها بشكل تراكمي على مدار السنين، وبأموال معبد (آمون) أيضا، بدأ نشاط الملك يتزايد بشكل ملحوظ

ويمتد لأساس ديانة (آمون)، بادئا الصدام بشكل قوي
وقاسي..

الفصل الرابع

بعد انتهاء رحلات أشهر العسل بمجرى النيل صعودا وهبوطا، والتي حملت ذكريات عذبة لم ينساها أي منهما حتى آخر يوم بحياتهما التي كانت صعبة شديدة القسوة في أيامها الاخيرة، كان كلاهما الآن في أوج حماسه للعقيدة الجديدة، يعتقد أن الكون كله سيطيعهما فيما يريدانه من تغيير فقط إن أراداه بشدة، لم يكن حينها يعلم أي منهما أن للبحث عن الحقيقة ثمن غالٍ جدا، غلّو ثمنه من غلّو ثمن الحرية نفسها..

كان الملك يجذف بهمة بقلب بُحَيْرَتَهما الصناعية بحديقة قصر (منف) الشمالي الملكي، لم تعد نظراته حالمة طيلة الوقت كما كان بالسابق، لم يعد صامتا كأيام طفولتهما التي ليست ببعيدة، صار يتحدث ويخطط كثيرا بعينين لامعتين، ونادرا ما ينظر للشمس بشروء.. اعتقدت (نفرتيتي) أنه اقترب من الواقع كثيرا وابتعد عن الخيال.. وهو شيء جيد بالنسبة لملك (مصر)..

لم يكن يرتدي غطاء رأسه الملكي فلمعت رأسه الحليقة تحت أشعة الشمس - إلهه الجديد- بينما كان شعر (نفرتيتي) الكثيف القصير ينحدر على عنقها الرفيع ليتوقف عند أعلاه، كاشفا الجزء السفلي من العنق المرمري أيقونة جمال كل

العصور، إنهما يتصرفان كرجل وامرأة من عامة الشعب وربما كان هذا سر نجاحهما حتى الآن..

اندفع (أمنحتب) الرابع يقول:

- لقد حان وقت التغيير..

وافقته (نفرتيتي) بهزة من رأسها، الأمور مواتية لتَحْدِي الجميع، تحدي الكهنة وتحدي الأعراف والتقاليد، تحدي الزمن نفسه.. فمن يملك حب الناس يملك كل شيء..

لمعت عيناه وهو يقول:

- سيتم وضع اسم وألقاب (آتون) في خانتين ملكيتين.. سيكون هو الملك على جميع الآلهة بما فيهم (آمون)..

سألته باهتمام:

- وماذا عن لقبك أنت؟

صمت مبهورا وكأنه لم ينتبه لهذا الامر من قبل، فاسمه - (أمنحتوب) - في حد ذاته يعد تبجيلا ل (آمون)، أطلق ضحكة موجزة عصبية، كيف لم ينتبه لهذا من قبل.. اتخذ القرار في لمح البصر.. ترك المجداف ليتوقف الزورق عن التحرك ويكتفي بالاهتزاز في مكانه بِرَقَّة، وهو يقول بلهجة قوية:

- لم أعد (آمون حوتب).. منذ الآن أنا روح (آتون)..
(إخناتون)..

شعرت (نفرتيتي) بالرجفة المهيبة تعترئها.. هذه لحظة مشهودة في التاريخ..

أكمل بنفس اللهجة القوية:

- سأقوم بتجنيد أقوى وأمهر وأكثر رجال البلاط أهمية ليقوموا بقطع مسلة من الحجر.. مسلة تكون أعلى وأكبر من أي مسلة قبلها.. سيتم نحتها وزخرفتها وتغطيتها بالذهب تكريماً ل (آتون) في معبده الجديد ب (الكرنك)..

همست (نفرتيتي) بافتتان وهي تتخيل المسلة الحجرية الخالدة ترتقي لعنان السماء، تكاد تحتضن إلهها قرص الشمس فلا تستطيع، إنه بعيد لا يمكن إدراكه، ولكنه قريب بالأذرع اللامتناهية العدد التي تنشأ منه لتلمس جميع المخلوقات بعين العطف والرحمة.. تنعكس أشعة الشمس على النقوش الذهبية العالية فتزيغ الأبصار..

ورغم حماسها قالت موضحة أبعاد قرار زوجها الصادم سياسيًا:

- سيكون كإعلان الحرب على الكهنة..

- لم تسمعي باقي القرارات الجديدة.. سيتم صب جميع ثروات البلاد الدينية في حزن (آتون).. سيتم تغيير اسم مدينة (طيبة) معقل الكهنة لتصبح (ضياء آتون).. سأعلن نفسي الابن المقدس ل(آتون) إله (مصر) والعالم كله.. ستكون أول قراراتي كابن (آتون) هي منع وتحريم عبادة (آمون) وباقي الآلهة جميعا.. ستصبح جميع معابد البلاد مهجورة، كل المعابد الممتدة من البحر بالشمال لآخر شلال ب(النوبة) المخصصة لعبادة (آمون) و(حتحور) و(أوزيريس) و(حورس) وغيرهم من الآلهة ستصبح ساكنة لا تتردد الأناشيد الكهنوتية بجانباتها، وستصير موائد قرابينها المائلة أمام تماثيل الآلهة القديمة خاوية على عروشها..

اتسعت عينا (نفرتيتي) ولم ترمش.. هذا جنوني.. ولكنه الحق.. لم تخف للحظة.. مدت يدها لتعبت بعنق (أمنحوتب) الرابع - (إخناتون) الآن- لتمده بالقوة وتعلن عن تأييدها المطلق له، وقالت وكأنها لسان العقل في مواجهة زوجها الحالم:

- الملكة الأم (تي) تقوم بواجبها كابنة للإله (آتون) على أكمل وجه.. لقد اكتسبت لجانبها -لجانبا- أكثر النبلاء ورجال البلاط ذوي النفوذ، لقد نجحت في تكوين حزب سري غير معلن يناصرنا ضد حزب الكهنة العتيدي.. جميع من اعتنق

ديانة (آتون) تم إعطاؤه وظيفة رئيسية بالبلاط الملكي..
جميع أفراد البلاط الآن تلهج ألسنتهم بمديح (آتون) ليلا
ونهارا.. جميع الموالين تتم مكافئتهم بسخاء..

تمتم (إخناتون) موضحا أنه لم يكن غافلا عما يحدث
بالبلاط من حشد سري لديانته بواسطة أمه:

- الوزير (نخت).. رئيس المهندسين (باك).. كبار قواد
الجيوش (مري رع) و(ماي) و(حور محب).. وبالتأكيد
(آي) الكاتب الملكي وحارس جوادي وحامل مروحتي، هو
وزوجته المخلصة (تي) مرضعة الملكة الإلهة..

اتسعت عينها الجميلتين ولكن بإعجاب هذه المرة، زوجها
يعلم بكل ما يحدث حوله،طمأنها هذا كثيرا، إذ لم يكن من
الجيد أن تقوم الملكة بكل شيء بينما يستعد ابنها لبدء ثورة
عاصفة قد تهز أركان العرش من مكانه، ستهز بالفعل قواعد
أحد العرشين، إما عرش الملك أو عرش (آمون) وكهنته..

(إخلاص حبيبي وزوجي ومليكي وابن (آتون) متقدا
بشدة.. هذا هو ما يجب أن يكون عليه.. شخصيته هذه
المتحمسة هي ما اجتذبت الكثيرين لقبول الديانة الجديدة..
يحتاج في رحلته القاسية هذه لموالين حقيقيين يقفون
خلفه.. لا يتظاهروا فقط بتأييده ولكن يؤيدونه بقلوبهم..
يكرسّون حياتهم من أجله.. وهذا لن يتأتى إلا عندما ينتقل

حماسه لهم ويشعرون بحرارته وجِدِّيَّتِه.. فيفيضون عليه من حماستهم وولائهم.. سيعملون بجدّ من أجل (آتون) لا من أجل إرضاء الملك ظاهريا فقط لا غير.. سيغلبون هم الكهنة عندما يهجرونهم ومعبودهم ويتجمعون بمعابد (آتون).. هم سلاحنا الأقوى والأشدّ في هذه الحرب..)

وقد كان ما أراد (إخناتون)، وتم إعلان (آتون) إلها واحدا أحدا.. أصيب الشعب بالذهول ولكنه وقفوا خلف ملكهم ومليكتهم بمنتهى القوة.. واضطر الكهنة للانسحاب، وصاروا مجرد متمردين لا حول لهم ولا قوة، تلاحقهم يد الدولة الباطشة لتجردهم من سلطاتهم التي لم تعد موجودة.. تغلغل حب (آتون) بين عامة الشعب.. بين موظفي الدولة.. بين كبار رجال الدولة.. بين رجال الجيش.. وصار واضحا في الأفق أن عقيدة جديدة قد ثبتت أقدامها فوق أرض (مصر).. عقيدة ربما لم يفهمها جيدا الناس كما أرادها (إخناتون)، لقد كان مفهومه مُعَقَّدًا لا يمكن استيعابه بسهولة، ربما لا يمكن استيعابه مطلقا، وربما لم يعي الملك الشاب المتحمس حينها أن جميع مواليه آمنوا به فقط لحماسه وصدقه الواضح في رغبته المحمومة، ومنهم من تبعه أيضا طمعا في سقاء الملكة (تي) والمناصب التي صارت تقلدها لتابعي (آتون) فقط.. ولهذا تجد الألسنة تردد نداء العقيدة الجديدة -المبالغ فيه- بمنتهى الصدق والحماس، بقلب البلاط الملكي وبالمعابد

وبين جنبات القصور والفيلات والبيوت البسيطة..

(نستمر إلى أن يصبح الأوز الأبيض أسود.. وإلى أن يتحول ريش الغراب الأسود للبياض.. وأن تقوم الجبال من أماكنها، وتتحرك وتفيض المياه متجهة لأعلى التلال) كانت الأمور تسير على ما يرام، إلى أن ارتكب الملك ما كان بداية تطور جديد - وليس جيد- في تثبيت عقيدته الآتونية..



(أخت آتون) العظيمة في الجمال..

صاحبة الحفلات السارة..

الغنية بما تملكه..

والتي تتهلل الأسارير عند النظر لجمالها..

إنها مليحة وجميلة..

وعندما يراها إنسان تبدو مثل ومضة سماوية..

الفصل الخامس

كانت (نفرتيتي) محبوبة كل الشعب، وكانت سبباً لا يمكن إهماله ساعد الملك على تقوية وضعه ونفوذ ديانتته الجديدة بحب الناس الفطري لجمالها الخارق وبساطتها في نفس الوقت معهم، كانت كصديقة للجميع وليست كملكة، لهذا تحلقت الأوجه والعيون حولها لتملاً البلاط الملكي حولها فجأة، لتجد الملكة الجميلة نفسها محاطة بالزوجات والأمهات المهمومات، وتتيقن أنها مسؤولة بشكل ما عن تبرير أفعال زوجها الأخيرة والتي لم توافق عليها، سواء هي أو الملكة الأم، لقد تحدى الفتى حرمة المعابد وخلق حالة من التذمر، وبدأت علاقته بشعبه تتوتر..

تذكرت بمرارة تلك الحملة العنيفة - وغير المبررة- التي قام بها (إخناتون) فقط منذ أيام، حملة شاملة من جماعات من العمال تم إرسالها بأمر من الملك، حملة الغرض منها تشويه ومحو وإزالة أي أثر للإله (آمون)، سواء على تماثيل أجداده ب(الكرنك) أو بمعابدهم بالناحية الأخرى من (طيبة)، وتسلفت جماعة منهم -بأمر الملك- مسلتي الملكة العظيمة (حتشبسوت) لتزيل اسم (آمون) من عليها، حتى اسم والده العظيم (أمنحتب) الثالث لم يسلم من حملة الانتهاكات العنيفة هذه، وتم محوه.. وهو ما أغضب الملكة (تي)

بشكل خاص، فقد أحببت زوجها حبا شديدا لم يخفت بمرور السنين بعد وفاته، وراقبت بعيون حزينة الفراغات الخالية من الكتابة والتي تضمنت اسمه يوما ما.. بجدار المعابد والمسلات، وحتى اسمه المنقوش على جدار غرفتها الخاصة بالقصر الجميل الذي كان قد بناه لها بالقرب من معبد مدينة (هابو)..

شعرت (نفرتيتي) بما يتم من تدنيس وانتهاك لحرمة المعابد، بالإضافة لما نتج عن حملة التشويه هذه من فراغات قبيحة أذهبت بجمال النقوش والزخارف بكل البلاد.. لقد تم تدنيس الجدران بالعنف، وفَسَدَ جوُّ الحب والسلام والذي كان هو السبب الأول والأقوى لتَقَبُّل البلاد للعقيدة الجديدة.. لم تعد سعيدة كالسابق، إنها مهمومة تماما كهؤلاء السيدات الملتفات حولها، تريد من تشتكي له همها كما يفعلن.. وشعرت بالاختناق.. الاختناق من (طيبة) كلها.. لقد أصبح الشعب حزينا صامتا ولكنه لم يجرؤ على الاعتراض على الملك.. ولكنه أصبح بالنسبة لهم ملكا، ولم يعد محبوبا بشريا متجسدا كالسابق.. أصبح الناس تعساء وحيارى لا تستقر نظراتهم على ملكهم.. يكتفون بالإطراق أرضا..

وشعر (إخناتون) نفسه بذلك.. لم يكن غبيا لهذه الدرجة.. أدرك فداحة خطأ ما فعله والذي لا يمكن التراجع فيه..

بالإضافة لروحه التي تحب الجمال، والتي صارت لا ترى إلا القبح في كل مكان، لقد وطأ بأقدميه مُخَرَّبًا كل ما شَيَّده أبوه وأسلافه من جمال وعظمة.. لم يعد يرى حوله إلا القبح.. وهكذا صارح (نفرتيتي) بكل ما يعتمل بقلبه، وأعلن أنه يريد الانتقال من (طيبة) لمكان جديد.. مكان عذري لم ير حروبا ولا قبحا.. عاصمة جديدة لا أثر للخراب فيها..

تحمست (نفرتيتي) بشدة، فهي -رغم كل ما حدث- لا تزال تؤمن ب(آتون) بقوة.. وتؤمن بزوجها أيضا.. صارت تكره البيت وتتوق للرحيل اليوم قبل غدا.. بيت جديد بلا أشباح الماضي، ولا نظرات مؤنَّبة لائمة، ولا أبهاء خالية مهجورة، ولا معابد مغلقة ولا نقوش مشوهة فارغة.. يجب أن يكون هذا المكان الجديد لم يطأه إنسان من قبل، لم تلوّثه يد البشر.. وهكذا تم اختيار المكان من قبل (إخناتون) المتحمس، واستدعى في الحال الوزير (نخت) ورئيس المهندسين (باك) وكذلك (آي) أكثر رجاله إخلاصا.. وصف لهم المكان وأمرهم بإعداد التصميمات وتمهيد الأرض للبناء بأسرع ما يمكن.. وليتم السير على نسق الديانة الجديدة في الزخرفة وليس النسق السابق البالي، لا رسوم تقليدية جافة، يجب أن يرسموا الطبيعة كما هي، نضرة وحية وغير محدودة كما هي في الحقيقة، فما الهدف من الحياة إلا البحث عن الحقيقة، سواء في الطبيعة أو في محاكاتها من

زخارف على الجدران..

سيكون هناك ثلاثة معابد ل(آتون) بالعاصمة الجديدة والواقعة بين (منف) و(طيبة) ولكن أقرب ل(منف).. المعبد الأكبر بالقرب من القصر الملكي وسيتعبد فيه الملك والملكة يوميا.. المعبد الثاني للملكة الأم (تي) بالقرب من قصرها.. والمعبد الثالث لأخت (إخناتون) الصغرى (بكت آتون) والتي صارت الكاهنة العظمى للديانة الجديدة.. وأصر الملك على أن يكون طراز المعابد الجديدة مختلفا.. يجب أن يبني (باك) المعابد بلا أسقف، وأن تكون أبهاؤها مكشوفة للسماء تمر خلالها أشعة الشمس بلا عائق.. ولن يكون هناك قدس أقداً يدخله الكهنة بمفردهم.. لا مزيد من الظلام والغموض.. لا شيء يحجز الناس عن إلههم.. إلههم الذي أمر ألا يتم نحت أي تمثال له، سيشرق على الجميع سواء، ويتم الترميز له فقط كقرص الشمس المنتهي بالأذرع والأيدي الممتدة لجميع البشر.. إنه التصور الخيالي والجامح للعاصمة الجديدة (أخت آتون) أو مشرق (آتون).. ولكنه أخذ بنصيحة الملكة (نفرتيتي) أيضا وأعدّ مدينتين جديدتين أخرتين، واحدة ب(النوبة) والثانية ب(سوريا)..

بادئ ذي بدء نشط الجميع لهذه الآراء والتصميمات، لم تتمحي بَعْد هزيمة (آمون) من أذهانهم أمام عزيمة الملك

الجديد أمام الكهنة الأقوياء.. ولكن حدث الصدام مجددا بسبب حماسة الملك المتزايدة، فقد أصدر أمرا -مدفوعا بحماسته الشديدة المعتادة- بأنه يتحتم على كل شخص ذو مكانة أن يترك بيته القديم، ويستعد ليذهب لبيته الجديد ب(أخت آتون) فور تلقي الأمر من (إخناتون)، أثار هذا موجة جديدة من اللغط والاضطراب والتذمر، ويدفعنا هذا للعودة للمشهد الذي تتجمع فيه السيدات حول الملكة (نفرتيتي) يشكين لها مصيرا غامضا..

أصغت لهن وحاولت تهدئة اضطرابهن.. وتتابعن الأسئلة على أذنيها كسيل عرمرم.. (من سيرعى منازل أسرنا ب(طيبة)؟ ما الذي سنأخذه معنا من أمتعة؟ هل بالفعل صحيح ما يقال بأن الملك قد أقسم ألا يعود ل(طيبة) مجددا حتى آخر أيامه؟ وهل سيقوم البلاط الملكي بتحمل نفقات نقلنا ومتاعنا وخدمنا بين المدينتين؟ أخبرينا أيتها السيدة الجميلة العظيمة هل حقا ما يقال إننا نترك حياتنا وماضيها فقط من أجل نزوة لدى الملك؟)

أثار السؤال الأخير غضبها -وقلقها الخفي في نفس الوقت- فأصرت بشدة أن الملك لا يتحرك بناءً على نزوات.. (أتمنى أن أكون على صواب!) يمتلك ملكهم العظيم إيماننا لا يتزعزع، وعاتبتهم أنهم لا يمتلكون نصف إيمانه.. وأنهت

كلامها بحدة وهي ترفع أنفها الدقيق الملكي الجميل للأعلى
بشمم:

- وأنا اشاركه إيمانه هذا من صميم قلبي..

ولكن الأسئلة التي تموج بالقلق لم تتوقف.. (المدينة الجديدة أقرب للشمال.. سيكون الشتاء باردا.. هل سنموت من البرد؟ كما أنها مدينة جديدة على حافة الصحراء التي تعج بالحيّات والأفاعي والعقارب والضباع والذئاب، هل يرسلنا الملك لنموت هناك؟!)

وهنا، أظهرت (نفرتيتي) أن وجهها الجميل يمكن أن يصبح قويًا فولاذيا في لحظة، وما يفيض من وجهها من أنوثة صار يصب غضبا الآن.. وربما كانت لهذه القدرة على التحول بين الشخصيتين عند اللزوم هو ما جعل الملكة الحكيمة (تي) تشجع زواجها من ابنها وريث العرش حينئذ..

صاحت (نفرتيتي) ووجهها يربد حنقا:

- من الطبيعي أن يكافئكم مولاكم على طاعتكم وولائكم.. سيدفع جميع النفقات وبسخاء كما اعتدتم، أم هل أنتم مجموعة من ناكري الجميل؟! سيكون في استطاعة كل أسرة نبيلة بناء بيت رائع يضم حديقة وبركة أزهار لوتس، سيلعب أطفالكم دون خوف وبمنتهى الأمان، كما يفعلون ب(طيبة)

وأكثر.. كما أن هواء الصحراء أكثر نقاءً من هواء (طيبة)..
وأعدكم أنني سأقوم بنفسى ببناء حديقة نباتات طبية تنمو
بها كل الأعشاب الطبية المعروفة ب(مصر).. ولكن..

احتدت أكثر، وبدأت في هذه اللحظة أشبه بملك سماوي
باطش وهي تضيف بتهديد:

- من سيأتي ل(أخت آتون) بمحض إرادته سيلاقي ترحيبا
وتكريما ومكافأة، وسيعيش حياة أبدية لا يعكر صفوها
شيء.. ولكن من سيمتنع عن الذهاب، حسنا.. فليظل
ب(طيبة) الصامته الساكنة المهجورة، (طيبة) التي لم تعد
مقرا للحكم أو التجارة.. مقر القوة فقط سيكون (أخت
آتون).. وستظل (طيبة) مأوى للمنفيين فقط لا غير!

ساد صمت تام.. وافقتها الألسن ولكن خالفتها القلوب..
لقد فقدت محظية البلاد حظوتها للأسف.. شعرت هي بهذا
بنفسها.. الأمر لا يحتاج للشرح، يمكن الإحساس به فقط..
لهذا لم تتعجب (نفرتيتي) عندما تحرك الأسطول الملكي
من (إخناتون) و(نفرتيتي) و(تي) وأخت (نفرتيتي) الأميرة
(موت مزوا) والكاهنة العظمى (بكت آتون) أخت (إخناتون)،
ومعهم أقارب آخرون من بينهم طفلان أخوان غير أشقاء
للملك - (سمنخ كا رع) و(توت عنخ آتون)- من أبناء
(أمنحوتب) الثالث من زوجات غير الملكة (تي) ، بالإضافة

للنبلاء والاصدقاء ورجال البلاط، يتحرك من مرفأ (طيبة)
الكبير ل (أخت آتون)، لم تتعجب عندما لم تتواجد فتيات
جماليات يلقين الزهور بين أقدامها.. لم تتصايحن ببهجة عند
رؤيتهن لجمالها.. لقد راقبهما الجميع بعيون تفوح بالخضوع
لا الحب.. عيون صامتة منقبضة، عيون تراهما كملك وملكة
وليس كمحبوبين كالسابق..

وبينما يتحرك الأسطول شمالا منسابا عبر تيار النيل، كان
(إخناتون) يختلج بالحماسة والشعور بالنصر، ويعلن على
مسمع من الجميع: (إن جلالتى يغادر (طيبة) هذه المرة
للأبد.. جلالتى لن يغادر حدود مدينته (أخت آتون) أبدا حتى
آخر أيام عمري..)

وكان على حق فيما قال لأبعد الحدود..

يا (آتون) الحى يا من كنت بداية الحياة..

عندما تشرق بالأفق الشرقي..

تملاً البلاد بجمالك..

وعندما تغرب بالأفق الغربى..

تظلم الأرض كما لو كان الموت قد حل..

ويخرج كل أسد من عرينه، وتخرج الزواحف لتلدغ..
لأن الذي خلقهم يرتاح في أفقه.. قبل أن يطرد الظلمة..
فيهب الناس من نومهم على أقدامهم..
لأنك أنت من أيقظهم..
فيغتسلون ويرفعون الأذرع ابتهالا بظهورك..
وتمتد أجنحة جميع المخلوقات تعبدا إليك..
فما أعظم أعمالك أيها الإله الأوحد الذي لا إله غيره..
والعمر الطويل لابنك (إخناتون) الذي يحيا في الحقيقة..
سيد الوجهين وملك مصر العليا والسفلى..
والزوجة الملكية الأولى ومحبوته..
سيدة الأرضين (نفرو نفرو آتون نفرتيتي)..
عاشت منعمة دائما وللأبد..

الفصل السادس

لم يعلم (إخنتون) بالطبع أن ذوي النفوذ من النبلاء قد سبقوه للعاصمة الجديدة، واختار كل منهم المكان الذي يريد تملكه، وبنوا حوله الحدائق والأسوار، تاركين القصر الملكي ومعبد (آتون) الرئيسي يحتلان منتصف المدينة بأفضل بقعة بوسط التلال، بينما وجد من لم يسبقهم من النبلاء قصورهم وبيوتهم مختلطة بأكواخ وبيوت الفقراء، واحتشدت جماعات أصحاب الحرف والفنانين والفلاحين لتسكن بيوت بممرات ضيقة ملتوية، تؤدي للطرق الثلاثة الرئيسية الموازية للنيل والتي كانت تمثل تخطيط المدينة البسيط وغير الأصولي.. جلب النبلاء الأثرياء الأحجار لأعتاب منازلهم وقصورهم، واستأجروا أمهر الصنّاع لينقشوا عليها سطور ولائهم ل(آتون)، صنع كل منهم جنته الخاصة به ب(أخت آتون)، وبدا المكان يوحي بمستقبل جديد، خاصة للنبلاء..

اقترب الموكب الملكي النهري من المرفأ، لم يستطع الملك والملكة أن يكتما حماسهما فوقفا جنبا لجنب بمقدمة المركب، يودّان إلقاء نظرة سريعة على المدينة والقصر قبل أن تطأ أقدامهما أرض العاصمة حتى، وشعر كلاهما برعشة قصوى تغمره، مع رؤيتهما لقمم القصور والمعابد والتي

انسابت منها شرائط حمراء طويلة، رفرفت بفعل الريح القوية وانعكست عليها أشعة قرص الشمس -إلههم الجديد (آتون)، فبدت كساريات أعلام أسطورية توحى ببدء عصر جديد حالم، وتناسبت مع الشرائط الحمراء التي كانت تنساب من أسفل غطاء الرأس الملكي المستطيل للملك والملكة..

نزل (إخناتون) و(نفرتيتي) -يتملكهما الحماس- خلف الحراس متجهين نحو المعبد، وتمت احتفالات تقديم القرابين للإله (آتون) فوق المذبح المرتفع بقلب المعبد المكشوف للسماء، ثم قاد الملك مليكته المبهورة للقصر الملكي.. وقفت (نفرتيتي) عند مدخل البهو الرئيسي لتضع يديها على صدرها بذهول، كان البهو مزينا من الأرض للسقف ببهرجة، وكانت الأعمدة الضخمة السامقة تبدو وكأنها مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة من روعة زخرفاتها وجودتها، ثم شهقت مع إلقائها نظرة على الأرضية، لقد رأت إبداعا يليق بفناني (مصر) في عهد زوجها الملك، بركة كاملة من زهور اللوتس الزرقاء والحمراء، تسبح فيها الأسماك، تحيط بجوانبها سيقان بردي وأوراق غاب تتمايل مع الهواء، تكاد تحس بالريح اللطيفة تمس عنقها فتجعل مسامها تتفتح بنشوة، تلعب حول البركة عجول صغيرة أسفل ضوء الشمس اللامع، وتحلق فوقها طيور برية متنوعة ألوان الريش والزغب، وتعدو أسفلها البط والإوز بحرية..

(يا للجمال.. إنه جمال يكاد يفوق القدرة على احتوائه..
إنه جمال الطبيعة.. جمال ما خلقه (آتون).. ما أجمل محاكاة
الطبيعة الحية التي أراها بعيني الآن، وما أسوأ ما انتهجه
الرسامون من قبل من رسوم إنسانية جامدة لا حياة فيها،
تقع بين الجدران لا أسفل السماء الزرقاء التي لا حدود
لارتفاعها.. لا توجد هنا نقوش ممسوحة ولا ثغرات قبيحة..
لا نزاع ولا اختلاف.. لا كُزه ولا بغضاء.. لا يوجد إلا جمال
الطبيعة وانسجامها.. سنعيش هنا أغنية حب سعيدة عذبة
في نعمة إله الشمس العظيم)

اعترفت (نفرتيتي) بأن المعمار كان أسطوريا، خاصةً وأنها
قد زارت هذه المدينة أثناء تخطيطها أيام كانت قَفْرًا، شَتَّان
الفارق، فهي تنظر الآن لمدينة تفوق أعظم مدن (مصر) - بل
ومدن العالم كله - بهاءً وعظمة، مما يتناسب مع عظمة وجلال
الإله الواحد الأحد.. تحدّق بالقصور والبيوت الفارغة التي
تنتظر الأرواح التي ستملؤها بالحيوات والقصص والمشاعر..
احتضنها (إخناتون) من الخلف بحبّ، قبّلت يده وعيناها
تلتهم عيناها، ابتسم لها، ثم التفت نحو كبير النحاتين (باك)،
وقال له آمرا:

- عليك أن تقوم بنحت أفراد الأسرة كلها على جدار ملائم،
عيك تجسيد علاقة الحب بيني وبين الملكة (نفرتيتي)..

يجب أن تكون صورة حقيقية واقعية عفوية لا مجرد صورة ملكية جامدة.. واكتب تحته (ملأ الحب العذب قلبي للملكة ولأطفالها الصغار.. اللهم هَبْ عُفْرًا مديدا للملكة (نفرتيتي) حتى تتمتع بعطايا الملك، وهَبْ عُفْرًا مديدا للابنة الملكية (مريت آتون) وللابنة الملكية (ماكت آتون) ولأطفالهما، وأن تتمتعاً بهبات أمهما الملكية.. دائما وللأبد..)

هدأ قلب (نفرتيتي)، ورأت أن الحب قد عاد من جديد ليحل محل التوتر السابق، وبعد مرور عدة أيام لاحظت عدة زيارات من نساء النبلاء والوزراء والمقربين، فاحت كلها بعبق السعادة وغاب عنها كل ما سبق من قلق وتذمر، لقد طابت لهن المعيشة بالمدينة الجديدة، كانت المنازل مريحة ومزخرفة بنفس النسق البديع، وعشن برفاهية ماثلت حياتهن ب(طيبة)، وأمضين وقتهن في اللهو وتذوق الفن الجديد التي انتهجه الملك والملكة أبناء (آتون)، وأعلنوا إعجابهن بلطف الجو الذي تميز بعبير زهور (الخشخاش) القرمزية و(الأقحوان) الأبيض و(البانسيه) الزرقاء الفواحة، وأزهرت سيقان (اللوتس) وأعواد نبات (الحلفا) على شاطئ النيل، وصارت النساء والبنات يتسابقن في قطف هذه الزهور مختلفة الألوان، ويصنعون منها حبالا وعقودا يهدونها للملكة لتزين بها حلي عنقها البديع فيزيدها بهاء..

حتى البسطاء من الشعب تمتعوا بحياة كريمة، إذ تدفق الذهب لكل تابعي (آتون) بالمدينة نبيلًا كان أم صانع حرفة بسيط، وجعل (إخناتون) جميع أموال ومصادر دخل الدولة تتوجه نحو (أخت آتون) البديعة من جميع أنحاء الإمبراطورية..

كانت ليلة الملك والملكة تعج بالحب حتى آخر سواد الليل الساطع، ثم يستيقظان على أنشودة من المديح تُرثِّل بهدوء لتجعل من استيقاظهما رقيقًا، ثم يفترق كلاهما، يذهب هو لسكنه الخاص بينما تذهب هي لحجرتها بجناح الحريم، يغتسلان ويتزينان..

بعد أن تنتهي خادومات (نفرتيتي) من غسل جسدها بالماء المعطر وتدليك وتعطير جلدها الزيتوني اللامع، كانت تجلس جوار نار من خشب (الصندل) والصبغ ذكي الرائحة لتتبخر وتعطر جسدها، ثم تخضب كفيها وقدميها بالحناء الوردي، ثم ترتدي ملابسها الكتانية الشفافة الضيقة عند الخصر، وتضع صندلا رقيقًا جميلًا بقدميها الدقيقتين، ثم تمسك بيمنها بمرآتها النحاسية لتقوم بنفسها بتسوية حاجبيها المقوسين، ثم تكحل عينيها الآسرتين حريصة على أن عمل شرطة عند الركن الخارجي لكل عين، وتعفر أهدابها الطويلة الكثيفة ثم تضع قليلًا من الكحل تحت الجفنين لتقيهما

من وهج الشمس والغبار الصحراوي، ثم تخضب وجنتيها وشفتيها بصبغة حمراء قانية، ثم تضع مجوهراتها وخواتمها وأساورها وأقراطها، ثم تنتهي بأن تضع فوق شعرها القصير غطاء الرأس الملكي الطويل ذا اللونين الأزرق والأحمر، تعلوه رأس الحية الحامية سيدة الحياة، وتتطاير الشرائط الملكية الحمراء من الخلف.. هكذا كانت الملكة مستعدة لوجبة إفطار خفيفة مع الملك والأطفال، ثم تقف بهيئتها الملكية بالشرفة الملكية - بجانب الملك - كأيقونة جمال لا ولن تتكرر، تتلأأ مجوهراتها تحت ضوء الشمس، وتقوم برمي الزهور والعقود الذهبية على أتباعه الأوفياء الواقفين تحت الشرفة يترقبون ظهور الملك والملكة اليومي..

ثم يغيب (إخناتون) و(نفرتيتي) ليذهبا في موكب رسمي يومي صباحي لزيارة المعبد وتقديم القرابين، ليعودا للقصر يتناولان الغداء، ثم يتمتعا بنوم القيلولة، ثم يأتي الوقت الذي يتحرران فيه من كل قيود الملكية، يخلعا ثياب وأغطية رأس الملوك، ويرتدون ثيابا خفيفة غير رسمية، وينطلقان مع هبوط قرص الشمس في العربة الملكية، يقودها (إخناتون) منتصب القامة، وتمسك به (نفرتيتي) من الخلف، وتمسك الأميرة (مريت آتون) بأمها من الخلف بدورها، الجميع يصيح بحماس وفرحة، فيزداد حماس الجياد الملكية وتركض بسرعة ليتطاير الريش المثبت بسيورها، متجهة

نحو الجنوب حيث شيد الملك قصرا صيفيا وبحيرة، كانا يتمتعان بالتجديف بزورق صغير بقلبها، تماما كأيام طفولتهما الخوالي..

عاش الجميع حياة جميلة رائعة، أغدق فيها (إخناتون) بالحب على (نفرتيتي) وأطفالهما، متمتعين بالجمال الذي خلقه (آتون)، ولم يكن يهتم بأي شيء عدا أسرته وحبه للطبيعة.. حتى أنه كان يستقبل وفود مبعوثين حكام الولايات البعيدة بالبذخ والهدايا، ولكنه لم يكن يفعل شيئا باستثناء هذا، رافضا طلب أي حاكم بأن يبعث معه جيشا ليحميه من خطر القبائل المحلية، فقد كان يرى أنه سينشر ديانة (آتون) بالحب والسلام فقط، وكره الحرب كرها جما، لقد أحب التصوف والبحث عن الحقيقة، ولكن ما لم يدركه -وأدركته الأم الملكة (تي) باكرا- أنه كان يهرب من الحقيقة لا يبحث عنها.. الملكة الأم التي رأت بأعينها بدء علامات الانهيار الخارجي قبل الداخلي، والتي ستنجم عن ترك الملك لنداءات الاستغاثة من أتباعه وأصدقائه المخلصين، أصدقاء الإمبراطورية المصرية..

وهكذا.. وذات يوم.. أرسلت الملكة الأم (تي) لتطلب أن تأتي الملكة (نفرتيتي) لتزورها بقصرها الطرفي على وجه السرعة والأهمية..

الفصل السابع

جلست الملك (تي) شامخة على كرسيها بقلب بهو الاستقبال الملكي لقصرها الذي شيده من أجلها الملك، استطاعت (نفرتيتي) أن تلمح علامات تقدم السن على وجه الملكة الأم ونظراتها، ولكن ما لم يمسه العمر بسوء كان نبرة صوتها القوية..

قالت ل(نفرتيتي) وهي تأمر إحدى الخاديات بتسليمها ورقة تحمل رسالة رسمية آتية من خارج (مصر):
- اقرئي..

التقطت (نفرتيتي) الرسالة، بدت الحيرة على وجهها وهي تقول رافعة نظرها للملكة الأم:
- لا يمكنني قراءة اللغة المسمارية بسهولة..

قامت (تي) بحركة سريعة، علا وجهها سخط مؤقت لم يلبث أن انمحي، وهي تتوجه نحو (نفرتيتي)، التقطت من بين يديها الرسالة مغممة:

- إنها اللغة الرسمية المعتمدة في الرسائل الدولية، يجب أن تتقنيها..

ثم قالت بسرعة تنم على أن أنها قد قرأت الرسالة مرارا

حتى حفظت أغلب مقاطعها:

- تعال لنجدتنا سيدي الملك وسنطرد أعداء (مصر) سوياً..
إن قبائل (الخبير) تهدد ممتلكاتك ب(كنعان)، وعلى وشك
محاصرة (أورشليم).. عليك أن ترسل الإمدادات..

ثم أضافت وهي تعطي الرسالة للخادمة وتطلب رسالة
أخرى:

- إنه (عبدي-خبي) حاكم (أورشليم) يستنجد بالملك..
جدير بالذكر أن الملك لم يرسل أية إمدادات ليحافظ على
ممتلكات آبائه وأجداده.. لم يرد على الرسالة من الأساس!

صمتت (نفرتيتي)، لم تكن غبية، كانت تتوقع شيئاً مثل
هذا، فزوجها غارق حتى أذنيه في تجميل عاصمته الجديدة،
وفي حبه لإلهه ولأسرته، ولكنه أهمل تماماً أي شيء يحدث
خارج مدينته، وكأن عالمه كله يتمركز حولها فقط لا غيرها،
وكانه لن يُقدّم على تحريك جيوشه يوماً ما، مطالباً بانتشار
السلطة فقط بالحب والسلام..

سألت (نفرتيتي) الملكة بخفوت:

- وهل سقطت (أورشليم)؟

أجابتها (تي) بحنق وهي تلوح بالرسالة الجديدة:

- لا أعلم.. لا أحد يعلم.. إن كان هناك جيش يحاصر مدينتنا الآن فلا أحد سيعلم.. وحتى إن علم الملك العظيم سيصر على مواجهة المحتلين بالصلوات والابتهالات!

قالت (نفرتي) باعتراض متخاذل:

- سيدتي.. لا تقللي من شأن صلواتنا للإله (آتون)..

لوحت (تي) بلا مبالة وهي ترفع الرسالة الجديدة أمام وجهها وتقرأ بصوت مسموع:

- سيدي الملك.. إن كل البلاد في طريقها للخراب.. أخبري الملك -جلالة الملكة الأم- أن البلاد صراحةً في طريقها للضياع بالفعل..

- صارت الرسائل تُوجّه إليك لا للملك؟

- ولماذا سيعاودون مخاطبة من لا يسمع ولا يرد، ويترك ولاة الأقاليم البعيدة بلا حماية؟!

ثم التقطت رسالة أخرى من يد الخادمة بعصبية وهي تقول:

- وهذه من (رب-عدي) حاكم (جبيل).. يريد جيشاً لنجدته.. يصف موقفه بأنه طير في شرك.. ثم يقوم بإرسال هذه الرسالة الأخيرة يقول فيها بحزن بعد عدم رد الملك أو

إرساله لأية نجدة..

أخذت (تي) نفساً عميقاً، ثم بدى الحنق والسخط مجسداً على وجهها الذي ظهرت تجاعيده بكثرة الآن وهي تقول:

- إن لم تأت لنجدتي الآن فأني إذاً رجل ميت!

صمتت (نفرتيتي).. لم تجد رداً أو تعليقاً مناسباً.. فها هي تعرف الآن أن (كنعان) والسواحل الفينيقية قد خرجتا من سيطرة البلاد.. قاطعت الملكة الأم أفكارها وقالت بندم شديد:

- لم يكن هذا ما فكرت به عندما وافقته على عقيدته الجديدة.. رأيتها سلاحاً جيداً ضد كهنة (آمون).. ولكن ما يحدث الآن من ضياع للإمبراطورية لا يمكن استيعابه.. إنه يتجاهل تماماً كل رسائل الاستنجد من الشرق.. لم يكن انكماش حدود البلاد التي وسعها أجداده بالدم والعرق - يعني شيئاً بالنسبة له، ذلك الطفل المهمل العابت الهارب من الحقيقة لا الباحث عنها!

لم تستطع (نفرتيتي) الدفاع عن زوجها، في الواقع لم تستطع تكذيب (تي) في كلامها.. التي استمرت بشيء من العصبية:

- لقد تنامت قوة الحيثيين وتحذوا دولتنا بل ونجحوا في

الاستيلاء على عدد كبير من مستعمراتنا بالشرق.. انحاز لهم جميع الحكام بالخارج، إنهم ليسوا خونة، ملكهم هو الخائن الحقيقي.. لا ألومهم فهم لم ينالوا ما يستحقونه من دعم من ملكهم اللّاهي..

هزّت (نفرتيتي) رأسها، وترددت كثيرا قبل أن تسأل السؤال الذي تخشى معرفة إجابته:

- وماذا عن (طيبة)؟ نبلاؤها وكهنة (آمون)؟

حدقت (تي) بعينيها قليلا بشيء من الإعجاب.. (إذا فأنت في النهاية لست غبية كابني الملك.. تفكرين في التسلسل الطبيعي المتوقع للأحداث.. الانهيار الخارجي سيعقبه انهيار داخلي.. أكاد أجزم أنك لا توافقين زوجك الملك على سياساته المنهزمة غير المسؤولة هذه.. بل أعتقد أنك حادثيه في هذا الشأن بالفعل ولكنه تجاهل الرد عليك.. لماذا لم تكوني أنت ملك البلاد أيتها الجميلة الذكية؟)

قالت (تي) وهي تنظر بعيدا متحاشية النظر لعيني (نفرتيتي) الجميلتين:

- أرسلت الجواسيس متخفين ل(طيبة)، الوضع هناك كارثي على أقل وصف مراعي للظروف.. سخط النبلاء -الذين أصروا على عدم ترك (طيبة) والانضمام ل(أخت آتون)-

في تزايد.. إن الفرصة سانحة أمامهم الآن أعطائها لهم الملك بنفسه.. قوتهم تتنامى.. يتجمعون ويتحدون ولا يبذلون جهدا لإخفاء هذا.. كما خرج كهنة (آمون) من عزلتهم وارتدوا ثيابهم وبدأت الصلوات تقام لـ (آمون) من جديد في شكل ليس بالسري..

سألت (نفرتيتي) وصداع حاد يكتنف رأسها ويصيبها بالدوار:

- والجيش وقواده؟ أذكر أن (إخناتون) يذكر القائد (حور محب) بمنتهى الولاء..

- لا شك في ولائه وقوته.. إنه من اعتمد عليه زوجي الملك الراحل في مخاطبة الكهنة إبان نفوذهم من قبل حتى أن يصير قائدا عاما للجيش.. وربما لم يقم كهنة (آمون) بثورتهم حتى الآن لخوفهم منه.. حتى المواطنون البسطاء بـ (طيبة) يخافون الاقتراب من معابد (آمون) حتى الآن خوفا من جنود (حور محب)، ولكني على يقين أن قلوبهم الآن حزينة.. حزينة ومتمردة..

- إيمانهم ليس قويا كما أراد الملك.. لقد آمنوا عن حب وليس عن خوف..

- الآن تحول حبهم خوفا..

شردت (نفرتيتي)، لم تدر أن دموعها الصامتة قد بدأت تسيل على وجنتيها، قالت محدثة نفسها أكثر من الملكة الأم:
- إن العقيدة الجديدة سابقة لأوانها.. أشعر بأن عقل الملك نجح في استيعاب عقيدة شديدة الاختلاف، ولكن لم ينجح العقل العادي في فهمها.. لا أعتقد أن الناس على استعداد -في العصر الحالي- لاعتناقها عن فهم..

ثم قالت ل(تي) مؤكدة ظنونها:

- لا أخفيك سرا يا سيدتي، لقد حادثته في الأمر أكثر من مرة.. أمر الاهتمام بالشؤون الخارجية.. تحدثت أيضا ذات مرة للقائد (حور محب) أثناء تواجده بالقصر بشأن هذه المخاوف، ولكنه رفض التناقش معي معلنا أن ولاءه الأول والأخير للإله (أتون) ولابنه الملك.. وأنه يرى الحكمة كل الحكمة في تنفيذ أوامره.. وأنا لا نفهم الدين والدنيا كما يفهمها الملك العظيم.. وأن كله ثقة في الملك ورجاحة عقله وقوة إيمانه..

اقتربت (تي) من (نفرتيتي)، نظرت لها كامرأة الآن وليس كأم لزوجها، مسحت دموعها بأناملها وهي تبتسم لها بحنو مغممة:

- (نفرتيتي).. سيدة الأرضين وجميلة الجميلات.. لم يعد

للملك عقل.. السفينة تغرق.. وسيثب الجميع منها لحظة سقوطها ولن يبقى غيرنا حينها..

صمتت (نفرتيتي).. فكرت.. استوعبت المغزى الخفي من كلمات (تي) الملغزة.. رددت بخوف:

- لا يوجد وريث للعرش!

لم تنجب (نفرتيتي) من (إخناتون) إلا البنات.. خمس فتيات فقط بلا ولد يرث العرش.. (لن يوجد من يستطيع -أو يقبل- أن يحمل عبء الاستمرار في عقيدة (آتون) كملك حاكم.. كما أن التعب يبدو وكأنه قد نال منه.. لقد لاحظت بدء ظهور علامات شيخوخة مبكرة عليه.. لقد أفنى جسده وأهلكه قبل الأوان.. عمل كثيرا في عمر صغير، وضيع صحته في سبيل نشر عقيدته وإقناع الناس بها.. وقف أمام كل استخفاف ومقاومة.. ولم يتبق لديه كسلاح إلا قوة عقيدته، وهو ما لا يمكن أن ينجح في الحفاظ على استقرار دولة تواجه مخاطر خارجية وداخلية في آن واحد.. إن كل هذا الإرث هائل الثقل لن يتم توريثه.. كل هذا سيفنى بلمح البصر بمجرد موت الملك.. ربما في اليوم التالي على الفور..)

لم تعبر (نفرتيتي) عن أي من هذا، قالت محاولة التماسك:

- أقوم بتربية الطفلين (توت عنخ آتون) و(سمنخ كا رع)

وكانهما أولادي لا أولاد زوجة أخرى للملك.. أتمنى من الإله (آتون) أن يمد في عمر الملك ما يكفي لأن ينجح أحدهما في أن يخلفه ويحافظ على إرثه العظيم..

كان لصدي كلمتي (إرثه العظيم) رنة حزينة ساخرة في البهو الملكي، فمن سيثبع (إخناتون) لن يرث إلا بلدا محاطة بالقلائل من الداخل، وأعداء من الخارج، وعقيدة على وشك الانهيار.. إنه إرث سيكون من المحبب الهرب منه لا السعي خلفه..

ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير.. جاءت خادمة تهرول منحنية، بما يوحي بأن لديها من الأخبار ما لا يجوز تأخيرها.. التفتت نحوها عيون الملكتين الأم والزوجة، فرفعت الخادمة رأسها بدون أن تستطيع مواجهة نظراتهما، وقالت بخفوت والدموع لا تكف عن التساقط عن وجهها:

- سيدي الملكة الأم (تي).. سيدتي سيدة الأرضين الملكة (نفرتيتي).. لقد تزلزلت (أخت آتون) بالخبر الذي سيجعل الشمس تشرق وتغرب بحزن على كل البلاد.. الأميرة الثانية وابنة الملك والملكة السيدة (مكت آتون). لقد ماتت.. انتقلت لعالم الحياة الأبدية!

الفصل الثامن

في التلال الجيرية المرتقية عاليًا وراء مدينة (أخت آتون)، وبقلب الصحراء الموغلة حيث يعيش الغربان والثعالب البرية والوعل والنعام والغزلان، رقدت مقابر النبلاء وكبار موظفي الدولة من موالي (آتون)، وبوسطهم مقبرة شديدة الضخامة والفخامة، إنها المقبرة الملكية لابني الإله (آتون)، الملك (إخناتون) والملكة (نفرтитي)، وأطفالهم..

ندخل من بوابة المقبرة الملكية، يظلم المكان ويدلهم، تضطر للنزول عبر بئر عميق مظلمة تفضي لداخل غرفة القبر الرئيسية، بينما تؤدي عدة درجات داخلية منحدرية أكثر لغرفة صغيرة، حيث جثم نعش صغير الحجم بما يكفي ليلائم حجم الأميرة الصغيرة، الطفلة قصيرة الأرجل، (مكت آتون) والتي رقدت بجسد بارد بقلب النعش الذي سيستقر به جسدها، في حين تنهياً روحها لبدء الرحلة الحقيقية للخلود.. وخلف النعش وقف الملك والملكة كلاهما في حال يرثى لها، وخلفهما صف من خمس فتيات صغيرات يقفان بحزن لا يفهمن ما يحدث، وبجانب هذا الصف وقفت المريية تحمل أصغر الأطفال الرضيعة بين ذراعيها، ويحيط بهم جمع من بضع رجال ونساء من المقربين للملك والملكة..

كانت عينا (إخناتون) غائرتين، لم ينم منذ سمع الخبر

المزلل، لا يدري لماذا تأثر بموتها لهذه الدرجة، ليست الوحيدة، وليست أكبرهن، ولم تكن بصحة جيدة منذ ميلادها، كانت دوما مريضة، وامتازت بكبر حجم رأسها والذي شغصه الأطباء -أمهر أطباء العالم القديم- بمرض استسقاء الدماغ، وعانت كثيرا من نوبات تشنجية كانت تتركها هامة لساعات بوجه أزرق وأطراف مرتخية، لم يكن من المفاجئ موتها، ولكن المفاجئ هو تأثيره بهذه الشدة التي جعلته يتمنى الموت، بدا هذا جليا في رأسه التي أطرقت أرضا، وكتفيه المتهدلتين، والنور الذي كف عن الانبعاث من عينيه.. (نفرتيتي) أدركت هذا بقلبها قبل عينيه، فرغم حزنها على ابنتها والذي جعلها تحرم الطعام والشراب على نفسها منذ سمعت الخبر المشؤوم، ورغم الحزن الذي جعل وجهها يبدو نحيفا كمن أصابه سقم عضال، ولكن ظل إيمانها قويا لم يتزعزع، وهو ما لاحظت نقيضه على زوجها الملك، لقد شعرت بعينيه ورأت بقلبها إيمانه وهو يبدأ في الميلان، وأيقنت أن هناك شيء ما شديد الأهمية والخطورة حدث في عهد زوجها الملك، وقد حانت نهايته الآن، فإن مال إيمان (إخناتون) -زوجها- نفسه للسقوط، فإن إيمانها لا يميل، ولكن إن مال إيمان (إخناتون) -الملك- فهذا يعني انتهاء إيمان كل مواليه.. للأسف.. فكما نَبَعَتْ قوة إيمان الجميع من قوة إيمانه، سيؤثر ضعف هذا الإيمان عليهم جميعا.. ورأت

بعيني خيالها أفول شمس (آتون)، ورأت الظلام يعم البلاد
بعد أن عمّ قلبها وقلب زوجها المكلومين..

وبعد ثلاثين يوما، انحنت (نفرتيتي) تضع اللعب والحلى
والأثاث الجنائزي والأمتعة بالقرب من مومياء ابنتها،
وهمست من بين دموع لم تتوقف عن الانهمار لشهر كامل:

- ارقي بسلام يا حبيبتي.. لا مرض ولا ألم ولا هم بعد
اليوم.. لتتمتع روحك في الدنيا الآخرة..

أمسكت الملكة الأم (تي) بكتفيها تشد من أزرها، وبدا أن
الملكيتين قد تقدّما بهما العمر سنينا طويلة هذا الشهر الذي
أعقب وفاة الابنة المريضة.. وكانت هذه الحادثة هي نقطة
تحول في تاريخ (مصر) كلها للجميع، الملك والملكتان..

رأت الملكة الأم أنه لا فائدة ترجو من ابنها الملك، فإن كان
هناك أمل وإله من قبل في عودته للحياة السياسية، فقد
انفرط عقد هذا الأمل المهترئ بوفاة الابنة، علمت يقينا أن
الملك لم يعد ملكا، ولم يعد حتى مؤمنا ب(آتون)، فتركت
السياسة وتجاهلت الرد على الرسائل الملكية -المستنجدة-
الموجهة لها بالاسم، وبدأت تهتم بالاحتفاظ بجمالها وهيئتها،
لم تضعف شخصيتها القوية مقدار ذرة، ولكنها امتلكت قدرا
كاف من الفطنة يجعلها تتجنب التدخل في السياسة، تَجَنَّب
الرهان على فرس مكسورة الأرجل في سباق خيل يعج

وهن (إخناتون)، ضعفت روحه قبل أن يضمر جسده ويثقل بالمرض، صار يقضي جل وقته في الاستماع للموسيقى وشرب النبيذ بكميات كبيرة تغيبه عن الوعي، كان يهرب من الواقع ومن الواجبات، يهرب من الحقيقة التي لطالما أفنى حياته يبحث عنها، وبدأ عقله يضطرب فيجعله يتخذ قرارات غير مفهومة، كأن اتخذ زوجة جديدة أقل شأنًا وجمالًا من (نفرتيتي)، ثم أهمل (نفرتيتي) نفسها على حساب ابنته الكبرى (مريت آتون)، ولكن الملكة ظلت تحبه، غفرت له جميع زلاته، ظلت (نفرتيتي) تقف بجانبه مهما جنح لظلمها وإهمالها، ظنت أنها كبوة مؤقتة ولها نهاية، ويتوجب عليها كزوجة مخلصنة أن لا تتخلى عنه، ولكن شيء واحد لم تستطع غفرانه، ضعف عقيدته..

(لقد كرست حياتي من أجلك.. من أجل عقيدتك.. من أجل إلهك.. أفنيت جمالي وشبابي من أجل أفكارك.. هجرت المدينة العظيمة (طيبة) وهاجرت معك لمدينة بقلب الصحراء فقط من أجلك.. ومن أجل عقيدتك.. تحملت تقلب آراء العامة والتي حولتني في لمح البصر من معبودة محبوبة لملكة خبيثة، فقط من أجل عقيدتك.. فلا تخبرني الآن أن كل ما ضاع من عمري ضاع هباءً.. لن أسمح لك بهذا.. أبدًا!!)

وقفت (نفرتي) أمام الملكة الأم (تي) ببهو قصرها، كانت (تي) قد انعزلت بقصرها تاركة مجال السياسة كله، ولاجئة لوصفات نمو الشعر وتطبيب الجسد، استعادت (نفرتي) قوتها وتخطت أزمة فقدانها لابنتها، ووقفت بظهر منتصب رافعة الرأس ذا الوجه جميل المحيّا، ولكنه لم تخلو نظراتها من حدة فشلت في إخفاء جمالها، ولكن نجحت في جعل (تي) تفهم مشاعرها من مجرد نظرة واحدة..

أخذت (تي) بذراعها، همست بأذنها:

- تعالي نجلس بالشرفة يا ابنتي.. هوني عليك.. لا حاجة لك لتتخذي مثل هذه الوقفة الرسمية.. أنت بحضرة أمك الآن..

تحركت (نفرتي) بخطوات مترددة خلف (تي)، لا تدري هل حقا هذه هي الملكة التي كانت قادرة على إدارة شؤون البلاد كلها إبان حكم العظيم (أمنحوتب) الثالث، والتي قامت بالفعل بتوطيد أركان الحكم لابنها أثناء ثورته الدينية الجديدة، لا تراها الآن إلا امرأة عجوز زالت عنها مهابة الحكم، وقارب رصيدها من الحياة على النفاد.. وشعرت بالحزن يتسلل لقلبها رويدا رويدا... هذه هي الحياة على كل حال..

أجلستها (تي) على كرسي وثير مبطن بريش النعام، ثم جلست بجانبها على كرسي مماثل ورثت نحوها بدون أن

تتحدث، لتدفعها للكلام..

تجنبتي (نفرتيتي) النظر لعيني (تي)، وقالت بهدوء محاولة أن تبدو هادئة الجنان:

- الملك يخفي عني أشياء..

- تقصدين زوجك.. (إخناتون)..

- أقصد الملك..

- لست بقاسية يا ابنتي..

- لقد بلغ مني الحلم مبلغه.. ولكن القسوة هي ما لم أكن يوما عليه يا ملكتي..

- سامحيه.. أو تجاهليه..

نظرت (نفرتيتي) في عينيها مباشرة فجأة وقالت بحدة جعلت ملامح وجهها الجميلة تبدو بشعة لوهلة:

- إنه يراسل كهنة (آمون).. إنه يسعى للصلح!

ارتج على الملكة (تي)، ارتعشت شفتاها، أمسكت بذراع (نفرتيتي) بقوة رغما عنها، رددت محدثة نفسها بذهول:

- هذا لا يحدث!

- لقد حدث بالفعل..

ثم نفخت (نفرتيتي) بوهن، وبدأ عمرها مقارب لعمر (تي) العجوز والهموم تثقل على بدنها وروحها وهي تقول:

- شَكَّت في مراسلاته مع (طيبة).. فَطِئَتْ لمحاولته التواصل سرًّا مع كهنة (آمون) محاولا التوصل لصيغة اتفاق تسمح له بالاحتفاظ بعرشه مقابل أن يتركوه وشأنه..

تمتت (تي) وأَلَمَّ يعصف بوجدانها ويطفو على ملامح وجهها فيضاعف من عدد تجاعيد وجهها الكثيرة:

- لن يسامحوه.. ولن يقبلوا أي اتفاق يكون هو طرفا فيه..

- إنه يدبر للصلح.. أكاد أقرأ أفكاره ودوافعه الآن.. إنه يعلم أنه ظَرِيذٌ يائِسٌ سيقع عاجلاً أمَ آجَلاً بين براثن مُطَارِدِهِ، مجرد استمراره في الهروب يعني أنه يقوم بتنسيق موكبه الجنائزي بيديه.. كنت أظنه قد فقد عقله، ولكن ما فعله مع أعدائه ب(طيبة) - أعداء الأمس أصدقاء اليوم - يَنُمُّ عن عقل ما زال يعمل بمنتهى الكفاءة.. يعلم أنه لا يستطيع أن يحنث بقسمه ويترك (أخت آتون).. كما أنه يعلم جيداً - سواء أكان أقسم أم لا - أنه لم يعد بإمكانه أن يعود (طيبة) كملك.. لقد تنامت الكراهية والثورة ضده هناك.. عرشه صار في خطر.. لهذا فكر في حل فاق في سوءه سوء تقديره للأمور.. لقد قرر بالفعل أن يقوم بتزويج ابنتنا الكبرى ووريثة العرش (مريت

آتون) للشاب (سمنخ كا رع) -أحد ابني (امنحوتب) الثالث وأخوه غير الشقيق.. زواج ملكي مثالي..

قاطعتها (تي) دون أن تشعر بنفسها:

- زيجة فاشلة.. الفتى ضعيف الشخصية لدرجة تجعل من (إخناتون) مقارنةً به قويًا.. كما أن (مريت آتون) لا يمكن ترويضها بسهولة.. هناك عدم تكافؤ.. لن تطول هذه الزيجة، ولن تصبح حياتهما سعيدة..

لوحت (نفرتيتي) بيدها بلا مبالاة وهي تقول:

- إنها زيجة ستؤدي غرضها السياسي لا أكثر.. ستفيد الملك والكهنة.. بشكل أكثر وضوحا إنه تزاوج بين الملك وبين الكهنة.. إنها عملية إعدام مُمنَهجة ل(آتون)..

- لن يعود هناك (آتون)..

أكملت (نفرتيتي):

- سيقوم بإشراك الزوج الجديد الضعيف معه في العرش بحكم أنه زوج للوريثة الشرعية، ثم سيقوم بالترتيبات لإرسالهما ل(طيبة) لترتيب الصلح مع (آمون) بصفة رسمية لا تُغضب أحداً ولا تجعله طرفا في الصلح بشكل علني..

- الفتى يجيد التدبير إذا..

لم تعقب (نفرتيتي)، كانت تعلم زوجها جيدا، وتعلم أن أمه (تي) تعرفه ربما بأكثر مما تعرفه هي شخصا، خطة كهذه لا يمكن أن تنبت من ذهنه، هناك أطراف خفية - ومؤثرة - في هذه القصة تقود الملك كالبهيمة من أذنيه.. ولكنها لم تعلن عن هذا، ووجدت نفسها تقول وهي على حافة البكاء:

- لا يهمني في كل هذا العبت إلا محبوبتي (مريت آتون)، لماذا يزوج بها بقلب مكيدة كريهة الرائحة مثل هذه؟ لماذا تتزوج ذكرا هو مجرد اسم لا أكثر؟ لن أغفر له توريطها في هذه القذارة لصالحه الشخصي، كما لن أغفر له ضعف إيمانه؟ صمتت (تي)، نظرت لعيني (نفرتيتي) مليا، كانت تعتبرها ابنتها حقا لا مجازا، قالت بعد فترة بانفعال:

- لا يمكنني أن أصدق.. لقد آمنت ب(آتون) من قلبك يا بنيتي..

تهدج نبرات صوت (نفرتيتي) وهي تقول:

- لا أرى إلها غيره..

أزالت (تي) غطاء رأس (نفرتيتي)، مسدت شعرها القصير الكثيف الجميل الذي تضوع منه روائح زهور الصحراء، ثم همست لها:

- سيُقصّيك عن الحكم.. عن القصر.. لا أعتقد أنك غبية
لتغفلي عن هذا..

انسابت دموع (نفرتيتي) الصامتة، تذكرت زورق صغير
بقلب بحيرة صناعية صغيرة انعكس عليها ضوء الشمس،
تذكرت وعود وآمال وأحلام، حب وأشواق حياة مذهلة،
سقطات وانتصارات، ضوء شمس مبهر يغشى الأبصار، ثم
تأتي مومياء ابنتها لتأتي بظلام نجح في أن يغطي على
ضوء الشمس.. قالت وهي تمسح دموعها بعزم:

- لن أسمح له بأخذ هذه الخطوة.. سأنفصل عنه.. لقد
بادر هو بالانفصال بالفعل، فابتعادي عنه ليس إلا رد فعل لا
فعل.. لقد أعددت العدة وسأنتقل خلال ساعات لقصر منعزل
بالباحية الشمالية.. سأخذ معي الطفل (توت عنخ آتون)،
أعلمه كيف يتأمل الطبيعة ويعشق الإله (آتون) عشقا إلهيا
خالصا لا شبهة لحب السلطة والحكم فيه..

لم تعترض (تي)، فرغم كل شيء ف(نفرتيتي) لم تخطئ،
وابنها الملك قد سار في طريق لا رجعة فيها.. طريق الضياع..
ضياع السلطة والهيبة والاحترام والعقيدة.. ضياع الحب..

وكانت سنة حكم (إخناتون) الأخيرة مأساوية بخصوص
علاقته ب(نفرتيتي)، لقد قام -بالأمر- بمحو اسمها من جميع
النقوش والزخارف بالقصر الملكي، عزلها عن الحكم كملكة،

وتابعت (نفرتيتي) بحزن نهاية سنين حبهما وشقائهما معا
تضيع أدراج الرياح في شهور معدودة، وانتهت قصة غرامهما
العظيمة نهاية مفاجئة.. ثم كانت النهاية بموت (إخناتون) بعد
انتقال (نفرتيتي) لشمال المدينة بعامين، مات منهوك القوى
حزينا، والأهم أنه مات خاسرا لقضيته، القضية التي حافظت
عليها زوجته المخلصة، وظلت تتعبد ل(آتون) يوميا بعد
وفاة زوجها، وتطلب منه مسامحة تقصير زوجها آخر أيامه..

عاشت منزوية آخر أيامها تبتهل لإلهها الذي كان عدد
مؤيديه يتناقص يوميا، حتى أثقلها الهم والحزن والشعور
بخسارة قضيته، رحلت قبل الأوان، كانت تؤمن أن الإنسان
موجود طالما هناك من يتذكره، فإن لم يعد هناك من يتذكره
فقد مات.. هكذا مات قبلها (إخناتون) وهو ما زال حيًا،
وهكذا كانت قد رحلت بالفعل قبل أن يقتلها شعور المرارة
جسديًا، شعور بأنها آخر المؤمنين بالأرض..



بطل قادش

كان (توت عنخ آتون) - الصغير - يملك ولا يحكم، كانت

السلطة الحقيقية بيد (آي) أكبر أعضاء الأسرة سنًا.. تسربت السلطة بطريقة ما ليد قائد الجيش (حور محب)، ليعيد شأن الآلهة المصرية الكبرى، وينزوي (آتون) كواحد من مُجمّع الإلهة لا أكثر.. تغير اسم الصغير ليصبح (توت عنخ آمون)، كبر وصار فتى يافعا عُقدت عليه الآمال لقيادة الجيوش واسترداد مستعمرات (مصر) ومكانتها، والتي انحطت كثيرا في عهد (إخناتون).. ولكن القدر لم يمهلهم ومات فجأة بلا وريث..

حاولت وريثته قوية الشكيمة (عنخ أس أن آمون) ألا تدنس العرش بالزواج من أحد العامة وراست -بجراًة منقطعة النظير- الإمبراطور الحيثي ليرسل أحد أبنائه لتتزوج به ويصير ملكا على (مصر)، ولكن سبقها (آي) وعاد ليعتلي العرش، ويغتال الأمير الحيثي بمجرد دخوله البلاد، لتبدأ عداوة رهيبة بين البلدين.. وبمجرد دفن (آي) ظهر للنور القائد المحبوب والمحكّ (حور محب) ليعتلي عرش (مصر)، قام بإصلاح أمور البلاد الداخلية، كما أعاد تعبئة وتنظيم الجيش، وقام بعدة حملات بالشرق -على استحياء لظروف البلاد المنهارة اقتصاديا- ونجح في الوصول لبلاد لم تطأها قدم مصرية منذ عهد الإمبراطور الأعظم (تحتمس) الثالث..

في نفس الوقت كان هناك فتى طموح سياسي اسمه

(برعمس) -أو (رمسيس)- التحق بالجيش ليواكب طموحه الثري، شاهد بعينه اضمحلال أحوال الجيش أثناء حكم (إخناتون)، فقلل هذا من طموحه مؤقتا لحين تولي (حور محب) العرش، لتعود معه أمجاد وهيبة الجيش.. يتدرج الفتى في مناصب الجيش تدريجيا ليصبح قائد خيول ثم قائد للعربات الحربية، وهي أرقى طبقات الجيش، جعله هذا مؤهلا ليصبح من أفراد البلاط الملكي، ويقترّب من الوزراء والملك نفسه..

نال ثقة الملك فترقى لرتبة فريق ثم قائد قلعة -قلعة (سيلي) الحدودية- مما جعله مسؤولا عن حماية الحدود مع (كنعان).. أُعْجِبَ به (حور محب) فعينه وزيرا للجنوب وذراعا يمينى له.. ثم نائبا شخصيا له في حياته، إذ لم يكن للملك (حور محب) وريثا فآثر اختيار نائبه قبل رحيله منعاً للصراع على السلطة..

كان ل(رمسيس) فتى ورث عنه طموحه هو (سيتي)، سلك (سيتي) مسلك أبيه في الجيش وأثبت قوة وجرأة وحكمة لا مثيل لهم.. تزوج من امرأة تدعى (تويا) كانت ابنة قائد كبير بسلاح العربات.. توفي ولدهما الأول طفلا، ثم عاشت الابنة الكبرى (ثيا)، وبعد فترة أنجبا الفتى (رمسيس) -تيمننا باسم جده- ليصبح لقبه الرسمي منذ الصغر هو (رمسيس) الثاني..

تولى الحكم (رمسيس) الأول -الجّد- بمجرد وفاة (حور محب)، ملكا نشيطا يموج بالحيوية، اتخذ من العظيم (أحمس) الأول قدوة وتشبّه به، يساعده ابنه (سيتي) الأول -ورث العرش- في المهام التنفيذية.. ولكن رحل (رمسيس) الأول سريعا ليتم تنصيب (سيتي) الأول ملكا، ويصبح (رمسيس) الثاني ورث العرش المستحق..

بدأ (سيتي) الأول حكمه بنشاط عسكري، واتجه شرقا بغرض استعادة هبة (مصر) ب(كنعان) و(سوريا)، ونجح بالفعل في استعادة الكثير من مستعمرات (مصر) هناك، خاصةً الساحل الفينيقي، ليعود خشب الأرز الثمين يتدفق ل(مصر) من جديد بعد غياب سنين..

انتفض الحيثيون ليقاوموا الملك المصري النشط وأطماعه، وكل همهم السيطرة على إقليم (أمورو) المحوري بوسط (سوريا).. كانت الإمبراطورية الحيثية حينها قوة جبارة لا يستهان بها، ولا يمكن مقارنتها ب(ميتاني) المهتزة التي هزمها (تحتمس) الثالث.. خاصةً وأن الحدود الغربية الليبية بدأت تتمرّد هي الأخرى، مما جعله يؤجل (سوريا) مؤقتا ويتجه غربا لإخماد التمرد، وهكذا يصبح مستعدا لغزو الشرق..

كانت مدينة (قادش) المحورية قد خرجت عن طوع

(مصر) منذ قرن تقريبا، فجعل (سيتي) الأول هدفه الأوحـد هو قهر (أمورو) و(قادش).. وقام بحملة مثيرة قـوية، شاركه فيها الفتى (رمسيس) الثاني كأحد قائـدي الجيش، نقل جيشه بحرا ل(فينيقية) ثم اتجه بـرًا ل(أمورو) ليشل حركتها، اتبع نفس خطة سلفه (تحتمس) الثالث في هذه الحملة، ومن (أمورو) انحرف نحو (قادش) وهاجمها.. وكانت حربا ضروسا لم يـز التاريخ لها مثيلا من قبل، بين الملك (سيتي) الأول وابنه المحارب (رمسيس) الثاني من جهة، والإمبراطور الحيثي الرهيب (مواتاللي)، الفتى القوي -الطموح أيضا- شديد المراس..

قصة محارب

الفصل الأول

السنة السادسة من حكم الملك (سيتي) الأول..

مدينة (قادش)..

(سأقبل بالصلح!)

قالها الملك (سيتي) بنبرة محايدة، لا يمكن للسامع أن يتبني منها إحساسه أكان حقا منتصرا أم مهزوما، وحده ابنه وورث عرشه (رمسيس) الشاب انفجر غضبا، وشعر بأن الزمن يعيد نفسه، وبأن ما فعله المارق (إخناتون) بثخله عن مستعمرات مصر بأرض (سوريا) و(أمورو) و(قادش) يحدث مجددا ولكن نصب عينيه هذه المرة، وبيد أبيه الملك العظيم، الذي لم يأل جهدا في تجريد الحملات الواحدة تلو الأخرى لاسترداد جميع مستعمرات (مصر) المسلوبة بالشرق، التي سلبها (الحيثيون) واعتبروها جزءا من مملكتهم - مملكة (خيتا) - الضخمة القوية..

كان الملك (سيتي) حقا قويا، قويا كسلفه العظيم المحارب (تحتمس) الثالث والذي أخضع أرض (سوريا) كلها من قبل تحت سيطرة (مصر)، ولكن كان حظ الملك (سيتي) سيئا

حقا بأن خصمه الامبراطور الحيثي الجديد (مواتاللي) يرفض رفضا باتا التنازل عن أية قطعة من أرض حيثية ورثها عن أبيه وأجداده، وأصر على استعادة (قادش) و(أمورو) وإعادتهما للحظيرة الحيثية..

وجد الفتى (رمسيس) نفسه يقول لوالده بغضب لم يجاهد ليخفيه:

- وما الفارق بيننا وبين المارق (إخناتون) إذا هكذا؟! نكتفي بالصلح ونترك لهم أرضنا!

صمت الملك (سيتي) وهو يدرك جيدا مدى الصراع النفسي الداخلي بقلب ابنه التواق للنصر، فكر بشفقة كم تنقص هذا الفتى الحكمة السياسية -بحكم عمره- رغم أن القوة البدنية لم تكن تنقصه أبدا، كان محقا في ما قاله عن (إخناتون)، الضعيف -سياسيا وبدنيا- الذي هجر البلاد وكل ما يدور حولها من صراعات حربية وسياسية، وهجر العاصمة الجديدة (منف) الشمالية و(طيبة) الجنوبية ليتخذ عاصمة جديدة لإلهه الواحد الأحد (آتون) بوسط البلاد بينهما، مدينة (آخت آتون)، بعد أن قضى على نفوذ الإله (آمون) وكهنته بالبلاد كلها مغلقا جميع معابده ومسرحا كهنته وجميع عمالته، مركزا على سطوة إلهه الجديد، ومركزا الأضواء على نفسه وعلى مليكتة الجميلة (نفرتيتي)، مدعيا أن إلهه الجديد

(آتون) قد حلّ في جسده هو، جسده المنفر العجيب
الضعيف النحيف المخنث مكتنز الصدر والأرداف..

انتشرت الثورات في البلاد جنوبا وغربا، ولكن كان الأشد
خطورة هو تمرد مقاطعتي (كنعان) وجنوب (سوريا) شرقا
بعد أن سحب (إخناتون) الجيش المصري منها، ثم جاءت
صحوة (الحيثيين) - مملكة (خيتا) الكبرى ب(آسيا)
الصغرى- فقاموا باجتياح غرب (سوريا) بالكامل، حتى
وصلوا لمدينة (قادش) الحيوية والتي كانت حصنا مصرية،
والتي سبق أن غزاها وأخضعها الملك العظيم (تحتمس)
الثالث منذ زمن، وكان دائما يفتخر بفتحها..

وبعد حصوله على غرب (سوريا)، كانت مسألة وقت قبل
أن يقوم (الحيثيون) بالسيطرة على (أمورو) بوسط (سوريا)
- والتي كانت مصرية أيضًا من قبل- ثم تحركوا مجددا غربا
ليعلنوا سيادتهم على الساحل (الفينيقي) بالكامل من (جبيل)
حتى (أوجاريت).. وبعد أن التهمت فتنة (إخناتون) نفسها
كانت (مصر) قد فقدت ولاية (سوريا) بالكامل..

قال (سيتي) بهدوء محاولا امتصاص غضب الفتى الطموح
(رمسيس):

- بُنِّي وورث عرشي والملك القادم.. هذه حرب لن نتصر
فيها مهما طالت.. لن نُهْزَم ولكننا لن نتصر.. إنها حرب يمكن

أن تطول -بلا طائل أو منفعة- حتى تفنى عظامنا وعظام
أحفادنا، بل على النقيض سنخسر كل مواردنا ولن نستطيع
أن نصير ملوكا تَخْلَدُ أَسْمَاؤُهَا على الحجر.. فكما ترى في
الملك العظيم (تحتمس) الثالث قدوة في الحرب، عليك أن
ترى في ملك عظيم آخر -هو الملك (أمنحوتب) الثالث-
نموذجاً يقتدى به في رخاء البلاد ومعمارها المذهل..

كانت الرمال التي أثارتها تحركات الجنود قد بدأت في
الاستقرار، وبدأت الرؤية تتضح نسبياً، عدد مهيب من
العربات الحربية والجنود كانت تحيط بهما لدرجة تمنع من
رؤية باقي الجيش، ما زال لباس الملك (سيتي) الحربي
ودروعه سليمة لم تمس، كان محارباً عتيداً لا يشق له غبار،
ولكن كان الأمير (رمسيس) أيضاً محارباً قوي البنية تبرز
عضلاته الفتية جلية أسفل دروعه، وقد شارك بالفعل في هذه
الحرب بنفسه بموافقه أبيه الملك، وجندل بأسهمه السريعة
البتارة عدداً لا يستهان به من الحيثيين، ورغم أنها كانت
مشاركته الثانية الحربية في حياته، فقد شارك بالفعل من
قبل في إحدى الحملات لتأديب بعض البدو الليبيين، ولكنه
لم يحارب في تلك الحملة كما فعل بهذه الحملة، لذا شعر بأنه
قد هُزم بصورة شخصية.. ووجد نفسه يتمتم بلا وعي:

- إذا ضاعت مجهودات القائد العظيم (حور محب)، ولم

يكن ينبغي له إعادة غزو (سوريا) من جديد!

صمت الملك (سيتي) طويلا هذه المرة، كان للقائد (حور محب) إجلالا لا يفوقه إجلال في قلبه - وفي قلوب المصريين جميعا، فهو من أعاد تنظيم الجيوش المصرية بعد نكسات (إخناتون) و(توت عنخ آمون)، وجرّد الجيوش شرقا من جديد واستعاد بالفعل (أوجاريت) على الساحل الفينيقي، امتلك (حور محب) كل مقومات القائد الناجح ولكنه افتقد للولد، وهنا يدين (سيتي) له بتنصيبه لأبيه - (رمسيس الأول) - نائبا له رغم عدم سريان دماء ملكية بعروقه..

التفت (سيتي) نحو ابنه (رمسيس) شاعرا بأن الفتى يقول أقل بكثير مما يعتمل بداخله، فقال وهو يمسك كتفيه بيديه مواجهها وجهه مباشرة:

- بني.. لقد ربحنا بالفعل مكاسب تربو بكثير على الخسائر.. ولو أن القائد العظيم (حور محب) موجود الآن لَمَا فعل خلاف ما قرّره الآن.. فما حققناه بجيوشنا من انتصار يفي بالغرض.. بالإضافة لأن مواجهة جيوش الحيثيين الكثيفة ليس لها أي داعٍ الآن.. لنعود للبلاد ونبدأ من جديد لُشْيِد الحجر ونكرّم الإله (آمون) ب(طيبة)..
لم يستسغ (رمسيس) ما فعله أبوه، فقد كانت فحوى المفاوضات تميل للأخذ بسياسة الأمر الواقع، أن تعترف

إمبراطورية (خيتا) بحقوق (مصر) المشروعة وسيادتها على مرافئ جنوب (فينيقيا)، وفي المقابل تكف (مصر) عن التحرش ب(قادش) و(أمورو) وتكف عن المطالبة بهما للأبد.. أصابته غصة من تخلي (مصر) -تخلي أبيه- عن حقوق أزلية ب(قادش) و(أمورو)، خاصة أنه شارك بالفعل في هذا الغزو، واستمتع مع أبيه باستعادة جزء مما فرط فيه المارق (إخناتون) من إمبراطورية العظيم (تحتمس) الثالث الشاسعة.. (لو كنت مَحَلَّك يا أبي لما فعلت مثل ما فعلت أنت الآن.. ولا أظن أن القائد (حور محب) كان سيفعل مثل هذا.. لبئس الفعل حينها ولبئس القائد سيكون.. لو كان القرار بيدي لفعلت خيرًا مما فعلت.. سأحارب حتى الرmq الأخير لاستعادة كل شبر من أراضي (مصر) وأراضي العظيم (آمون) وأراضي كل المصريين.. هذا تفريط في حق لا ينبغي أن تتكرر.. سأعود يوما ما هنا.. سأعود يا (أمورو).. سأعود يا (قادش).. وسأقاتل.. فإما نصر مبین وإما الموت مكرما والحياة الأبدية بعزة..)

لم يرد (رمسيس) على أبيه مكتفيا بنظرة صامتة تفوح بالمرارة، فاعتقد (سيتي) أن الفتى قد تاب إلى رشده، أو على الأقل يراجع نفسه في منطقه المتعجل المفتقر للخبرة والحنكة.. وسأله بحنو لما نادى منادٍ من بين الجنود أن الاتفاقية جاهزة للتوقيع من الطرف الآخر، وأن إمبراطور

(خيتا) بنفسه موجود لمشاركته بنود الصلح:

- ألن تاتٍ معي وتشهد هذا الحدث التاريخي؟

لم يفكر (رمسيس) لحظة وهو يجيب بشيء من القسوة
وبكلمات تحمل أكثر من معنى:

- لا.. سأتي بعد حين!

الفصل الثاني

قصر الملك (سيتي) الأول الصيفي ب(منف)

استند الأمير (رمسيس) الثاني لحاجز الشرفة الملكية مولياً الحديقة الغناء ظهره، ومبتسماً لوجه أمه (تويا) التي كانت تلج الشرفة لتوها قادمة من البهو الرئيسي، كانت ترتدي مئزراً كتانيا بسيطاً تألف من عدة طبقات تلتف فوق بعضها، وتنعقد بعقدة ذهبية ضخمة عند الخصر تغلق الرداء من العنق لأسفل الساقين اتقاءً لنسمة البرد التي بدأت تلوح في الأفق منذ أيام بدت كالرمق الأخير لفصول البرد، لم تضع أية شعر مستعار فوق رأسها لتَلْمَع جداول شعرها السوداء التي وخطها الشيب ليخلق بضع خصل فضية لامعة زادت بها بهاءً وهيبة، بدت كأُم من العامة وليست كملكة للبلاد، ولاحظ (رمسيس) -للمرة الأولى- كم يشبه أمه حقاً، وكأن بروز بعض من تجاعيد الثلاثينيات بوجهها أوضحت هذا الشبه، قبّلت وجنته برفق قبل أن تقول له مداعبة:

- يا لها من لحظة نادرة.. (رمسيس) -الذي شغف قلبه حب نساء الدنيا- يقف وحده في الشرفة..

أطلق (رمسيس) ضحكة صافية، لم يكن سِرّاً عن جميع أفراد البلاط الملكي حبه الشديد للنساء لدرجة امتلاكه لعدد

مهول من الزوجات والمحظيات، وربما العشرات من الأطفال الذين لا يعلم عددهم بالتحديد، هز رأسه وهو يقول لها في شيء من الجدية مبددا محاولتها المسائية للمزاح:

- الحياة لم تعد نساء فقط يا أماه.. هناك الحروب والنفوذ.. هناك مكاسب وخسائر..

جلست ببطء على مقعد خشبي مبطن بالوسائد المحشوة بالريش أسندت إليها ظهرها وهي تغمغم بمرارة:

- أصبحت وريثا للعرش مبكرا فأكسبك العرش همًا على همّ..

- ربما أشكر الإله (آمون) على هذا المنصب، ففي الأخير فأنا من صلبك، واحدة من عامة الشعب لا يجري بعروك دم ملكي..

- ولكن ملكنا العظيم (سي تي) يختار الأكثر جدارة بغض النظر عما يجري بعروقه..

- أتظنين أن ملكنا العظيم لا ينطق عن الهوى؟ أتحسبينه لا يخطئ كسائر البشر؟

استشعرت (تويا) قلقا خفيا، كادت تشم رائحة سخطة ابنها المكتوم، ونما لذهنها أنهما قد عادا لتوهما من حملة

ب(سوريا) ضد عدوهم المعتاد (الحيثيين)، والتي انتهت بمفاوضات صلح تتيح للطرفين غض النظر عن المزيد من الحروب والالتفات أكثر للشؤون الداخلية المدنية، عدّ الملك (سيتي) هذا نصرا في حد ذاته، ولكن لم يبدو على ابنه الثائر أية ملامح تبدو كفرحة بنصر، بل بدا -على النقيض- مهموما كمن مُني بهزيمة نكراء لتوه.. أشارت إليه ليقترّب، أدنى رأسه، خلعت جمة شعره المستعار لتلمع رأسه الحليقة تحت آخر أضواء شمس الغروب الباهتة، قالت وأناملها تفرك وجنته بحبّ:

- عليك أن تثق بأبيك.. لم يقضي كل هذه السنون في حروب مستمرة -تحت إمرة القائد (حور محب) أو الملك (رمسيس) الأول أو ملكا مستقلا- من أجل لا شيء، لقد أعاد ل(مصر) هيبتها على كل الحدود، لا أدعي أنني أعرف الكثير عن سياساته الخارجية أو حتى الداخلية ولكني أسمع الأخبار المتتابة، لنا هيبتنا الآن بعد أن تبعثرت على يد المارق ومن تبعه.. لدى أبيك الملك خبرة عليك عدم تجاهلها والتعلم منها..

لم يشأ (رمسيس) أن يغضب أمه ولكنه كان مستاء بشدة، فوجد نفسه يقول بدون وعي:

- أنا (رمسيس) الثاني ولست (سيتي)!

عُضت الأم (تويا) شفتها السفلى الممتلئة وقد استاءت بدورها من رد ابنها الأكبر، والذي يعكس طريقة تفكيره وكيفية رؤيته لأبيه، ولكنها -كأم- أدنت الفتى منها ووضعت رأسه على صدرها وهي تقول له بلهجة من يحدث طفلا:

- يهيئك أبوك لتصير خير خلف له.. لا تتعامل كالأصم الأعمى واستفد مما يحدث حولك.. وعندما تصير ملكا ستكون الأمور والمقاليد كلها رهن يديك.. تأمر فتطاع.. ولكن حتى يحين هذا اليوم فلا أمر إلا أمر أبيك..

دفن (رمسيس) وجهه بصدر أمه الدافئ وكأنه استحال طفلا تائها وجد وطنه بعد عناء، فاحتضنه بقوة وهي تقول ودموع على وشك الظهور بمقلتيها:

- الحرب؟ ولماذا الحرب إن كان هناك سبيلا آخر.. ألا تدرك أن الحرب هي أقصر طريقة للهلاك؟ ألا تظن أن هناك من ينتظرك بشوق -أنت وأبيك- بالقصر الملكي بعد خروجكما لأي حملة عسكرية مهما بلغت تفاهة هدفها؟

داهمهما صوت تنحنح نسائي، اضطرب الاثنان وكأن أحدا ما قد تَطَفَّل على حديثهما السري، ولكنها كانت (نفرتاري)، النوبية الطويلة الرشيقة وزوجة (رمسيس) الأثيرة بين محظياته الكثر.. هلت كالقمر بدرا رغم سمرة بشرتها، كانت -بخلاف الأم (تويا)- ترتدي رداء ملكيا كاملا كعاداتها طيلة

اليوم، تلاً لونهُ الأبيض بتناقض مع الحلقات الذهبية التي توزعت على أكمام الرداء وعنقه وأسفله عند القدمين، كان رداءً طويلاً فضفاضاً استقرت على صدره حلية دائرية تعج بالذهب والمجوهرات الثمينة التي تم نحتها من محاجر جبال الفيروز ب(سيناء)، ورغم أنها المفرطة التي اشتهرت بها كان لوجهها الأثر الأكبر لمن يحدتها، بوجه مليح دقيق الملامح صغير الأنف رفيع الشفتين، بزواج من عينيْن واسعتين محكولتين مزججتين للخارج بخط أسود طويل، بينما لمع غطاء رأسها الذهبي الطويل فوق رأسها، وجدائل من جمّة شعرها المستعار حالك السواد تتدلى من الخلف والامام فتزيدها شباباً وجمالاً..

لم تعتقد (تويا) يوماً أن (رمسيس) أخطأ بتفضيلها على سائر محظياته، إنها أجملهن وأكثرهن أناقة وأقواهن شخصية وأرجحن عقلاً، ولكن يظل قلبها يميل أكثر لزوجته أخرى اسمها (إيست نفرة)، يميل لها أيضاً قلب (رمسيس) بشكل واضح ولكنها تظل الزوجة الثانية بعد (نفرتاري)، ويبدو أنها هي - (إيست نفرة) - قد أدركت هذا بذكاء فاختارت أن تنزوي تاركة المجال للمحظية الأقوى (نفرتاري)، لا يقلل اختيار (تويا) ل(إيست نفرة) من حبها ل(نفرتاري) وإخلاص الأخيرة لزوجها (رمسيس)، ولكنها فقط تلك الأناقة التي تزيد عن حدها، تلك الحلى الدائمة والتبرج الكامل ليلاً

ونهارا، فقط هي لا تتقبل هذا، وترى فيه نوعا من التصنع لم يعجبها..

قالت (نفرتاري) بلهجة قوية تعكس شخصيتها قوية الشكيمة:

- الأمير العظيم (رمسيس) الثاني وورث العرش الملكي، لديك زيارة شخصية وأمر عاجل..

ثم أضافت بلهجة أقل قوة منحنية بظهرها بعض الشيء باحترام:

- جلالة الملكة (تويا).. مساءً جميلاً كوجهك يا سيدتي..

أشرق وجه (رمسيس) وهو يعتدل -ماسحاً بأطراف أنامله دموعاً كانت في طريقها لتنحدر من طرفي عينيه- ثم يهرول نحو (نفرتاري) بحب ليحتضنها بقوة جعلتها تطلق أنة ألم ممتزجة بضحكة متداركة، بينما ردت الملكة (تويا) ل(نفرتاري) التحية بابتسامة مماثلة، وفكرت للحظة أنها لا تميل لها بشكل كُلي ربما لميل ابنها اللامحدود نحوها، ربما هي لا تحب الفتاة لأن (رمسيس) يحبها حبا يماثل حبه لها هي شخصياً كأمه.. (وربما يحبها حبا يتجاوز حبه لي!)

تركت (تويا) الأفكار تموج في عقلها بدون أن يبدو تأثيرها على ملامح وجهها، ففي كل الأحوال ليست (نفرتاري)

بالزوجة السيئة.. طال احتضان (رمسيس) ل(نفرتاري)
فبدأت (تويا) تتحرج، فسارعت بالقول متسائلة:

- من الزائر؟ وما الأمر العاجل؟

انفصل (رمسيس) عن (نفرتاري) على الفور وكأنه نسي
تماما هذا الأمر، فتركت (نفرتاري) يدها اليمنى تطوق عنق
(رمسيس) وعيناها تنظر نحو (تويا) لتجيبها بغموض:

- كبيرة كورال الإله (آمون)..
لمعت عينا (رمسيس) و(تويا) تردد بفرحة:

- (ثيا)!

كان ل(رمسيس) شقيقتان كانت لهما مكانة خاصة بين كل
شقيقاته، الكبرى (ثيا) ذات الصوت الملائكي والتي اتخذت
سبيل الإنشاد الديني في معابد (آمون)، بينما كانت الصغرى
(حنت مي رع) هي إحدى زوجاته العديدات، والتي تميزت
بأنها قد وُلِدَت وأبىها الملك (سيتي) على العرش مما يعني
أنها من وريثات العرش، وكان زواج أخيها (رمسيس) منها
توطيدا لمركزه ومن التقاليد المعروفة بدءا من الأسرة
الثامنة العشرة، ورغم هذا كان دورها هامشيا يكاد يقتصر
على زواجها من (رمسيس) لا أكثر..

سبقها صوتها.. يدندن لحنا جميلا بعث بالدفع في القلوب، واستجلب ذكريات دفيئة قديمة من قلب الماضي، ذكريات مشتركة بين الأم والابن تعلقت كلها بالحنين للماضي السعيد المبهج، الماضي الذي كان فيه (سيتي) مجرد جندي بالجيش لا يقع فوق كاهله مقدار ذرة مما يحمله الآن من مسؤوليات جسام فوق كتفيه، وكان اللقاء حارا بين (رمسيس) و(ثيا)، لم يخلو من دموع امتزجت فيها الفرحة بالحنين للماضي..

كانت (ثيا) وسيمة ملامح الوجه، بجسد قصير يغطيه رداء كتاني طويل، وجمة شعر مستعار مجدول طويل، كان من الواضح أن ملامح وجهها اكتسبت من ملامح وجه أبيها (سيتي) أكثر بكثير مما اكتسبه (رمسيس)، ولكن مجرد وقوفها بجانب (نفرتاري) جعل منها أشبه بلوحة باهتة بجوار لوحة أصلية متألقة، لقد كان لوجود (نفرتاري) ثِقَلًا لا يضاهي، والذي هو نابع بكل تأكيد من شدة تعلق (رمسيس) نفسه بها، ولكن دعنا لا ننسى قوة شخصيتها بالأساس والتي دفعت (رمسيس) لمثل هذا التعلق الشديد..

أحسنت (نفرتاري) ضيافة (ثيا)، ورغم أن الحوار دار طويلا حتى ساعات مبكرة من الليل بين الأم وابنها وابنتها، وكان أغلبه يتعلق بأيام مضت وانقضت ولكن تبقى منها حلو عطرها، لم تجد (نفرتاري) ما تشارك به سوى الابتسام بين

الحين والآخر، والضحك المتحفظ أحيانا، ولكنها لم تبدي تبرما أبدا رغم أنها لم تستطع مشاركتهم في حوار الحنين للماضي، وكانت بين الفينة والأخرى تقوم بالتربيت على ظهر (رمسيس)، وكأنها تعلن عن وجودها بطريقتها الخاصة.. ولكنها لم تكره أيًا منهم، ولم يكن أي منهم يكرهها، لقد كانت جلسة يمكن وصفها بالجلسة العائلية الصافية التي لا تشوبها شائبة..

تشاءت (تويا)، وجاهرت أنها استمتعت كثيرا بالساعات السابقة كما لم تستمتع منذ فترة طويلة، وقبّلت (ثيا) وطالبتها بتكرار الزيارات كلما استطاعت، وعدم الاعتكاف بمعبد (آمون) ب(طيبة)..
- يمكنكم أن تأتوا جميعا وتزوروني.. (طيبة) مدينة ساحرة بالصيف أيضا كما هي شتاء.. ولا تقل عن (منف) وربما فاقتها جمالا..

كانت المسافة بين (منف) -العاصمة الشمالية الصيفية- و(طيبة) -العاصمة الجنوبية الشتوية- حقا رهيبة، تتطلب أياما على متن المراكب النيلية من أقصى الشمال للجنوب، ولكنهم كانوا -كأسرة ملكية- يضطرون لزيارة (طيبة) مرة سنويا على الأقل بعيد الفيضان، كما كان الملك -عادةً- يقضي فصل الشتاء ب(طيبة) هو وأهله أجمعين، كهروب من

برد الشمال ولجوءً لاعتدال جو الجنوب، ولكن لم يدر بخلد أيهم أن يزوروا (طيبة) صيفا، ولم يريد أحد أن يخيب أملها فقَبَّلَتها (تويا) قُبَلَتَيْنِ متتاليتين على وجنتيها قبل أن تقول:
- فكرة جيدة بنيتي.. سنتحدث بها مع أبيك الملك (سيتي)..
جارتها (نفرتاري) لتقول مازحة:

- ولكن دعي كهنة الإله (آمون) يرتلون صلواتهم ليلا ونهارا ليقينا الإله بنفسه شر حر صيف الجنوب..
احتضنتها (ثيا) بمودة، ثم احتضنت (رمسيس) بقوة، وهي تشعر -بحاسة التخاطر الأخوية- أن هناك شيئا ما يكدر مزاجه، فهمست في أذنه:

- وكأنني أراك أصبحت ملكا قبل الأوان..
اغتنب (رمسيس) ابتسامة سريعة وهو يفكر في هذه الكلمات، لشد ما كانت دقيقة وصادقة..
وبعد قليل، حَلَدَتْ الملكة (تويا) لنوم عميق بغرفتها نومها الملكية بجانب ابنتها (ثيا)، والتي ستغادر في الغد عائدة ل(طيبة)، بينما جلس (رمسيس) على الكرسي الوثير بالشرفة، وعلى ركبتيه استكانت (نفرتاري) جالسة مسندة

رأسها - بعد أن خلعت غطاء رأسها وانهمر شلال جدائل الشعر الأسود الحالك الثقيل على كتفيها- على صدره القوي الفتى، وهي تتسمّع دقات قلبه القوية كدقات طبل موكب ملكي.. جلس الاثنان هكذا طويلا وثالثهما الصمت، كان (رمسيس) سارحا لا يشغل تفكيره سوى أمر (قادش) و(أمورو) وإقليم (سوريا) بالكامل، وكانت (نفرتاري) حكيمة بما يكفي لتكتفي بمنحه الدفء الذي يحتاجه حتى يبدأ في الحديث ونثر مكنونات أفكاره التي تحفظها جيدا، ولكنها احترمت صمته وأعطته متعة أن يتحدث متى يشاء..

قال بعد صمت تجاوز النصف ساعة:

- أعتقد أن أمي على حق.. لماذا أنا مُصِرٌّ على حرب قد تجعلها تخسرني وتجعلك أرملة؟

صمت (نفرتاري) لتمتص مغزى كلماته القليلة والتي لا تعكس على الإطلاق رغبته الحقيقة، إنه يعبر عن الرأي المضاد لرأيه تاركةً لها مهمة دَخْض حُجَّتِهِ - حُجَّةُ أُمِّهِ - وإثبات وجهة نظره.. يريد منها دعما خفيا.. هذا ما لمستته..

اعتدلت.. تماست شفتاهما للحظات تشاركا فيها نفس الهواء الداخل والخارج من أنفيهما، ثم ابتعدت ببطء وهي تقول بعد أن أسكرته قليلا:

- للملكة رأيها الذي لا يمكن إغفاله.. ولكن هل هذا ما يبحث عنه أميري وورث العرش والملك القادم؟ هل تبحث بالفعل عن حياة هادئة خاملة وموت هادئ ينقطع بعده ذكرك بين أولادك وأحفادك وذريتك جميعاً؟ بالطبع سأكون أكثر نساء العالم حزناً إن أصابك أدنى مكروه، ولكني سألجأ للانتحار إن تيقنت يوماً أن اسمك لن يتم تخليده على جدران المعابد كملك أسطوري وبطل لا يشق له غبار.. وفي النهاية إن هي إلا حياة مؤقتة، وما الموت إلا وسيلة لعبور الحياة الأبدية الحقيقية..

ثم أضافت مازحة:

- كما أنني أعتقد حقاً أن العيش هو عادة مميتة!

ابتسم وأضاء وجهه.. لقد أعطته بالفعل ما يريد سماعه من كلمات.. قالت له باختصار أن الموت أفضل من فقدان الحياة..

قال لها مغيّراً الموضوع:

- أبي سيسافر غداً لـ (طيبة)..
- لماذا؟

- مزيد من الأعمال الجديدة المعمارية للمعابد..

- هذا يعني أن زيارة (ثيا) كان مُحَظَّط لها مسبقا لتعود معه..

- هذا واضح..

- جيد لها أن تسافر برفقة أبيها الملك رحلة العودة.. والرائع أنها تحمّلت كل هذا السفر الشاق فقط لتجالسك أنت والملك والملكة لمدة عدة ساعات فقط لا غير..

ابتسم (رمسيس) بدون أن يرد أو يعلق.. حبه لأخته (ثيا) لا يمكن وصفه بالكلمات.. ولكن نظرة لوجه (نفرتاري) جعلته يدرك أن حبه لزوجته الجميلة هو أشبه بحب الإنسان لمعبوده، إنه تقديس أكثر منه حب..

اعتدلت (نفرتاري) وقامت من على ركبتيه في حركة مفاجئة، شعر بالدفء ينسل من جسده بمفارقتها له جسديا، بينما أولته ظهرها لثوان وهي تقول مسترسلة كالحالمة الواعية، وكأنها تُحدّث نفسها:

- لقد قصّت لي جلالة الملكة الأم (تويا) عن رحلة ليست منذ الزمن البعيد، رحلة قام بها والدك جلالة الملك عندما كان أميرًا بمصاحبة جدك (رمسيس) الأول، رحلة ل(طيبة)، قام الاثنان بتجديد بوابة شيدها العظيم (حور محب) أمام بوابة (الكرنك) الأمامية والتي هي من إنشاءات عظيم آخر محب

للمعمار هو (أمنحوتب) الثالث.. خطط الاثنان -أبوك وجدك- لتنفيذ مشروع ضخم يحول هذه الساحة القديمة ليهو أساطين ضخم يكون الأكبر من نوعه في البلاد كلها، ويكون خير تكريم للإله (آمون).. وتم الانتهاء من البوابة وإزالة الزخارف القديمة ونحت زخارف حديثة أكثر بهاء وجمالا..

صمت (رمسيس) منتظرا انتهاءها من استرسالها، منتظرا هدفها النهائي، فأكملت وهي تعود لتلتفت إليه:

- لا أريد أن أقول لك أن تركز للأعمال السلمية العظيمة -رغم أهميتها القصوى لتخليد اسمك- ولكنه ميزان لا بد من معادلته.. ميزان الحرب والسلام.. التوسع العسكري والرخاء المعماري.. هناك أشياء لا يمكن أن تراها إلا بالظلام، ولا زلنا بقلب نور النهار لتتضح لك.. ستراها بمرور الوقت فقط وتَسْلُ سواد الظلام المشرق المبين.. استغل النهار بأفضل مما يكون حتى تكون مستعدًا لقدوم الليل..

قَطَّب (رمسيس).. أكملت ملوحة بسبابتها للأعلى باهتمام:

- هل تعلم أن الأمير (سيتي) بعد انتهائه من رحلته هذه المكلفة بنجاح معماري مذهل، انتقل على الفور ل(منف) ومنها لمعسكرات الجيش (الدلتا) حيث شاهد التدريبات وأشرف عليها بنفسه.. وأعلن يومها التعبئة العامة للجيش تمهيدا لحملة عسكرية بالشرق..

ثم اقتربت من (رمسيس) مجددا، ووضعت أناملها على
جانبى رأسه الحليق وهي تقول بهدوء مثير:

- اذهب مع أبيك ل(طيبة).. شاركه أمجاد بناء المعابد..
ولكنك ستعود ل(سوريا) يوما ما.. وحينها ستكون بطل
الحرب الأوحده.. لا تنس (قادش) ولكنك في نفس الوقت لا
تغفل عن (طيبة) مدينة (آمون).. الميزان.. حاول أن تجعل
الميزان دقيقا لا تميل إحدى كفتيه لترفع الأخرى.. كما يوجد
للحياة الأخرى ميزان يوجد هنا ميزان آخر.. ولا توجد لدي
ذرة شك في قدرتك على تحقيق التوازن بالعالمين، أيها
البطل العظيم.. (رمسيس) الثاني..

ابتسم لها (رمسيس) وغمغم برضا تام:

- كم أحبك أيتها السيدة العظيمة..

ثم أضاف وابتسامته تتسع:

- أخبرني شقيقتي (ثيا) - فور استيقاظك باكرا- أنني
سأرافقها رحلة عودتها ل(طيبة) مع الملك (سيتي) الأول..

الفصل الثالث

(طيبة).. السنة الثامنة من حكم (سيتي) الأول ١٢٨٧

ق.م

وقف (رمسيس) يحدق في النقش المائل أمامه على أحد جدران البهو الكبير ب(الكرنك)..

(الشوسو) -البدو الأعداء- يخططون للثورة.. وقد اتحد شيوخ قبائلهم واتخذوا مواقعهم على تلال (خورو) -أي فلسطين حاليا- وهناك قاموا بالتحريض على الفوضى والشغب.. كلٌ يقتل قريبه.. إنهم يتجاهلون أوامر القصر.. وقد سُرَّ الملك بسماعه هذا الخبر..

توقف (رمسيس) عن القراءة، وردد بصوت مرتفع رغما عنه:

- سُرَّ الملك؟!

بوغت بالملك شخصيا -أبيه (سيتي) الأول- يرد عليه وهو يشير نحو النقش:

- هذا ما حدث بالفعل.. في السنة الأولى لحكمي فور رحيل جدك (رمسيس) الأول.. اختارت قبائل (الشوسو) بقبائل (كنعان) وقتا غير مناسب للتمرد، كنت تواقا لاستعادة

سيطرتنا على الشرق، وأردت أن أشن هجوما سريعا ومباغتا على حكام (كنعان) المحليين غير العابئين بأوامر الملك المصري، الغارقين حتى ذقونهم في حروبهم الداخلية، قمت بتعبئة جيش جرّار وتحركت به مندفعاً من حصن (سيلي) الحدودي مخترقاً صحراء أرض الفيروز متجها نحو (كنعان)، قاضيا في طريقي على كل المقاومات المحلية حول الآبار أو بالقرى الصغيرة، حتى وصلت (غزة) عاصمة (كنعان) الإدارية، وهزمت بدو (الشوسو) شر هزيمة، كنت صغيراً حينها يا بني فلم تشهد مثل هذه الحرب، ولكني كنت على يقين أنك كنت لتبلو فيها بلاءً حسناً.. أكملت سيري شمالاً حتى أحكمت قبضتي على كل أرض (كنعان) حتى ساحل (فينيقيا) الجنوبي.. عدت البلاد مظفراً ولكني جردت المزيد من الحملات لاحقاً، كلها بعمق أرض (كنعان) وشمال (سوريا)، استطعت تأمين الساحل الفينيقي وعاد خشب الأرز يتم استيراده مجدداً من هناك لصنع مراكب (آمون) العظيمة، ولكن انتهت هذه الانتصارات بأن صارت حدود البلاد ملاصقة لحدود الحيثيين، لذا صار من المحتم اصطدام القوتين العظيمتين.. وهذا ما حدث بالفعل.. تعددت حروبنا ضدهم عدة مرات.. كان هدفي الأسمى هو تثبيت الحكم المصري ب(كنعان) و(فينيقيا) تمهيداً للوثوب لقلب وشمال (سوريا).. أردت استعادة أملاك العظيم (تحتمس)

الثالث ولكن كان الحيثيون أقوياء حقاً، بينما لم يواجه ملكنا السابق العظيم حينها إلا مملكة (ميتاني) المهتزة.. لقد تغيرت الظروف يا ولدي وصار الوضع مختلفاً.. لذا قنعت بالصلح والعودة للبلاد لبدء إنجازات سلمية عظيمة..

لم يعلق (رمسيس)، فهم بالفعل في (طيبة) الآن يكملون الإنشاءات المعمارية محاولين منافسة أمجاد العظيم (أمنحتب) الثالث.. لقد انتهى الصيف بالفعل وَهُمْ على أعتاب الشتاء، وقد كانت كل الغزوات الخارجية موسمية صيفية، وقد بدأ الصيف بما يعني توقف الحروب كالمعتاد وبدء اتجاه الملك لتصريف الشؤون الداخلية والاستعداد لعيد (آمون) الكبير بالشتاء ب(طيبة)، وكان الملك يجلّ الإله (آمون) إجلالاً يليق به، ولكنه ما زال يولي الإله (بتاح) اهتماماً شخصياً أعظم جعله يطلق على نفسه لقب (محبوب بتاح)، ويميل للاستقرار بمدينته (منف) وقتاً أطول..

كان اهتمامه بالمعمار ملحوظاً، خاصةً في الحرص على تجديد زخارف البهو المعمد الكبير ب(الكرنك)، وإضافة نقوش تمثل معاركه ب(كنعان) و(سوريا) و(ليبيا)، بالإضافة للطقوس المعبدية المعتادة وتجسيد مراكب احتفالات الإله (آمون).. كما كانت أعمال البناء والتشييد تجري على قَدَمٍ وساقٍ بمعبد الجنائزي بالبر الغربي، ونحت حجرة دفنه

بوادي الملوك بقلب الجبل الصحراوي، وكذلك بناء هيكل لعبادة الإله (أوزيريس) بالحجر الجيري الأبيض الناعم بمدينة (أبيدوس) المقدسة..

كما أنه لم ينس القُطر الشمالي من النهضة المعمارية، فقد بدأ الأعمال الإنشائية الجديدة بمعابد (رع) إله الشمس بمدينة (أون) مدينة الشمس - (هليوبوليس) عند الإغريق- وذلك قبل أن يولي موطنه الأصلي شرق الدلتا اهتماما خاصا، فيبني لنفسه هناك قصرا صيفيا رائعا مكسوا بقراميد مزججة باللونين الأبيض والأزرق.. وفي نفس الوقت اهتم بالعمل في المحاجر بلا كلل لتوفير متطلبات المنشآت الملكية والمعمارية المتزايدة في عصره، وأغدق على العمال مما سرّع من وتيرة العمل واستخراج الأحجار، كما كانت المعابد العظيمة ب(طيبة) ترتفع بالبنيان بلا تراخ أولا بأول كلما غمرتھا السيول..

قال (سيتي) الأول لابنه:

- أتعلم أنك ستكون الملك القادم..

اقشعر بدن (رمسيس) من هول اللفظ، وتمتم دون إرادة منه:

- الملك؟!!

تذكر (رمسيس) عندما كان فتى في السادسة من عمره، كانت السنة السابعة لحكم أبيه، وكان قد بدأ تدريبه على مهام الملك بالفعل، الحربية منها والسلمية، مع ظهوره الأول للجمهور ارتجف وكاد يسقط مغشيا عليه، أسنده أبوه بقوة وتحدث عنه قائلا: (اجعلوه يبدو ملكا حتى أشاهد جماله وأنا ما زلت حيا!) وأمر من حضر من أمناء الديوان الملكي ليضعوا التيجان على جبهته صائحا: (ضعوا التاج الكبير على رأسه! سوف يدير هذه الدولة ويصرف شؤونها، وسوف يقود شعبها..) فكر (رمسيس) في سره: (هكذا تحدثت عني وهو ما زال حيا.. هكذا تكلم لأنه يحبني من صميم قلبه.. ولكن ما زال هناك شيء في نفسي.. إنها (قادش)!)

جاءهم الوصيف (باسر) على عجل ليخرجهم من تأملاتهم بنقوش الجدران وتأملاتهم بسراديب ذكرياتهم، كان (باسر) قد التحق بخدمة القصر كوصيف للملك وهو بعد في العشرين من عمره، وكان (رمسيس) يشعر يقينا أن (باسر) هو من سيضع التاج بيده على رأسه عند تتويجه ملكا، فللشباب طموحا لا يخفى على أحد، والتزاما لا يمكن مضاهاته، وولاء مقدسا للملك..

كان (باسر) يلهث من الانفعال، انحنى للملك قبل أن يعتدل قائلا:

- ثورة ببلاد (أرم) في (كوش) بأعالي النيل!

كانت أعالي النيل تعني الجنوب، فكلما توغلت أكثر نحو منابع النيل العظيم زاد ارتفاع الأرض، لهذا (مصر) العليا هي جنوبها بينما (مصر) السفلى هي الدلتا، كانت المنطقة الثائرة (أرم) تقع بعد الشلال الثالث غرب النيل، والمنطقة معروفة بخصبها الشديد، فهي خير بقاع (النوبة) في الري والزراعة.. رددت الشائعات أن أهل (أرم) يخططون لمواجهة الوادي الخصب شمالا، وإزعاج الأهالي هناك للاستيلاء على مواشيهم ومحاصيلهم..

كان انفعال (سيتي) الأول شديدا، وصاح بغضب:

- ما هي (أرم) التافهة هذه التي تتجراً وتعكر صفو الهدوء في مدة حكمي وملكى؟! سيقوم والدي (آمون-رع) بإخضاعهم لي بحد السيف.. أنا قادر على إخضاع أي قُطر بما فيه هذه الأراضي..

صمت (رمسيس) شاعرا بالأمر الجلل، ووجد نفسه يفكر أن الأمور معقدة حقا، فبينما لا يفكر هو إلا في (سوريا) و(قادش) شرقا، هناك دوما أخطار أخرى محتملة، الليبيون غربا و(كوش) جنوبا..

وضع (سيتي) الأول خطة الحرب -بقلب استعداداته

للسلام الداخلي- وصمم على ذبحهم أينما كانوا وضرب قواعدهم، بعث حملة عسكرية كثيفة من المشاة والعربات توجهت رأسًا للصحراء الجنوبية لمحاربة المعتدين، وعادت بعد سبعة أيام وقد أخضعت جميع الأعداء وغنمت أيضا ستَّ آبار في نصرٍ واحد، وأسَرَتْ منهم الكثيرين، ليتم وأد انفصال (أرم) في مهده.. وترسخ في ذهن (رمسيس) الفتى أن أبيه رجل حرب لا يشق له غبار عندما تستدعي الحاجة، ولكنه لم يكن يعلم أن هذه ستكون آخر أعمال أبيه في ميادين القتال بعد أن سَطَر فيها حروفا وفصولا مشرفة..

جاءت السنة التالية ليركز (سيتي) الأول -ومعه ابنه (رمسيس) الثاني- على الصحراء الجرداء بين البحر الأحمر والنيل، والتي يموج جوفها بالذهب الذي كان يملأ نفوس المصريين إغراءً.. أشرف الملك بنفسه على إنتاج الذهب من صحراء (إدفو)، ووضع الترتيبات اللازمة لحفر بئر وتشبيد معبد صغير بملحقاته يفيان بحاجة عمال مناجم الذهب، وهو يضع نصب عينيه الذهب من أجل معبده ب(أبيدوس) أعظم منشآت عصره، وبينما يتجوّل الملك الأب بالصحراء، كان الابن الأمير (رمسيس) يجدّ في العمل بجنوب (مصر) صانعا مجدا مبكرا شخصيا، العديد من المسلات شديدة الضخامة والتماثيل العملاقة الرائعة باسمه، وبنى المراكب الكبيرة لنقل الحجر والإسراع في العمل المعماري، وقد قنع -جزئيا- أن

ما يفعله يماثل أهمية غزو الشرق والجنوب والغرب أهمية، متذكرا كلمات زوجته الحكيمة (نفرتاري) عن الميزان وكيفية عدم إخلال توازنه..

كانت السنوات الست التالية أيام سلام ورخاء، أصبح (سيتي) الأول في الأربعينيات من عمره وضعفت لياقته البدنية، وكان لرحلته الصحراوية بحثا عن الذهب دورا في هذا التدهور السريع، فبدأ يوزّع وقته بين قصره الصيفي ب(منف) شمالا وقصره الشتوي ب(طيبة) جنوبا، وكانت اختياراته في بطانته موفقة بشكل ينم عن حصافة لا بأس بها، واختار وصيفه (باسر) ليصبح هو وزير الجنوب بأسره رغم أنه لم يكن قد جاوز الثلاثين بعد..

زادت وتيرة المعمار في سنين الملك (سيتي) الأول الأخيرة ب(أبيدوس) و(طيبة) والبر الغربي ووادي الملوك المنعزل، ثم كانت أول حملة عسكرية يقودها الأمير (رمسيس) بنفسه في السنة الثالثة العشرة من حكم الملك، عندما قام بإخماد ثورة صغيرة بالجنوب - النوبة - وكانت هذه الحملة هي أول عهد (رمسيس) بالحرب، وتجددت أحلامه المتعلقة ب(قادش) مرة أخرى ولكن بشكل أكثر عملية هذه المرة بعد أن أكسبته السنون شيئا من الخبرة، ويمم وجهه شطر البحر شمالا، وقد رأى أن بإمكانه مباغته (سوريا) من جهة

البحر غربا بدلا من السَّيْرِ بَرًّا لمسافات طويلة، وهو ما كان مستحيل عمليا بسبب (الشراذنة)، قراصنة البحار الذين يسيطرون على البحر سيطرة كاملة، لذا قام (رمسيس) بالتخطيط -مع أبيه الملك- لكيفية إخضاعهم، وبعد تفكير توصلوا لخطة إيقاع خصومهم في فخوخ جاهزة، وهكذا وضع (رمسيس) بتجهيز عدة دوريات سرية لحراسة المداخل البحرية، وأرسلوا ببضع سفن كفخاخ للقراصنة، فلما أغاروا عليها فوجؤوا باستعدادات رهيبة من الأسطول المصري، فاضطربوا وتشتت شملهم وتم أسر عدد كبير منهم ليصيروا جنودا بالجيش المصري بالإجبار.. وهكذا صار الطريق نحو الشرق -بحريا- ممهدا ل(رمسيس).. ثم صار الملك كله ممهدا له بوفاة أبيه العظيم (سيتي) الأول بقصره الجديد قرب (أواريس)، عن عمر يناهز الخمسين تقريبا، رغم توقع الجميع أنه كان سيعيش على الأقل عشر سنين آخر.. وصار (رمسيس) الثاني ملكا مطلقا مُنْهِيًا دور نائب الملك..



الملك الصقر.. الثور القوي.. محبوب العدل والحق..
هو المنتمي للربّتين، وحاتي (مصر) القاهرة للبلاد
الأجنبية..

حورس الذهبي.. طويل العمر.. صاحب الانتصارات
العظيمة..

ملك مصر العليا والسفلى..

أوسرماعت رع (القوي في الحق هو رع)

ستب ان رع (المختار من رع)

ابن رع (رمسيس الثاني محبوب آمون).

الفصل الرابع

السنة الأولى

تم إعلان التتويج رسميا بأسلوب تقليدي، كان الفتى (رمسيس) في الخامسة والعشرين من عمره، متدربًا على ممارسة مهام الملك على يد عظيم سبقه، يملؤه النشاط ويغلبه التفاؤل، يضع نصب عينيه أسلافه، ومُفَنِّيًا نفسه بحياة تُخَلَّد للأبد لدى خلفائه كملك أسطوري قدوة..

كانت أول مهامه هي دفن الملك الراحل.. بدأت استعدادات تجهيز الجثة والتحنيط والتي تتطلب عادةً سبعين يومًا.. أرسل (رمسيس) لرؤسائه ب(طيبة) لسرعة تجهيز مقبرة الملك الراحل استعدادا للدفن.. كان قد صرح (نفرتاري) برغبته -قراره المتخذ بالفعل- ببناء مدينة جديدة نواتها قصر (أواريس) الصيفي وملحقاته مع الثكنات العسكرية، واختار لها اسما جديدا وهو (بي رمسيس عانختو) أي مدينة رمسيس الأكبر الظافر، ولكن نصحته زوجته بالترث في بدء التنفيذ الفعلي إلى ما بعد دفن أبيه.

تحرك أسطول المراكب الكبيرة جنوبا بالنيل حاملا موميا (سيتي) الأول لمدفنه.. عمل (رمسيس) بنصيحة (نفرتاري) -كان دائما ما يعمل بنصائحها- وقام بالتوقف بالأسطول

بعض الوقت ب(أون) و(منف)، معلنا الوضع الجديد ومشيعا الملك الراحل -ظاهريا، وإعلام وإقرار وضعه الجديد كملك -في الباطن.. استمر الإبحار بعد ذلك أسبوعين ضد التيار قبل أن يرسو الأسطول ب(طيبة).. تمت الطقوس التقليدية بمعبد (سيتي) الأول الجنائزي قبل أن يتحرك الموكب بالطريق الصحراوي نحو وادي الملوك، حيث أجريت طقوس الدفن، ثم عاد (رمسيس) ل(طيبة) من جديد، ليبدأ مباشرة أول أعماله الملكية بترأسه لاحتفالات عيد (أوبت) الكبير -أهم أعياد (آمون)- مصاحبًا مراكبه الذهبية في رحلة الميادين من (الكرنك) للمعبد وسط هتاف الجماهير.. ذهابا ثم عودة بعد ثلاثة وعشرين يوما حيث ينقضي العيد.. وكان موسم العيد معتادا للشروع في قرارات سياسية جديدة دائما، فانتظر الجميع أوامر الملك الجديد بترقب متوتر..

كانت أوامره الجديدة هادئة نسبيا ولم تثر أي جدل، وأهمها هو الإبقاء على (باسر) -الملتزم المخلص- وزيرا للجنوب ب(طيبة)، والذي انحصرت جهوده -هو و(أيوني) وزير (النوبة)- في مجال البناء.. كما تم تنشيط العمل لاستكمال بهو الأساطين ب(الكرنك) بعد أن أسماه معبد (رمسيس) الثاني الفَعَّال.. واحتفل ب((مدّ الحبل))، أي تحديد نطاق لمعبده الجنائزي الفسيح (الرمسيوم) -الواقع في نطاق (الكرنك) نفسه- تمهيدا لإرساء أساساته.. ثم

حان موعد الرحيل من (طيبة) فاصطفت المراكب الملكية الذهبية للملك، يجلس بمقدمة مركبه وعن يمينه الملكة الأم وعن يساره (نفرتاري)، وينعكس عن المراكب الذهبية بريقا يخطف الأبصار، ثم تحرك الركب النيلي مُبحِراً شمالاً، تاركاً خلفه الشواطئ السوداء المكلفة بالزرع، وجبل (طيبة) الجنوبي يتلأأ خلف الشواطئ بلونه الوردي أسفل السماء الزرقاء الصافية، ليستقر الركب لمقر الحكم الجديد بمدينة (رمسيس)..

فوجئ باليوم الثاني -أثناء تفقده لسير الأعمال بمقابر (أبيدوس) ومعبدها- أن هناك تقصيرا شديدا، فبالرغم من استمرار العمل بِهَمَّةٍ على معبده هو، توقف العمل على معبد أبيه (سيتي) الأول رغم أن المعبدين متجاورين، وكأنَّ المشرفين قد أساءوا التقدير واندفعوا للعمل الخاص بالملك الجديد على حساب العمل الخاص بالملك الراحل، فغضب (رمسيس) غضبا شديدا وقد تذكر والده الحبيب العظيم، وجمع مجلس البلاط بشكل طارئ، فلما تجمعوا حوله صاغرين مؤدبين فروض التحية والولاء تحدث إليهم بشكل صارم قائلا:

- انظروا.. لقد جمعتكم لأعرض عليكم ما يجول بفكري..
لقد فكرت فرأيت أن أجَلَّ الأعمال هي تكريم الراجِلين..

إن العطف نعمة، ومن الخير للابن أن يهتم بأبيه.. (تهدج
صوته قليلا هنا ولكنه تمالك نفسه على الفور) لقد عازمت أن
أخصص المنح ل (سيتي) الأول حتى يقال عني للأبد ((إن
ابنه هو الذي خَلَدَ اسمه)) وبذلك ينعم عليّ أبي (أوزيريس)
ويطول بقاء ابنه (حورس) (يقصد نفسه هنا) لأنني فعلت
كما فعل..

شجعتة (نفرتاري) الواقفة بجانبه بضغطه بسيطة على
راحة يده، كانت حريصة على حضور كل الاجتماعات الملكية
الهامة مثل هذه، وكذلك الأعياد والمناسبات..

ولما انصرف الجمع همست في أذنه:

- خير ما فعلت يا حبيبي.. والآن حان وقت البدء في
تخطيط المقر الصيفي الجديد، إنه وقت مدينة (رمسيس)،
ولتجعلها تنافس في روعتها الحاضرتين العتيديتين (منف)
و(طيبة)..

السنة الثانية

مرت السنة الثانية سهلة يسيرة بدون أحداث تذكر،
واستمرت نهضة البلاد العمرانية في ازدياد، وبدا واضحا
اهتمامه بإله الشمس (رع) ومدينته (أون) مؤكدا على

العلاقة بينهما، ومعلنا أنه تَطَوَّرَ من ابن (رع) ليصير مُقْتَنًا للإله نفسه بالأرض، ثم تجسيد ل(رع) الإله يسعى بين البشر..

السنة الثالثة

بدأت سنته الثالثة بمغازلة الإله (آمون) هذه المرة، مُغْلِنًا أنه قد بنى له بيته الخاص بعد أن تتبع في ملفات المعبد القديمة عقيدة غامضة تدعي أن (آمون) هو الإله المطلق، وصرَّح أنه هو (رمسيس) المُخَوَّل للبناء من أجله..

ثم يمم وجهه شطر تلال (النوبة) النائية بالصحراء الشرقية، باحثا عن مصادر جديدة للذهب تكفي مشاريعه شديدة الضخامة، وعكف على دراسة المنطقة لوضع خطط صالحة لحفر آبار الماء بِطُول الطَّرِيق الشاقة للمحاجر، فقد كان معروفاً غنى هذه المنطقة بالذهب ولكن منع شح الماء جهود استخراجهم.. خاطبه النبلاء قائلين: (لم يظهر الماء بهذه الصحراء منذ دهور، ولكن إن قلت أنت لأبيك إله النيل أن يجعل الماء يفيض من الجبل، سيفعل استجابةً لطلبك)

فأجابهم (رمسيس):

- صحيح.. صحيح حقا كل ما قلتم يا أصدقائي.. لم يتم

العثور على الماء قَطّ بهذه البلاد منذ أيام الإله.. لكني أنا الذي سوف يحفر بئرا تدرّ الماء كل يوم.. وسيرشدني أبي (آمون) والآلهة الصقور وآلهة (النوبة).. عندئذ سيمجد الكبراء إلههم ويركعون له ويعلو صياحهم..

ورغم اتخاذ الأمر صيغة الاتصال بين الملك وأبيه الإله، ولكنه عمل بالفعل بطرق علمية على البحث عن الماء، وكان التوفيق حليفه ليتفجر الماء من هذه الأرض بأحد الآبار بقلب الصحراء القاحلة وهو ما لم يحدث من قبل.. فأصبح تعدين الذهب ممكنا...

وذات ليلة، وبينما (رمسيس) يتكئ على مخدعه، و(نفرتاري) تناوله عناقيد العنب البارد، قالت له:

- لقد أكرمت ذكرى أهلك الرعامسة.. هذه المدينة الجديدة (بي رمسيس)- مذهلة حقا..

- هذا القصر الصيفي الذي نقيم به الآن بناه أبي الملك (سيتي) الأول.. لابد أنه كان سيفكر ببناء هذه العاصمة الجديدة إن طال به العمر أكثر.. لقد ترعرعنا -أسرة الرعامسة- بهذه المنطقة الخصبة الشاسعة -أرض (رع)- ما بين (أون) و(أواريس).. ففي تشييد لهذه العاصمة تكريم لأُسْرَتِنَا لا شك فيه، كما أنها قريبة من الحدود الشرقية مع (كنعان) مما يجعلها تصلح كقاعدة قريبة لإرسال الحملات

نحو (سوريا).. كما أنها توفر بُغْدًا عن أقرب عدُوٍّ محتمل معتاد ألا وهو كهنة (آمون) المتركزين ب(طيبة) وسائر البلاد، والذين صاروا أكثر حرصا بعد ما فعله بهم المارق (إخناتون)، لهذا حاولت تقليل شأنهم بإعلاء شأن آلهة أخرى مثل (رع) و(بتاح).. حتى (ست) إله مدينة (أواريس) أعليت من شأنه..

- قرار حكيم للغاية.. كما تجلّت أيضا عظمتك في القدرة على توفير الموارد اللازمة لبنائها من الصحراء القريبة من (أون)، استغللت منابت الحجارة هناك لتشكيل تماثيل المعابد في (بي رمسيس) و(أون) نفسها و(منف) أيضا..

- (بي رمسيس) هي هَمِّي الأول والأخير..

- لا أعتقد أن (بي رمسيس) هي آخر همك..

اعتدل (رمسيس) مبتسما يظنها تمزح، ولكنه لمح الجدية بلامح وجهها، فسألها بتعجب:

- ماذا تقصدين؟ ما الذي قد أحمل همه أكثر أهمية من مدينتي الجديدة هذه؟

أجابته باختصار بحروف من نار:

- (قادش).. لقد حان وقتها!

واعترف بينه وبين نفسه أنها على حق.. وأنه يفكر منذ عدة أيام بأنه آن أوان نبذ السلم بعد أن فعل أقصى ما يمكن لملك أن يفعله حتى الآن.. بنى المعابد العظيمة، وقر الآلهة وعظم شأنها جميعا، رَمَمَ الآثار بنجاح، أوجد الماء لتعدين الذهب، أعطى الوظائف الإدارية لمن يستحقها، قمع الثورات بتمكّن وبدون أن يخسر جنديا واحدا.. لقد حان وقت تجريد الحملات الحربية نحو الشرق النائم منذ عشرة سنين كاملة.. نحو (كنعان) و(سوريا) و(فينيقيا).. نحو (قادش)..

الفصل الخامس

السنة الرابعة

زحف (رمسيس) بجيوش جرارة شرقا.. كانت (كنعان) خاضعة له فكان الوصول لسواحل (فينيقيا) الجنوبية سهلا وسريعا، ثم أخضع (صور) و(جبيل) و(عرقاتا) - بعد حصار- لتسقط أهم مدن (فينيقيا) بين يديه.. توغل بعمق الشرق بين الجبال ليباغت (أمورو) ويستولي عليها بالكامل خلال شهرين.. بوغت ملك (أمورو) إذ لم يتوقع غزوا مصريا بعد سنين الهدوء العشرة، فخضع ل(رمسيس) ودفع الجزية -مقابل الحماية- صاغرا، ولكنه أرسل للإمبراطور الحيثي -مولاه السابق- برسالة يبلغه فيها بما حدث.. بينما عاد الملك المظفر (رمسيس) لمدينته الأثيرة القريبة (بي رمسيس)، وحلمه القديم باسترداد (قادش) قد أصبح أقرب مما كان من قبل، ورأى أنها ستسقط بيده الصيف القادم بكل تأكيد..

وصلت رسالة ملك (أمورو) للإمبراطور الحيثي القابع بعيدا ب(آسيا) الصغرى، استشاط الإمبراطور (مواتالي) غضبا، وبدأ يخطط لعدّ العدة لاستعادة (أمورو) وكسر شوكة الملك حديث العهد قبل أن يعلو شأنه وتزداد طموحاته، ونوى هذه المرة أن يسحق ملك (مصر) وجيشها فلا تقوم لهم قائمة مجددا.. فقام بتجهير جيوشا كثيفة مدربة جيدا، واستزاد

بالجنود من حلفائه بالمنطقة، لقد كان أكبر جيش شهده التاريخ الحيثي، ما يقارب ٢٥٠٠ عربية حربية قتالية وفرقتان مدججتان بالسلاح من ٤٠ ألف محارب، بالإضافة لما استطاع استنفاره من حلفائه.. تم تفريغ مخازن الإمبراطورية الحيثية من الذهب والفضة مقابل تجنيد كل ما يمكن تجنيده..

كان الملك (رمسيس) الثاني على الجانب الآخر يحشد جيوشه ب(بي رمسيس)، كانت قوافل العربات الحربية تدور وتلف ليروض سائقوها خيولهم الجامحة، وكتائب المشاة تحتشد، وتم فتح خزائن الأسلحة على مصراعيها لتتدفق منها السهام والسيوف والحراب والأقواس، ليحصيها الكتبة ذوو الخبرة ويسلموها للقواد كل حسب حصته..

لم يكن عدد الجنود مماثلاً لعدد جنود خصمه الحيثي، بلغ عدد الجيش المصري في أكثر التوقعات الإحصائية خمسة وعشرين ألف جندياً، وكان جيشاً كثير الجنسيات.. كانت أهم فرق الجيش هم المصريون الوطنيون من رماة القوس ورجال الرمح، يحمل رماة القوس الأقواس والسهام وهم أخف جِماً من رماة الرمح ولكنهم أشد خطراً، فقد اشتهر المصريون بالمهارة في الرماية وتسببوا في كثير من الانتصارات، أما الآخرون من المصريين فحملوا الدروع والفؤوس والخناجر والسيوف القصيرة، وتقلدوا الدروع

الخفيفة.. ما زالت تقسيمات الحربي العظيم (تحتمس)
الثالث يتم العمل بها حتى الآن بكل ما أجراه من تعديلات..

هناك فرقة جنود العربات الحربية، وكانت من المصريين
حصريًا، وكانت أرقى درجة من درجات المشاة، يقفون بثبات
فوق العربات المتمايلة يمينا ويسارا، تنعكس أشعة الشمس
على زينة العربات الذهبية لتعطي الأبصار.. وتتوسطهم عربة
الملك (رمسيس) نفسه، يحيط بها رجال الحرس الملكي من
شعوب البحر القراصنة -السردانيين أو الشرادنة- وكانوا
مرتزقة في خدمة الجيش، يضعون على رؤوسهم خوذات
معدنية ذات قرون، وحول صدورهم الدروع القوية وبأيديهم
السيوف الطويلة القاسية.. وخلفهم صفوف جنود المرتزقة
السودانيين مغطيين أجسادهم بجلود الحيوانات المفترسة،
وفي المؤخرة جنود ليبيون من البدو..

استقر رأي (رمسيس) -بعد مشاورات مع أركان حربه-
على أن يقود بنفسه الجزء الأساسي من الجيش من طريق
البرل (كنعان) ثم جنوب (سوريا) وصولا إلى (قادش).. بينما
تسلك القوات المعاونة -المدد- طريق الساحل الفينيقي قبل
أن تنحرف للداخل شرقا لتلتحم بقوات (رمسيس) الرئيسية
في (قادش) نفسها، وكانت المسيرة متزامنة بحيث تصل
القوتان (قادش) في نفس اليوم والتوقيت..

سار (رمسيس) على رأس جيشه الذي قسمه لأربع فرق
تسمّت تيمنا بأسماء الآلهة الكبار، (آمون) و(رع) و(بتاح)
و(ست)، كلّ فرقة تلمّح للمدينة مسقط رأس جنودها، فرقة
(آمون) -والرئيسية- من (طيبة)، فرقة (رع) من (أون)،
فرقة (بتاح) من (منف) وفرقة (ست) من مسقط رأس
عائلة (رمسيس) نفسه بين (أون) و(أواريس).. وكان الملك
(رمسيس) راكبا عربته الحربية الملكية الذهبية المتألّئة
الموشاة بالزخارف الزرقاء البديعة، وفي معيته أحد الوزراء
وعدد من حريمه وبعض من أولاده.. وخلال شهر واحد فقط
من مغادرته ل(بي رمسيس) وجد نفسه على بعد أميال من
(قادش)، بدون أن يرى للعدو المهيب أي أثر، العدو الذي من
المفترض أن يكون معسكرا بالكامل في (قادش) الآن، والذي
لابد وأن يهب للدفاع عن المدينة..

ها هي (قادش) على مرمى البصر، وقد لاحت بالأفق قمم
أبنيتها وانعكست في الفضاء أشعة الشمس عن سطوح
أنهارها ومياه الخندق المحيط بها، وكان السهل الممدود بين
الجيش المصري و(قادش) خاليا من أي إنسان، فزادت دهشة
(رمسيس) وقواده وجنوده.. وتحولت الدهشة لقلق عظيم..

ولكن ذهبّت الدهشة لما جاء الكشافّة برجلين من بدو قبيلة
(شاسو)، تعهد الرجلان بضمان تأييد شيوخ قبيلتهما وولائهما

ل(مصر) والانسلاخ عن الحيثيين، تم استجوابهما بالضرب بالعصا بعنف للاستعلام عن مكان تمرکز جيش الحيثيين الخفي، فأفادا بأن الجيش قد فرَّ خلف مَلِكِه لأقصى الشمال بمجرد سماعهم بزحف (رمسيس) والمصريين، فسُرَّ الملك، وصدق ما أراد أن يصدقه، وظن -يقينا- أن إمبراطور الحيثيين قد تقاعس بالفعل عن القتال وقبع شمالا خائفا..

كان نهر (العاصي) يجري من الجنوب للشمال بقلب (سوريا)، وكانت (قادش) تقع فوق ربوة على لسان أرضي بين نهر (العاصي) وبين مصب رافد نهري يجري من الغرب للشمال الشرقي ليصب بنهر (العاصي) نفسه شمال غرب (قادش)، وقد شق أهل المدينة قناة اصطناعية عرضية من الرافد لتصب بالنهر جنوب المدينة، مما يجعل من (قادش) -عمليا- جزيرة صناعية يصعب اقتحامها، يحدها شرقا نهر (العاصي) الرأسي، وشمالا اتصال الرافد بالنهر على شكل مثلث، وغربا الرافد نفسه، وجنوبا القناة الاصطناعية..

تعجل (رمسيس) الشاب في الوصول ل(قادش).. رأى حلمه يتحقق أمامه بمنتهى السهولة.. سار في حاشيته وأركان حربه وحرسه الخاص ميمما شطره جهة الشمال، تليه أولى فرق الجيش فرقة (آمون)، بينما انتشرت الفرق الثلاثة الأخرى على بعد أميال، وبدأت في التجمع ببطء

غير قادرة على مواكبة سرعة الملك الشاب المتعجل للنصر.. وأعلن (رمسيس) النصر النهائي وهو يعبر الرافد النهري الغربي ليعسكر بشمال غرب (قادش)، وأنهم سيبدؤون ضرب الحصار على المدينة خلال أقل من يوم، واستقر الفرعون المنتصر جالسا على عرشه بخيلاء ينتظر وصول باقي الفرق الثلاثة.. حتى حدثت المفاجأة المزلزلة..

وجد الكشافة اثنين من جنود الحيثيين، فاقتادوهما ل(رمسيس)، واعترف الجنديان بأن الإمبراطور الحيثي (مواتالي) وأغلب جيشه يقعون جميعا إلى الشرق من المدينة خلف ضفة نهر (العاصي) الشرقية، ولا صحة لخبر فراره للشمال، وأنها كانت خطة ذكية وضعها الإمبراطور عن طريق اثنين من الجواسيس حتى يتسنى له مباغته الملك الشاب وسحق جيشه حين غرة، وأن حشدا رهيبا من العربات الحربية يتجه الآن من جنوب (قادش) نحو الملك المصري بقيادة ثلة من أقوى أمراء الحيثيين، أبناء (مواتالي) نفسه وأمير (حلب)..

ارتج على (رمسيس).. سارع باتخاذ إجراءات مضادة فعالة وسريعة للهجوم الخاطف القادم.. كانت فرقة (رع) قد بدأت تعبر السهل نحو المعسكر بالفعل، بينما ما زالت فرقنا (بتاح) و(ست) متأخرتين بمسافة بعيدة.. سارع (رمسيس) بإرسال

وزيره شخصيا متبوعا بحامل كؤوسه وأحد الكشافين لاستعجال الفرقتين، خاصةً فرقة (بتاح) الأكثر تأخرا.. (أسرعوا بالزحف ومؤازرتي.. سيدكم الفرعون يقف بالمعركة وحيداً!) فكر (رمسيس) في الأمر من كل جوانبه.. (يا إلهي وأبي العظيم (آمون).. يا أبي العظيم (سيتي).. يا أيها الجد الأكبر والأعظم (تحتمس) الثالث.. يا روح (نارمر) و(أحمس) وكل من سَلَف من الأساطير.. هل ستنتهي قصتي هنا والآن؟ وحيدا مشتتا بعيدا كل البعد عن بيتي ومدينتي؟ هل سأذفن هنا؟ هل ستهجر مقبرتي الملكية ويتحلل جسدي هنا بالصحراء القاسية؟ هل تنتهي الأحلام كما تنشأ بغتة بلمح البصر؟ هذا قاسي.. هذا جنوني.. هذا لا يحدث حقا للعظيم ابن إله الشمس..)

رغم انفعاله لم يكن (رمسيس) مذعورا.. لم يسمح للصدمة أن تشل تفكيره وحسن تقديره للأمور.. ورغم يقينه أن تراخيه في تحري صدق أقوال الجاسوسين الأوليين هو السبب المباشر لهذا الموقف العصيب الآن، لكنه لم يلوم نفسه، لقد أراد المعركة منذ سنين، فلماذا يهرب منها الآن؟! وترددت كلمات زوجته (نفرتاري) برأسه والتي قالتها له منذ سنين لتبعث بالسكينة بين جنبات روحه.. (هل تبحث بالفعل عن حياة هادئة خاملة وموت هادئ ينقطع بعده ذكرك بين أولادك وأحفادك وذريتك جميعا؟ بالطبع سأكون أكثر نساء

العالم حزناً إن أصابك أدنى مكروه، ولكني سألجأ للانتحار إن تيقنت يوماً أن اسمك لن يتم تخليده على جدران المعابد كملك أسطوري وبطل لا يشق له غبار.. وفي النهاية إن هي إلا حياة مؤقتة، وما الموت إلا وسيلة لعبور الحياة الأبدية الحقيقية..)

سارع بتوجيه ابنه الأمير (برحرونمف) ليقوم بتأمين وإبعاد العائلة الملكية من الميدان بالفرار غرباً تفادياً للخطر المحدق، موقناً أن الهول ذاته قاب قوسين أو أدنى منه..

كان الملك الحيثي (مواتاللي) قد حشد جيوشه الجرارة سراً، الجيوش التي تزيد عن عدد جيوش المصريين الضَّعْف على الأقل، وبدأ يزحف غرباً داخل (سوريا) الغربية، وعسكر خلف سلسلة الأشجار والمخابئ على الشاطئ الشرقي لنهر (العاصي) المواجه ل(قادش)، بينما ترك كشافوه يراقبون سير الجيش المصري بالجنوب.. وبينما يملأ الاطمئنان قلب الملك المصري الغافل، كانت قوة الحيثيين الضاربة تخترق مخاضة (العاصي) المنخفضة لتنقض على (رمسيس) -المندفع للأمام بلا روية وحده- مباشرة..

دَوَّت بالفضاء ضوضاء مزعجة تنامت لسمع (رمسيس) وجنوده الأقربين، مصدرها باب المعسكر، وشاهدوا بأعينهم جنود فرقة (رع) تفر بذعر أمام صف من العربات الحربية الحيثية أخذتها على حين غرة، انقسمت صفوف فرقة (رع) وتمزقت وانشطرت لنصفين، وأحاطت بهم العربات الحربية الحيثية، انطلق الجنود يركضون مُشَتَّتِي الشمل ضائعي الألباب، يحاولون الفرار من قبضة الجيوش القاسية القاتلة.. كانت فرقة (آمون) حتى الآن سليمة لم تُمَسَّ بسوء، ولكنها كانت منهكة بتأثير طول السفر، وكان من المفترض أن تبدأ وقت عسكرتها للراحة الآن، فلما رأى جنود فرقة (آمون) أفراد جنود فرقة (رع) دبّ الذعر بقلوبهم، وانتقلت عدوى الهزيمة عبر الفرقتين.. وجعلتهم رؤية عربات العدو تطيح في المصريين مصفرة الجو حولها - يصابوا باليأس والقنوط.. فلَمَّا انقضَّت العربات الحربية الحيثية على المعسكر مباشرةً بشراسة ولَّى الجميع الأدبار.. وطوَّقت العربات المعسكر، وصارت تصول فيه وتجول بلا رادع.. وحاول فصيل متبقي الفرار جنوبا ولكن بلا فائدة.. لقد تم نصب الفخ ولم يعد هناك فكاك من الهزيمة التامة.. الملك المصري سينهزم اليوم هزيمة ساحقة تبدد أحلامه القديمة منذ أن كان أميراً.. وابتسم (مواتالي) من موقعه خلف ضفة نهر (العاصي) الشرقية، فلم يتبقى من المصريين بالمعسكر

إلا الملك نفسه وبعض من عائلته ورجاله المقربين الذين أبوا فراقه بشجاعة، وتجمعوا حوله مُتَحَلِّقِينَ مدافعين..

وعندما رأى حامل درع الملك (رمسيس) حصار عربات العدو اصفر لونه وتسمر مكانه رعبا.. وبدا كالميت قبل أوانه.. وقال ل(رمسيس) مرتجفا بمنتهى الذعر: (يا إلهي الطيب والأمير الجبار.. نحن نقف وحدنا أمام العدو الذي لا يرحم.. لقد فرّ مشاتنا وعرباتنا وتركونا.. لماذا تبقى لتنقذهم؟! لنكن واضحين، أنقذ نفسك وإيائي.. يا (أوسر ماعت رع)!!

نظر (رمسيس) نحوه بتقزز وصاح به بلهجة هادرة مخيفة: (قف مكانك واثبت يا حامل درعي! سأواجههم مثل منقار الصقر.. وسأعمل فيهم تقتيلا وتذبيحا وألقيهم أرضا أو بغيابات اليم! الثبات الثبات! سأفترس جموعهم كالبازا!)

أَنَا (حُورَس) الَّذِي يَقِطُنْ فِي ضَوْءِ شَمْسِهِ..

إِنَّ لَدَيَّ قُوَّةً فِي بَرِّيقِي..

لَقَدْ تَجَوَّلْتُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ..

(حُورَس) يَجْلِسُ عَلَى عَرْشِ أَبِيهِ، (حُورَس) فَوْقَ عُرْوَشِهِ..

وَوَجْهِي هُوَ وَجْهٌ صَفَرٌ مُقَدَّسٌ..))

السطور ٣٩ و ٤٠ و ٤١ من الفصل ٧٨ اللوحة ٢٦ من كتاب

الموتى..

الفصل السادس

استرجع (رمسيس) الثاني أيامًا قد مَرَّتْ منذ زمن فات.. منذ عشر سنين على أقل تقدير.. كان صغيرا يتدرب على الإمساك بالقوس ورمي الأسهم، وكان أبوه الراحل (سيتي) بنفسه يقوم بتعليمه كيفية الإمساك بالقوس وشد وتره وتلقيمه بالأسهم، ثم إطلاقه ليصيب منتصف الهدف بمنتهى الدقة.. أبدى (رمسيس) الصغير براعة استثنائية في الرمي بالأسهم، فبالرغم من تفوق المصريين بشكل عام في مجال الرماية عن كل شعوب العالم حينها، إلا أن (رمسيس) لم يكن يتميز بالدقة في إصابة أهدافه فقط، بل وأيضا بالسرعة في إعادة تلقيم القوس بالسهم وإطلاقه، ربما كان هذا جزء أصيل من شخصيته المتعجلة للنصر دائما، ولكنه استغله خير استغلال وصار خبيرا في الرمي بالأسهم خلال شهور قليلة، واعترف له من شهد تدريباته من قادة جيوش (سيتي) الأول أن الابن حقا رامى أسهم جبار لا يمكن مقارنته بأي محارب مصري، لا يمكن مقارنته بأي رامى أسهم خلقتة السماء.. وأبدى الملك (سيتي) نفسه حبورا وفخرا وهو يرى ابنه الأمير يتنافس مع قادة الجيوش وأفضل رماة الجيش المصري في سرعة الأداء، فرغم أن خصومه في التدريبات -وهم الأفضل في البلاد- أصابوا أهدافهم بمنتهى الدقة وبلا

مجال للإخفاق، ولكن الفتى (رمسيس) كان يصيب الأهداف
العدة المتتالية -بالخمسـة والستـة أهداف- وبدقة خارقة،
بينما خصمه -البارع- لا يزال يعيد التقاط سهمها جديدا من
كنائته ليصيب هدفا ثانيا.. وردد الجميع بانبهار إنها هبة الإله
(آمون) للملك (سيتي) الأول والتي حلت في جسد ابنه
الأمير وورث العرش..

صاح (رمسيس) في الحال في سائق عربته - (مينا)- وهو
يثب إليها بحماس.. أمر (مينا) بالاتجاه للأمام مباشرة نحو
العدو في خط مستقيم لا يحيد عنه أبدا.. ولا ينظر يمنة ولا
يسرة ويكتفي بغلق عينيه.. ثم زأر كأسد وهو يلتقط كنانة
ضخمة معبأة بالأسهم ويعلقها بظهره.. انطلق (مينا) كالسهم
بالعربة الحربية الملكية للأمام تلاحقه أنظار المصريين
المبهورة وأنظار الحيثيين المذهولة على حد السواء، ورغم
سرعة اندفاعه واهتزاز العربة البالغ تمكّن (رمسيس) من
الوقوف بثبات على متن عربته، شامخا كطودٍ عظيم إذ كان
طوله يناهز المترين، وتحولت ذراعاها لآلتي قذف للأسهم
بلا توقف وبلا انقطاع، كل سهم يخترق عيِّنا أو يَنفُذُ عَبرَ
عُنُقٍ فيُزهِقُ روحًا.. وخلفه تدافعت جياد أهله والمقربين منه
يُظَلِّقون صيحات قتالية ألقت الرعب في نفوس الحيثيين،

إذ لم يتوقعوا من الملك ومن حوله إلا استسلاما سريعا مذعورا.. وزاد من زعرهم تساقط الجثث حولهم بأثر الأسهم، خاصة أسهم الملك (رمسيس) نفسه، والذي بدا لهم كشیطان متجسد يندفع للموت بلا اهتمام، وكأنه راغب فيه، بعكس ملكهم -الجبان- الذي يكتفي بالقبوع خلف ضفة النهر منتظرا نتيجة المعركة التي دفع إليها بخيرة قواده وجنوده..

حذا الأمراء المصريين حذو ملكهم واندفعوا خلفه يرمون بالأسهم.. وتسبب اندفاع الملك وأمرائه في خلق ثغرة في قلب الفرقة الحيثية المهاجمة رغما عنهم ورغم كثرتهم العددية، ولما رأى بعض المصابين بالمعسكر والفارّين جنوبا ما يحدث تَغَيَّرَ موقفهم، فمنهم من عاود ليدعم ملكه الذي يتقدم صفوف جيشه بنفسه، ومنهم من سارع بطلب المساعدة من الفرقتين المتبقتين المتأخرتين، ولكن كان يلزم لوصولهما مُضِيَّ وقت ليس بالقصير، كما أن الملك الحيثي نفسه يقبع على رأس جيش مهيب معسكرا على الشاطئ الآخر، ولو أنه أسرع بعبور النهر لثم القضاء على (رمسيس) ومن معه بلمح البصر، ثم سيميلون ليسحقوا الجميع المتبقي بلا هوادة، فأيقن الجنود أنه لم يبق أمامهم إلا مساندة ملكهم والقتال حتى الموت بشرف بجواره..

كان الملك يحارب وحده كفرقة جيش شرسة، استطاع

بمهارته وسرعته وجرأته في الدفع بجزء من عربات
الحيثيين نحو النهر، وكانت هذه حركة ذكية جدا منه، فقد
كان يعلم أنه يمكن استخدام سلاح رمي الأسهم ضده أيضا
عن طريق الرماة المعسكرين مع جيش الملك الحيثي خلف
النهر، فلما أصبح ملاصقا لعربات خصمه وخلفهم النهر فقط
استطاع ان يأمن شر نبالهم وأسهمهم، والتي لن تجرؤ على
ضرب أسهم ستصيب جنودهم مع إصابتها للمصريين؛ لِتَكْتَلِ
الجميع في نقطة واحدة قريبة.. نيران صديقة لن يجرؤ
الحيثيون - كما توقع (رمسيس) - على إشعالها..

ولكنه اضطر للكرّ بسرعة فقد كان عدد خصومه مهولا
حقا، يفوقه بعدة عدة أضعاف، وكادوا يطوّقونه بتفوقهم
العدي من الشرق والغرب، وتحرك مرة أخرى ليعاود
اختراق صفوفهم صانعا ثغرة أخرى ودافعا بعرباتهم نحو
النهر.. وهكذا دواليك.. سجال متكرر من كرّ وفرّ على عربات
الحيثيين المذهولين، والذين لم يصدقوا أن هناك من يمكن
أن يقاتل بمثل هذه الشراسة والقوة والسرعة رغم قلته
العديّة اللافتة.. وأمام أعين الملك الحيثي ونبّاليه الساخطة
تمكن (رمسيس) - معه أمراؤه - من خلق هذه الثغرة ست
مرات متتالية، مجندلا الكثير والكثير من الحيثيين، ومُسَقِّطًا
بعضًا من عرباتهم الحربية الثقيلة بقلب المعركة رأسًا عن
عقب لا حول لها ولا قوة، وتاركًا بعض العربات الأخرى

تقودها جيادها بلا هُدَى بعد أن فقدت كل من كان على متنها
من جنود.. ولكن نال من المصريين التعب، وبدأ أن نتيجة
هذه المعركة محسومة ومرهونة بطول أمدها، خاصةً وأن
الملك الحيثي قد بدأ يحرك جزءاً جديداً من جيشه وعرباته
لاستكمال سحق المصريين..

الفصل السابع

لم يكن يعلم له اسما.. ولو عرف اسمه وفهم معناه لتاه في الأرض فخرا.. (آمون يمنح القوة)، هذا هو اسمه، ويا له من اسم ينافس في مهابته أسماء وألقاب ملوك (مصر) العظام.. ورغم جهله باسمه ولكنه لم يكن جاهلا عن سيده قوي الشكيمة، الفتى (رمسيس) الثاني والذي اختاره بعناية من بين قطيع كامل من الخيول المدربة على جرّ العربات الحربية، لم يكن وحده المختار ليكون الأفضل، كان يجاوره في الاسطبل الملكي تسعة من الخيول البيضاء المتميزة بالقوة والعنفوان والقدرة على التحمل والركض لمسافات طويلة بسرعة ودون تعب، كان الحصان الواحد من الخيول الملكية يحتاج لثلاثة من الخدم على الأقل لكبح جماحه، ولكن هو فقط من تخيره الملك (رمسيس) الثاني ليرافقه في حملاته الحربية الأكثر أهمية، وكان يغيب عن جيرانه من الخيول الملكية بالأيام والأسابيع يجر عربة الملك في الصحاري البعيدة، لا يكَل ولا يتعب، ويطيع أوامر سيده المفاجئة عندما يحين أوان المعركة، فيبدأ في تنفيذ تلك الحركات التي تقوم بها ذراع الملك تحرّك العنان يمينا ويسارا بسرعة وقوة، فيجاري سيده قوة وسرعةً ويطير كالريح منطلقا نحو الأهداف التي يحددها له سيده، غير

عابئ بعض الارتطامات الجانبية التي تناله أحيانا والتي كانت حدثا نادرا، فسيده سريع كالبرق لا يمكن لأي خصم أن يلحقه..

ولكنه شعر بالاختلاف في هذه اللحظة، هناك زحام وضجيج، هناك الكثير والكثير من الخيول الأخرى الغربية التي لم يألّفها طيلة رحلاته الحربية السابقة، ولكن شيء واحد لم يختلف، تلك القبضة الحديدية القابضة على عنانه والتي لم تتردد للحظة في دفعه للعودة للخلف، قبضة يد سيده الملك..

فوجئ بغطاء عينيه ينسدل عليهما ليمنعه من الرؤية، حدث فريد لم يحدث من قبل في أية معركة، ولكن فعلها معه سيده كثيرا أثناء تدريباته بالوطن، الوطن الذي اشتاق له كثيرا، الوطن حيث لا يوجد ركض عنيف أو شح في الماء أو قلة في توفر أنواع الطعام الفاخرة المعتادة، ولكنه لم يتذمر ولم يبدي أي اعتراض في تنفيذ الأوامر، علاقته بسيده قوية، يحنو عليه ويحدثه كثيرا وكأنه أحد أقرانه، يعطيه الطعام والشراب بيديه، يعلمه شتى أنواع الكر والفر والوثب، كان سيده فريدا فصار هو التابع الفريد أيضا.. وقد حانت الآن لحظة جني ثمار التدريبات الكثيرة والمجهدّة والتي كان سيده يعلمه إياها على مدار السنين، رآه يعلمها

لغيره ولكنه وحده كان أفضل من استجاب لها، فركّز سيده عليه واختاره للرحلات الأكثر أهمية -المعارك- مثل هذه الرحلة، ومثل هذا الوقت الحرج..

عندما يغطي سيده عينيه كان لهذا معنى شديد الخطورة، فبعدها مباشرة كان يبدأ بشدّ عنانه بجنون، يمينا ثم يسارا ثم للأمام ثم يكرّ للخلف مسرعا قبل أن يعاود الالتفات يمينا ويسارا، كانت أوامر سريعة متتالية تصيب أي جواد طبيعي بالارتباك وتمنعه من الاستجابة بالسرعة المطلوبة التي يريدها السيد، ولكن ليس الخيول الملكية، وليس هو بالتحديد، (آمون يمنح القوة)..

استعدّ لسيل الأوامر السريعة، لم يكن يعلم أن منع عينيه من الرؤية يحفز باقي حواسه فتستجيب بسرعة أكثر وبشكل أكثر دقة، ويمنعه من رؤية ما لن يشهده من أوصال ممزقة ورؤوس متطايرة، رؤوس أقرانه -من الخيل- سواء من جيش سيده أو من جيش العدو.. وهكذا جاءه صوت سيده بقلب الضجيج ثم جذب العنان بقوة للأمام.. فقط للأمام.. ولكن بقوة لم يقدّر بها سيده من قبل.. كانت جذبة تحمل عنفوانا من الذراع الملكي يكفي لقلب أي جواد للخلف على ظهره ومُخِلًا باتزان العربية الحربية.. ولكن ليس هو.. الجواد الملكي (آمون يمنح القوة)، والتابع الفريد للسيد

الفريد..

أطلق صهيلا مخيفا، رفع قائمتاه الأماميتان للحظة وكأنه يتحدى خصومه، مالت العربية الحربية كلها للخلف فقام سيده بدفع مركز ثقله كله للأمام ليستعيد التوازن مؤقتا، قبل أن يخفض الجواد قائمته الأماميتين مندفعاً للأمام كالسهم، سامحاً لسيده بالتقَام الأسهم وتوزيعها على الأُرُوس يميناً ويساراً.. يا لهما من فريق جبار لا يمكن هزيمته.. أصبح حساسا للغاية لشدة جذب يد سيده لعنانه، كان يجذبه قليلا لليمين أو قليلا لليسار، ولكن بدون أن يحيد عن الجذب للأمام، وكأنه يدفعه دفعا في سباق محموم يريد أن يكسبه بسرعته ويحتل أول المراكز.. وتناهى لسمعه المرهف أصوات صرخات بشرية محتضرة ممتزجة بصهيل خيل يتألم، أصوات تكسّر عربات حربية وارتطام أجساد من بشر وخيل على الأرض، ولمسته بعض الأجساد -أو الأطراف الممزقة- فمَسَّت جسده الأبيض الناصع مَسًّا بسيطا غير مؤذي، ولكن لم ينله أذى، إذ كانت سرعته تمنع أي خصم من القدرة على مجرد التصويب عليه.. وكادت الأتربة التي دارت في الأجواء كزوابع مجنونة -تسد منخريه، ولكنه تحامل من أجل صديقه وسيده..

فجأة أراح سيده العنان لأقصى اليسار ودفعه ليدور

حول نفسه دورة كاملة، فأصبح وجهه يندفع نحو قائمته الخلفيتين وكأنه يريد أن ينظر لذيله، وبدأت العربية تدور بسرعة مذهلة حول نفسها نحو اليسار لتلتف وتعود أدراجها للخلف.. كان سيده يتقهقر بسرعة رهيبة جراه فيها جواده المخضرم، وحدها العربية الخشبية لم تستطع مجاراة السيد وتابعه الأسطوريين ومالت لجانبها الأيسر بعنف وعجلتها اليمنى ترتفع لتفقد تلامسها مع الأرض الصاخبة، ستسقط الآن، وتنامى لسمعه صراخ قائد العربية - (ميناء) - والذي كان يحمل الدرع الآن فقط ليحمي سيده، تاركا لسيده الخبير مهمة تحريك وتوجيه العربية، المهمة الحرجة والتي لا يمكن لغير سيده القيام بها، ولكن السيد الجبار - (رمسيس) الثاني - مال بجسده ورمى كل ثقله يمينا ثانيًا ساقيه ليعادل وزن العربية، أطاعت العربية أمر سيدها لتعتدل، وخلال ثانية واحدة - أو أقل - كانت تعود أدراجها في خط مستقيم، وكأن السيد يريد العودة للنقطة التي بدأ منها اندفاعه هذه، ثم لم يلبث أن أعاد توجيه العنان يمينا وبقوة وبدرجة قائمة قبل أن يصل لنقطة البداية، ويبدأ في دفع جواده للاندفاع مجددا كالسهم للأمام بدون تأخير، موزعا أسهمه الحاصدة للأرواح ذات اليمين وذات اليسار..

كان التفاهم بين السيد وجواده أشبه بالتخاطر.. بعد مناورة ثالثة فهم الجواد خطة سيده.. الاندفاع للأمام

واختراق صفوف العدو لدرجة تجعله متخلخلاً، ثم العودة للخلف واختيار جبهة أخرى يندفع خلالها للأمام ويفرغها من استقرارها.. وبدأ ينتظر الأمر بالاندفاع للأمام، ثم الدوران للخلف، ثم الالتفات يمينا بغتة ثم الاندفاع للأمام.. ثم الدوران للخلف ثم الالتفات يسارا بغتة قبل الاندفاع للأمام مجدداً.. سيل رهيب من الأوامر المتتالية السريعة كان الجواد ينفذها بمجرد تحريك قبضة السيد للعنان.. وكانت لسرعة الجواد نفسها -أو سرعة أوامر سيده- الدور الأكبر في عدم إصابة أي منهما بأي جرح..

ولكن يبقى السؤال يدور بدماغ الجواد المقاتل، (متى سيتوقف سيدي عن إصدار هذه الأوامر؟ متى سيتوقف هذا التدريب الطويل والعنيف؟ لقد أصابني الإرهاق ولكني لن أتوقف عن تنفيذ أوامر سيدي أبداً، فإما أن يعطيني سيدي الأمر بالتوقف أو ينهار جسدي رغماً عني.. لكني لن أستسلم!)

وفي نفس اللحظة كان (رمسيس) يناجي ربه مبتهلاً وسط ضجيج أصوات صياح الجنود وقعقة العجلات الحربية وثورة الرمال اللاهبة: (ما هذا يا أبي (آمون)؟ هل من الحق أن يتجاهل الأب ابنه؟ ألم أتحرك وأسكن وفقاً لكلماتك؟ لم أغص أمراً لك.. مَنْ يكون هؤلاء الآسيويون بالنسبة لك يا (آمون)؟ البائسون الذين لا يعرفون الإله.. إني أناجيك يا أبي

(آمون) وأنا بقلب جمعٍ غفير من أعداء لا أعرفهم.. تحالفت
كل البلاد ضدي لأُضَبِّحَ وحيدًا وليس معي أحد.. لا أريد أن
تنكسر شوكتي اليوم.. أعْذُني لمحَبوبتي زوجتي ومحَبوبتي
أُمي سالما غانما.. وأعْذُني ل(كيميت) ملكا إلهيا مظفرا..

الفصل الثامن

(وعلى الرغم من أنني أبتهل في أرض بعيدة فإن صوتي
يتردد ب(طيبة).. أتى (آمون) عندما ناديته.. مدّ لي ذراعه
فابتهجت.. ناداني وكأنه في ظهري: تقدم أنا معك.. أنا أبوك
وذراعي معك..)

لم يدرِ (رمسيس) كم مرّ من الوقت، ظنّ أنه ظل يقذف
بأسهمه لسنين، في حين شعر خصومه الحيثيون أنه لم يمر
من الوقت إلا ثوانٍ معدودة، أقنعهم خيالهم -الذي لم يصدق
ما يفعله الملك المصري بهم وحده- أنه لم يَدْرُ بعربته إلا مرة
واحدة فقط، وأنه لم يقتل إلا قليلا، وأنهم سيغلبونه ولو بعد
حين، ورغم قلوبهم الواجفة حاولوا التقدم منه، فكان من
يتقدم يتراجع بفزع مع مرآه للعربات التي تنقلب ذات اليمين
وذاات اليسار مع اختراق أسهم (رمسيس) لرؤوس قائديها،
استطاع (رمسيس) كسب الوقت كما استطاع كسب حماسة
جنوده، التف حوله كل من فرّ ليشعر الحيثيون بأن الأمور
لم تعد تسير كما تم التخطيط لها، مقاومة الملك المصري
لهم -بمقابلته لهجومهم المباغت بهجوم مماثل- أربكتهم
لللغاية، وربما شعر الجنود بالغضب أكثر من مجرد المفاجأة،
سينتصرون عاجلا أم آجلا، مهما بلغت فدائية الملك المصري
فالأكثرية العددية ستسحقه، فلماذا يقاوم بمثل هذه البسالة،

لماذا لا يكتفي فقط - كما فعل ملكهم - بالتواري خلف جيشه وتركه يقوم بالأمر كلها؟ سؤال ليس بالبرئ على الإطلاق في موقف مثل هذا، وبدا من الواضح أن موقف (رمسيس) هزَّ إيمانهم بقضيتهم، هزَّ إيمانهم بسبب هذه الحرب، إيمانهم في أنفسهم كأقوى جنود الأرض وأشرسهم كما يروّجون لأنفسهم دائماً..

جاء المدد! هكذا وبينما الملك المصري المحارب يشنت صفوف أعدائه ظهرت الفرق المتأخرة، جاءت مبكرة يقودها حماسها والأخبار المتواترة بأن ملكهم المحبوب محاصر بين مطرقة وسندان الحيثيين، المدد المنسي الذي تحرك عن طريق البحر - ساحل (أمورو) - مع بدء تحرك الجيش البري نفسه، وتوافق توقيته مع التحام (رمسيس) وعربات الحيثيين، أصيب الجنود الحيثيون بالهلع، لم يصدقوا أنهم سيتعاملون الآن مع فرقة جديدة من الجيش المصري وهم يحاولون الثبات أمام جندي واحد منهم فقط، (رمسيس) الثاني..

التحم الجنود - التواقين للحرب - بالحيثيين الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بين المدد المتحمس يهاجم جناحهم الأيسر، و(رمسيس) والقلعة التي معه يضربون جناحهم الأيمن، أيقنوا بخطورة الوضع فتقهقرت العربات الحربية

نحو الجنوب ولكن بثبات، محاولين الابتعاد عن يد المصريين وإعادة تنظيم صفوفهم، ولكن هيهات أن يتركهم الملك المصري الهَيَّاب المتحفز، حمل عليهم يتبعه عدد كثيف من الجنود الآن، احتدم القتال والجيش المصري يضغط على الحيثيين ليجبرهم على الرجوع بعرباتهم الحربية جنوبا ثم شرقا حتى بلغوا الشاطئ من حيث جاؤوا..

كان الملك الحيثي يراقب -تأتيه الأخبار المتلاحقة على عجل- وهو يكاد يتميز من الغيظ، كان قد سارع بإرسال موجة أخرى من العربات الحربية فور تنامي خبر وصول المدد المصري الساحلي، ولكنها لم تفلح في إنقاذ الموقف المتأزم، بل على النقيض وجدت نفسها متورطة في قتال عنيف سادته الارتباك.. تراجعوا جميعا تقودهم الرغبة في الحياة لا النصر الآن، لاذوا بفرار متعجل لا نظام فيه، وكان مشهدا مهيبا جعل الإمبراطور الحيثي يصاب بالذهول وهو يرى عرباته تفرّ نحو النهر بمنتهى التخبط، تلاحقها القوات المصرية وعلى رأسها الملك نفسه.. رأى جيشه يتشتت، تتلخخ جباههم جميعا بماء النهر كبيرهم قبل صغيرهم، سابحين للضفة اليمنى طالبين النجاة بأرواحهم..

بعد عبور جميع قوات الحيثيين للبر الغربي للنهر سارع المصريون بنشر القوات بعرض الضفة، وبينما يتجرع

الحيثيون ذهولهم وخزيهم ظهرت بالأجواء طلائع فرقة (بتاح) وعلى رأسها الوزير، تَتَبَّعُهَا فلول فرقتي (رع) و(آمون) المذعورتين، وانشغلوا جميعا في جمع الأسلاب، وتم جمع الأسرى وحساب عدد الخسائر البشرية للخصم بأسلوب رهيب بقطع يد من كل جثة تم إحصاؤها..

وقف الملك والمحارب العظيم (رمسيس) في وجه فرقتيه المذعورتين، عيناه تكادان تشتعلان حنقا، ويقول بصوت هادر سمعه الجميع:

((ماذا تنتظرون أن يقول الناس عندما يسمعون أنكم فررتم من جانبي وتركتموني وحيدا؟ لم يساعدني قائد ولا ضابط في القتال! لقد قهرتهم وحدي وخرجت بالنصر والإله (موت) راض عني.. وللحق فقد وجدت جواد عربتي العظيمة (آمون يمنح القوة) هو الذي أعانني - وأنا وحيد- أحارب الأجانب.. سأنحنى له بنفسي وهو يتناول غَلْفَه يوميا أمام ناظري بقصري، وإليكم من وجدته يمد لي يد المساعدة بالمعركة: إنهم قائد عربتي و(ميناء) -حامل درعي- وحملة كؤوسي، هم شهود المعركة وهم من وجدتهم بجانبي..))

بدأ معسكر المصريين يرتاح بعد الوصول المتأني لفرقة (ست)، بينما كاد (مواتاللي) الإمبراطور الحيثي يصاب بالجنون وهو يعيد تقييم الخسائر أمام جنوده، فبالرغم من

تَكْبِدُ فرقتي (آمون) و(رع) خسائر جسيمة تُخْرِجُهُمَا من الصراع، ولم يتواجد ضدهم الآن إلا فرقتا (بتاح) و(ست) والمدد الساحلي، وبالرغم من أن أغلب مُشَاتِه الكثيفة لم يَمْسَهُمْ سوء، وكذلك عرباته الحربية أغلبها سليم لم يصاب بضرر، ولكنه خسر عدد كبير من القادة، كل من اقترب من (رمسيس) راغبا في نيل شرف قَتْلِهِ لقي هو مصرعه بأحد أسهمه، خسر (مواتالي) اثنين من إخوته واثنين من حاملي دروعه وأمين سره ورئيس حرسه الخاص وأربع من قائدي العربات الحربية، بالإضافة لستة من قيادات الجيش من شتى الرتب، فتجرع (مواتالي) مرارة خسارته وأقسم أن ينتصر في اليوم التالي..

كانت المعركة الفاصلة في وقت مبكر من اليوم التالي، أخذ (رمسيس) الثاني زمام المبادرة وهاجم بعنف، قابله الإمبراطور الحيثي بجيوش منظمة تفوقه عددا استعادت توازنها، كانت معركة دموية ولكن لم ينجح فريق من التغلب على الآخر، فبالرغم من تفوق الحيثيين العددي فإن افتقارهم لقائدي عرباتهم الحربية جعل عربات المصريين أكثر فتكا.. وهكذا بادر (مواتالي) باتخاذ خيار السلام وعرضه على الملك المصري، لقد كان هو من قام بمعاهدة السلام مع أبي (رمسيس) العظيم (سيتي) الأول، وهكذا أراد السلام مع ابنه، فأرسل الوفد للملك المصري ومعه مقترحات

الصلح، معترفا له ببسالته في القتال..

توقفت المعركة.. هدأت الاصوات وتوقف وجيب القلوب
وصليل الأسلحة وصهيل الخيول.. لم يكن (رمسيس) ميّالاً
للسلام أبداً، لا يمكنه الآن التراجع عن حلم حياته بعد أن صار
قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه، جمع مستشاريه وعرض
عليهم مقترح الحيثيين، ففوجئ بموافقة جماعية على
السلام..

شعر (رمسيس) بغصة في حلقه وهو يفكر.. ((لقد اكتفوا
جميعاً من الحرب.. لا يوجد لدى أي قائد أو جندي الرغبة
في الصدام مع الحيثيين.. لا يريدون حتى الهجوم على
(قادش)، مربط الفرس الذي أردت القيام بكل هذه الحرب
من أجله.. ولكن لا يمكنني أن أقرّ سلاماً يضيع (قادش)
و(أمورو) من بين يديّ.. لقد غامرني حقد عميق على أبي
-العظيم (سيتي) الأول- لإبرامه مثل هذا الصلح، فلماذا
أقوم به بنفسي الآن؟!))

اتخذ الملك قراره وقال لقواده بحسم لا يقب الجدل:

- حسناً.. لا أرى في عيونكم رغبةً في الحرب.. ولا يمكن
جرّ الجندي لمعركة لا يريدّها قلبه.. فالقلوب وحدها هي التي
تأتي بالنصر المبين.. ولهذا، قرر جلالتي الموافقة على وقف
القتال، ولكنني لن أقبل أية معاهدة تمنعني من الزحف مجدداً

على (قادش) و(أمورو).. سأعود الكثرة وأعود مجددا..
سأعود يا (قادش)..

ولكنه لم يعلم أنه لن يعود ل(قادش) مرة أخرى طيلة حياته.. لقد كان متفائلا أكثر مما يجب، وربما خانه بُغْد نظره، فبالرغم من فشل (مواتالي) في هزيمته أو إبرام معاهدة سلام حقيقي معه، ولكنه نجح في الحصول على فرصة ذهبية لم يكن يتوقعها، ليلتقط فيها أنفاسه وتأثير مفاجأة خسارته لأغلب رجاله الكبار.. وهكذا وبمجرد عودة (رمسيس) لمدينته في موكب نصر هائل يتقدمه الأسرى والغنائم، كان (مواتالي) يحكم قبضته على (قادش)، ثم يتجه غربا ليخضع (أمورو)، وحقق هدفه الرئيسي في ردّ كليهما - (قادش) و(أمورو)- لقبضة الحيثيين رغم عجزه - حقيقةً- عن دحر (رمسيس) الثاني..

وبينما كان (رمسيس) يحتفل ب(مصر) كان (مواتالي) يستعيد نشاطه ويتجه جنوبا بدلا من العودة لوطنه شمالا، مُهذِّدًا المركز المصري، ثم اتجه شرقا عبر جبال (لبنان) القديمة ليحتل (دمشق) ومستعمرة (أوبي) المصرية.. شاكرًا الملك المصري على مكابرتة ورفضه لصيغة سلام كامل، مما منحه الفرصة لتجريد حملاته الحربية على مستعمرات (مصر).. ولكن يتدخل القدر ويمنع (مواتالي) من نصر

كامل، إذ تستغل (آشور) الجريئة انشغال الحيثيين مع جيش (رمسيس)، وتغير على آخر ما تبقى من أرض (ميتاني) وتضمها لمملكتها، منهية صراع قديم بين الآشوريين والحيثيين عليها.. في حين كان الملك المصري (رمسيس) الثاني مشغولا بتخليد ذكرى انتصاره -الشخصي الهزيل- في (قادش) بنقش الملحمة على جدران كل المعابد الكبرى بالبلاد..

ولكن على كل حال لم يكن (رمسيس) غافلا عن فشله الثنائي -في حرب المخابرات وفي الحرب الفعلية- فقام بإجراء تغييرات جذرية بالجيش، ورأى أن يريح الجيش قليلا لحين إعادة تنظيمه فانشغل بفكرة إنجاز معماري جديد يخلد اسمه، فاختر جرفين صخريين شديدي الميل صخورهما الرملية حمراء اللون على بر النيل الغربي، صخرة (أبشك) أو أبو (سمبل) حاليا، وقرر نحت معبدتين بجوف هذه الصخور الحية يجسده شخصيا في صورة أربعة تماثيل عملاقة تمثله جالسا، تكون مدخلا يؤدي لمعبد كل أبهائه منحوتة من الصخر في قلب الجبل نفسه، ولم ينس أن ينقش صور معركة (قادش) وبطولاته الشخصية بها على كل الجدار الشمالي الداخلي..

الفصل التاسع

منتصف السنة السادسة لحكم (رمسيس) الثاني

ركّز الملك اهتمامه على بناء الجيش المهلهل، بدأت الاضطرابات تسود (كنعان) و(سوريا)، ونشأت ممالك فتية تمردت على النفوذ المصري مثل مملكتي (مؤاب) و(أدوم)، عاثت قبائل (الساشو) الفساد بقلب (كنعان)، كان وضعاً فوضوياً لم يحدث منذ عهد الملك (سيتي) الأول بعيد النظر، ولكن لم يستطع (رمسيس) الثاني أن يحرك ساكناً.. ليس الآن..

منتصف السنة السابعة لحكم الملك

انتهى من إعداد الجيش كما يريد، ثم أرسل حملة صيفية نحو (كنعان) وأخضعها، وتم طرد (الساشو) تماماً من المنطقة، ثم غزا الجيش المصري شرق (فلسطين)، وفرض نفوذه بكل (كنعان) بمنتهى القسوة، ثم اتجه شمالاً متجاوزاً (دمشق) لاستعادة مستعمرة (أوبي) المفقودة، وهكذا علم الجميع أن أي تمرد قادم سيتم رده بمنتهى القوة، وأن الملك المصري لا يكل ولا يمل لفرض سيطرته، بينما فكر (رمسيس) في هدفه القادم، إخضاع (سوريا)، (قادش) و(أمورو) من جديد..

منتصف السنة الثامنة لحكم الملك

تحرك بجيوشه الجرارة ليمر على (كنعان)، ثم احتل (عكا) ومنها صال وجال بساحل (فينيقيا) كله، ثم استدار ليهجم على (أمورو)، دمر كل ما واجهه من مقاومة واستطاع أن يعزل (أمورو) تماما عن (قادش)، انتظر ظهور (مواتالي) فلم يأت رغم توغل (رمسيس) بقلب أراضي الحيثيين بالفعل، وهنا تأتي الأخبار بأن الإمبراطور المهيّب (مواتالي) قد فارق الحياة بدون أن يترك وريثا.. عاد (رمسيس) ل(مصر) عازما على فتح (سوريا) العام التالي، ولكنه بمجرد عودته أثار جواسيس الحيثيين مستعمرات (مصر) وأعادوها لحظيرة الحيثيين من جديد!

السنة العاشرة لحكم الملك

اجتاز (فينيقيا).. تحرك بنشاط شرقا وغربا -يقود جيوشه بنفسه كالعادة- ليدمر كل مقاومة موجودة.. سيطر على كل الأراضي السورية ثم عاد ل(مصر) عازما على إخضاع (سوريا) بالكامل العام التالي، فقط ليفاجأ بتمرد كل المستعمرات السورية ضده من جديد.. وهنا.. أيقن (رمسيس) أنه لن يستطيع إخضاع (سوريا) ما لم يسيطر على (قادش) و(أمورو)، فأوقف حملاته الشمالية على (سوريا) في سنوات حكمه من الحادية عشرة للسابعة عشرة،

وقد قنع بالسيطرة على مستعمرات (مصر) التقليدية، مَحَوِّلاً وجهه لجبهات أخرى، فقام بالاتجاه غرباً لحماية الحدود الليبية، فأنشأ الحصون القوية بطول الحدود.. ثم اتجه جنوباً نحو (النوبة) لقمع تمرد حديث هناك، وأخذ معه ابنه الأمير (مرنبتاح) الفتى العشريني كتدريب ومصدر خبرة عسكري..

ومع الوقت عانى خلفاء الراحل (مواتاللي)، سواء في حروبهم ضد بعضهم على السلطة، أو حروب مهلكة ضد المملكة الآشورية الصاعدة بمنتهى القوة، فاضطر الوفد الحيثي الإمبراطوري أن يبادر (رمسيس) الثاني -أقوى عدو محتمل بالمنطقة- بمعاهدة سلام حقيقية كاملة كخيار سياسي ذكي، وهكذا صار كلٌّ من (مصر) و(خيتا) حليفين استراتيجيين، وهو ما لم يحدث منذ أيام (أمنحتب) الثالث السعيدة، فضمن (رمسيس) هيمنته على المرافئ الفينيقية، ولم يعد لديه سبب للتوجس من الجانب السوري، خاصةً وأنه أصبح بمنتصف عمره الآن، وأقل ميلاً لخوض معارك حربية عنيفة.. وبلغت قوة العلاقات بين المصريين والحيثيين أن أرسل الإمبراطور الحيثي يطلب من (رمسيس) أن يوافق على التقدم لخطبة ابنته الأميرة الحيثية، فوافق (رمسيس) بسرور، وتم زفاف الأميرة الحيثية لـ (مصر) في موكب مهيب، ثم تزوجها الملك (رمسيس) سامحاً لها بالمشاركة في تشريفات القصر كملكة

مصرية، ولما انقضى على زواجهما عام كامل توطدت العلاقة
بين البلدين وتلاشت أية شكوك حديثة في دوام السّلم..

ونسى الملك المصري (قادش)، وحكم لفترة من السنين
بلغت سبعة ستين نعمت فيها البلاد بالرخاء والأمن على كل
المستويات..

الخاتمة

تولى الملك (مرنبتاح) العرش شيخا في أواخر الستينيات، حافظ على إرث أبيه وأرسل الجيش شمالا لجنوب (سوريا) و(كنعان) لإخماد ثورات حديثة هناك.. ثم تحرك غربا وجنوبا لإخضاع متمردين من صحراء (ليبيا) وب(النوبة).. أجرى الجولات التفتيشية على المعابد واهتم بالشؤون الداخلية، ولكنه كان مريضا بشدة ومات فجأة بعد حكم دام عشر سنين فقط، وبالرغم من أن الحكم من بعده كان لوريث العرش الرجل الخمسيني (سيتي) الثاني، والذي كان قائدا عاما في حكم أبيه ولم تكن تنقصه المهارة أو الخبرة، ولكن سطع نجم رجل آخر هو (آمون مس) ليصارعه على الحكم، معلنا أن أمه هي الملكة الأم الشرعية.. وهكذا كانت فترة حكم شبه مشتركة تنازع فيها الاثنان واضطربت أحوال البلاد، ثم أتى عدة ورثاء شرعيين خلفا ل(سيتي) الثاني بعد موته لينتهي الأمر بزواجه (تاوسرت) ملكة مهيبة ووصية على الحكم، بمساعدة المستشار السوري القوي (باي) الملقب بصانع الملوك..

حكمت (تاوسرت) (مصر) طويلا كملكة حقيقية تحمل كل الألقاب الملكية، ولما ماتت انقطعت ذرية العظيم (رمسيس) الثاني لتتولى الحكم أسرة ملكية جديدة وهي أسرة الملك

(ست نخت) والذي حاول أن ينقذ البلاد من التدهور الأخير.. لم يسعفه الوقت، ليخلفه ابنه العظيم (رمسيس) الثالث والذي صمم على استعادة أمجاد سلفه، فأرسل الجيوش غربا وشرقا في حروب وقائية هدفها بعيد المدى وإعادة الهيبة المصرية للحدود، خلد انتصاراته على جدران معبد جنائزي فخم بمدينة (هابو) -غرب (طيبة)- ولكنه لم يجد رجالا يساعده في تحقيق طموحاته، فيبدو أن مَعِينَ رجال (مصر) الأفذاذ قد نضب حينها، وهكذا سادت الاضطرابات الداخلية البلاد والتي وصلت حد التآمر على الملك بالقصر نفسه واغتياله، وبرحيله خَلَفَهُ ملوك غير ذوي شأن، انكشبت بتتابعهم مستعمرات (مصر) الخارجية وتبخرت حدودها، انسلخت (النوبة) عن (مصر) وأعلنت استقلالها، لم تعد (سوريا) تتبع (مصر)، وحلت المجاعات البلاد وتم نهب مقابر عظماء الملوك والملكات بواديهما وبمعابدهم الجنائزية، وبموت (رمسيس) الحادي عشر انتهت الدولة الحديثة ولم يعد هناك أثر لإمبراطورية الرعامسة مترامية الأطراف.

تفرقت (مصر) مجددا، وصار يحكمها حاکمان، شمالي بمدينة (تانيس) وجنوبي ب(طيبة).. واستشّرت عملية نهب وسلب القبور لدرجة جعلت الحكام يقومون بتجميع رفات كل الملوك السابقين من مقابرهم -بما فيهم (رمسيس) الثاني نفسه- ويضعوها في مقبرة سرية جماعية.. واستمر ركود

تام داخلي وخارجي حتى وثب للحكم رجل قوي أتى من مدينة (بوبسطس) ليثب على حكم الشمال، إنه (شاشانق) الأول، والذي بمجرد بدء حكمه أعاد توحيد البلاد بأن أخضع الجنوب لسيطرته بتعيين ابنه الثاني كبيرا لكهنة (طيبة)..

زامن (شاشانق) بزوغ نجم (إسرائيل) الوليدة، فلما مات النبي (سليمان) كان ل(شاشنق) يد في تقسيم مملكته لدويلتين بعد أن غزا (فلسطين) وعاد منتصرا، وبدأت (مصر) تسترجع انتصاراتها القديمة، وبدأ الملك في إصلاحات داخلية بدأها ببناء فناء واسع بمعبد (آمون) ب(الكرنك)، ولكنه مات فجأة بعد عام واحد، ليأتي بعده ملوك ضعاف بلا حول ولا قوة، وثب كهنة (طيبة) للحكم مجددا، وغاصت البلاد في حروب أهلية وانشقاقات دامت طويلا، ولم تنته إلا مع الغزو الآشوري، الحضارة التي صار لها صيت قوي هذه الفترة، وهكذا دخلت جيوش أجنبية (مصر) للمرة الأولى منذ ألف سنة إبان احتلال (الهكسوس)، وتعرضت (طيبة) نفسها للنهب والسلب بشكل لم يحدث من قبل، ووقعت (مصر) تحت الحكم الآشوري ردحا من الزمن..

برز للساحة ملك جديد سياسي، (بسماتيك) الأول قادما من مدينة (سايس) - صا الحجر حاليا- واعترف بالتبعية ل(آشور) ليضمن شرعية ثم توسع في سيطرته حتى

اعترفت له (طيبة) ملكا لتتحقق ل(مصر) الوحدة ولو ظاهريا.. وبعد وفاته اعتلى العرش الملك (نخاو)، والذي في عهده سقطت (آشور) وتقاسمت إرثها (بابل) و(ميديا)، وفي عهد البابلي (نبوخذ نصر) الثاني بلغت (بابل) أقصى قوتها، وتم صدام بين الملكين - (نبوخذ نصر) الثاني و(نخاو)- بسبب رغبة كل منهما في السيطرة على (يهوذا)، فانهزم (نخاو) ووقعت المملكة المصرية في يد (بابل)، وحاول خلفاء الملك المصري الثأر من الملك البابلي القوي ولكنهم لم ينجحوا، حتى اضطر الملك (أحمس) الثاني لعقد معاهدة سلام معه اتقاءً لشربه..

تطورت الأحداث التاريخية بالمنطقة.. لقد انبثقت الإمبراطورية الفارسية القورشية من رحم دولة (ميديا)، غزا (قورش) الفارسي (بابل)، ثم خلع ابنه (قمبيز) الملك المصري (بسماتيك) الثالث لتنضم (مصر) للإمبراطورية الفارسية وتصبح إحدى ولاياتها.. وكانت هذه هي الفترة التي زار فيها المؤرخ اليوناني الشهير (هيرودوت) (مصر)، وجاب البلاد كلها للدراسة والبحث، وهي نفس الفترة التي هزم فيها اليونانيون الفرس، فتحالف الكهنة مع اليونان من أجل إسقاط الفرس.. ونجحوا بالفعل في طرد الولاة الفرس لفترة من الزمن قبل أن يعود الفرس ويستعيدوا (مصر)، ولم ينجح في إجلاء الفرس بشكل تام إلا (الإسكندر)

الأكبر، فاحتفى به المصريون ملكا عليهم، ونَصَّبُوهُ خليفةً
إلهيَّ لعظماء (مصر)، وذلك بعد أكثر من ألف سنة من
صولات وجولات (تحتمس) الثالث و(رمسيس) الثاني.. ثم
يتعاقب الرومان على حكم البلاد من (بطليموس) الأول ثم
(كليوباترة).. ثم دخل الإسلام (مصر) مع الفتح العربي..

المراجع التاريخية

- فجر الضمير: تأليف جيمس هنري برستد.. ترجمة سليم حسن..
- مجلد الديانة المصرية ومجلد الحضارة المصرية للدكتور خزعل الماجدي.
- كانت ملكة على مصر: تأليف ونفرد هولمز.. ترجمة سعد أحمد حسين.
- تحتمس الثالث: تأليف ريتشارد أ جابرييل.. ترجمة د. محمد رأفت عباس.
- رمسيس الثاني: تأليف كنت أ.كتشن.. ترجمة د.أحمد زهير أمين.. مراجعة د.محمود ماهر طه.
- الحياة اليومية في مصر: تأليف بيير مونتييه.. ترجمة عزيز مرقس منصور.
- معجم الحضارة المصرية القديمة: تأليف سيسرج سونرون، جان يويت، أ.أ.س. ادواردن، ف.ل. ليونيه.. ترجمة: أمين سلامة، د.سيد توفيق.
- كتاب الموتى للمصريين القدماء (شرح النصوص) بقلم محسن لطفي السيد.

- الآلهة والناس في مصر: تأليف فرانسواز دونان،
كريستيان زفي كوش.. ترجمة فريد بوري.. مراجعة د. زكية
طبو زادة.

- السحر والسحرة عند الفراعنة: تأليف إيفان كونج.. ترجمة
د. فاطمة عبدالله محمود.. مراجعة د. محمود ماهر طه.

- المومياوات المصرية من الموت للخلود: تأليف روجيه
ليشتنبرج، فرانسواز دونان.. ترجمة ماهر جويجاتي.

- مصر القديمة: نجيب محفوظ